القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • يوليو - أغسطس 2006



بعد المونديال!

العدد 4
المجلد 55

قافلة الأبحاث

تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً الهدف منه إشراك الباحثين الراغبين، خاصة طلاب وطالبات الجامعات، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. والهدف من هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمولية و الإحاطة بكافة زوايا الموضوع المطروح، ليتم تقديمها في النهاية على شكل موادٍ صحفية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تحديد الفترة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستتم مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتابها.

صورة الغلاف



Reuters

تحلل «القافلة» في هذا العدد البعد الجماهيري لمونديال كأس العالم، صورة الغلاف.. لقطة ساخنة من مباراة منتخب إسبانيا والمنتخب السعودي

القافلة

أرامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
د. محمد أمين ملا

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

فريق التحرير
فاطمة الجفري
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
أمين نجيب
رولان قطان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها
- لا يجوز إعادة نشر أي من موضوعات أو صور «القافلة» إلا بإذن خطي من إدارة التحرير
- لا تقبل «القافلة» إلا أصول الموضوعات التي لم يسبق نشرها

محطات العدد

يوليو - أغسطس 2006
جمادى الآخرة - رجب 1427

توزع مجاناً للمشتركين
العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

الهواتف: رئيس التحرير 7321 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

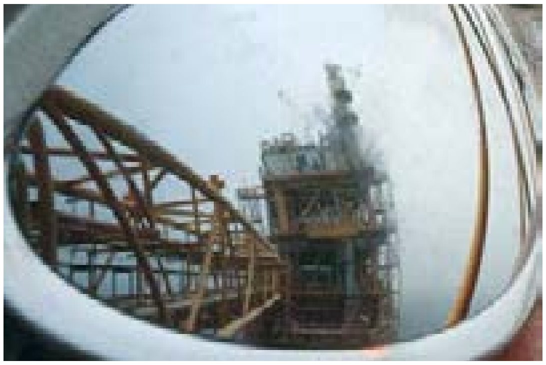
بعدما عاش العالم بأسره لمدة شهر كامل على إيقاع مباريات كأس العالم في كرة القدم، كان من الطبيعي أن تستهل القافلة رحلتها في هذا العدد بقراءة متأنية لكل ما تكشَّف عنه هذا الشهر الكروي الطويل من تطورات وتغيرات طرأت على عالم اللعبة الأكثر شعبية في العالم، والتي تحوَّلت في جانب منها إلى صناعة عملاقة تتغذى من ازدياد الشغف بمتابعتها، لتعود وتغذي هذا الشغف الذي وصل إلى مستويات غير مسبوقة لا في تاريخ كرة القدم ولا غيرها من الرياضات.



أمـا باب «قول في مقال» فيناقش قضية هجرة اليد العاملة انطلاقاً من بعض التقارير الدولية التي تتحدث عن عوائد وسلبيات هذه الهجرة على البلدان الأم.

2 طاقة واقتصاد

وفي مناخ الطاقة والاقتصاد موضوعان. أحدهما عن التوقعات التي تحاول أن تحدِّد موعد بلوغ إنتاج الزيت ذروته. وبعد استعراض الأسس التي قامت عليها التوقعات المتشائمة والدوافع إليها، يدفع البحث موعد بلوغ هذه الذروة إلى تاريخ أبعد بكثير من التوقعات المتداولة.



أما الموضوع الثاني، فهو استكمال للقضية التي كانت القافلة قد طرحتها في العدد السابق حول الأداء الجديد والمتطور للعمل المصرفي بعنوان «مصرفية تتعدى المصرفية».

3 علوم وبيئة

أما مناخ العلوم، فقد تم تخصيص صفحاته لموضوع يشغل مبتكري التكنولوجيا المتطورة -وتحديداً أجهزة الكمبيوتر- ومستخدميها على حد سواء، ويتمثل في وصول تعقيداتها إلى مستويات باتت تفرض التبسيط الذي يبدو أنه يشكِّل الاتجاه المستقبلي للابتكار في هذا المجال.



الفاصل المصور

وتواصل القافلة استضافة المواهب السعودية اللامعة في فن التصوير، وتخصِّص صفحات الفاصل المصور في هذا العدد لعينة من أعمال عبدالعزيز التركي، تعبِّر عن شغفه بمتابعة الجمال في الطبيعة ما بين وجوه المخلوقات وتضاريسها الجغرافية وآفاقها الرحبة





4 الحياة اليومية

ويطرح مناخ الحياة اليومية قضية المسكن السعودي المعاصر، من زاوية مواءمة المتطلبات مع القدرات المحدودة، وكيفية الاستفادة من هذه القدرات حتى الحدود القصوى من خلال عدد من التوجيهات التي لا بد من الالتفات إليها عند تصميم المسكن الجديد.

5 الثقافة والأدب

وفيما يشبه الاستراحة من القضايا الشائكة، ينقلنا مناخ الثقافة والأدب إلى موضوع الأُغنية العربية الفكاهية والنكتة الساخرة فيها، هذا الفن الذي كان يزدهر في أشكال راقية بازدهار فنوننا عامة، ويتدهور بتدهورها، وقلّما شدَّ الاهتمام إليه بحد ذاته.



بعد ذلك ينقلنا المناخ نفسه إلى عرض لرواية أمريكية حديثة، تطرح في جوهرها وأحداثها سؤالاً كبيراً حول الحدود المقبولة أخلاقياً التي يمكن للهندسة الوراثية أن تصل إليها.



6 ملف العدد

أما ختام هذا العدد فقد يفاجئ القارئ بعض الشيء، لكنه سيكتشف بسرعة أنه أمام واحدة من أطول الممارسات عمراً وأكثرها شيوعاً: «الافتراس». الحيوان فريسة حيوان آخر، أو فريسة الإنسان. أو الإنسان المفترس والفريسة، علم وثقافة وتاريخ.



المحرر

الرحلة معاً

الحراج الفضائي للألقاب

ليس موضوعنا هنا مونديال كأس العالم، لكنَّ هذه الحمى الكروية الدولية تدخل في سياقه بحكم الضرورة وبحكم قربنا من الحدث.

الذين تابعوا الفضائيات العربية، من الماء إلى الماء، تابعوا استوديوهات التحليل التي فتحت أمام جحافل خبراء الكرة العرب. وهذا لا غبار عليه، بل الغبار، والطين أيضاً، هو كيف قدَّم المذيعون خبراءهم من جهابذة الملاعب العربية. كان كل مذيع يبزُّ زميله بقدرته على خلع ألقاب جديدة وكبيرة على ضيوفه. فالذي معه في الأستوديو هو «خبير كرة القدم الشهير» و «الخبير الأشهر» في محبوبة الملايين و «العلاَّمة الرياضي فلان» و «صاحب الصولات والجولات» في ملاعب كرة القدم و «البطل المعروف»، إلى آخره من ألقاب مجانية تصدم الأذن الواعية لحال الكرة العربية التي تتكوم مغانمها في بطولات حواري محلية، وتعود من المسابقات الدولية بخفي حنين ومعهما دستة من الأهداف التي ولجت مرماها.

يحدث هذا على مسمع ومرأى (خبرائنا) الذين يضعون خطط لعب لفرنسا وإنجلترا والبرتغال وقد يفتح أحدهم فمه واسعاً ليدل رونالدو أو زيدان على طريقة أفضل للتخلص من رقابة الخصم. وليس مستبعداً أن يقبل أحدهم بمقعد مدرِّب ألمانيا بشرط أن يسمع اللاعبون كلامه ويطبِّقوا خططه الجهنمية للفوز في المباراة.!!

أما من أين أتوا بهذه الجرأة البالغة في النقد والتحليل، فأظنهم وقعوا في فخ المذيعين الذين فقدوا سمة التواضع في خلع الألقاب والأوصاف على ضيوفهم، ربما ظناً منهم أنهم يحسنون صنعاً، بينما هم في الحقيقة يسيئون إلى أنفسهم وإلى ضيوفهم وإلى الناس المتفرجين، المخدوعين بما تسبغه هذه الألقاب على الجالسين أمامهم.

وإذا كان سلاطين أستوديوهات الكرة يخلعون الألقاب على ضيوفهم على هواهم، فإن سلاطين أستوديوهات وبرامج الحوارات السياسية والاقتصادية لا يقلّون عنهم في حمل كل ضيف على محمل لقب فخم يخلب الألباب ويجذب الأنظار. هناك تجد تسطيراً مختلفاً للأوصاف المجانية فأنت تتفرج على «مفكر كبير» و «علاّمة جهبذ» و «الفيلسوف فلان» و «فريد عصره الكاتب فلان» و «المحلل الاقتصادي الكبير» و «خبير الأسهم المعروف» و «خبير التنمية فلان» و «المثقَّف المرموق» وما إلى ذلك من الألقاب التي لو صحت لأصبحت الأمة العربية، بقيادة هؤلاء الجهابذة، في مقدمة الأمم في وقتها الراهن.

والمشكلة في مسألة توزيع هذه الألقاب كيفما اتفق، أنك لو دقَّقت في استمرائها من قبل الحراج العربي الفضائي لوجدت من يقول إنها مجرد كلام أو مجرد أوصاف لا تضر ولا تنفع فلماذا تعطيها كل هذا الاهتمام وتبتئس منها بهذه الطريقة. والحقيقة هي أنها، بما تمثله من مسلك إعلامي، شديدة الضرر على حياتنا التي تحتاج إلى مزيد من التواضع والواقعية التي تتماشى مع ما نحن عليه من أحوال متخلِّفة على كل الصعد.

حين تكون أمتنا تعاني إلى الآن من أمية مبدئية في فك الحرف، وحين يكون خطابنا السياسي مرتبكاً إلى هذه الدرجة، وحين يكون الوضع الاقتصادي العربي مديوناً بنصف ناتجه الإجمالي العام، أي بحوالي 250 مليار دولار، وحين يكون الكتاب العربي أفقر الكتب حول العالم تأليفاً وتوزيعاً وقراءة، فإن أولى العتبات إلى عقلها الإعلامي هو التواضع الذي يفتح أمامها الطريق الصحيحة للتعامل مع الحقائق كما هي، لتصل إلى الناس من دون أغلفة زاهية تخدع عين أو أذن المتلقي وتبني لديه مع الزمن قوالب ذهنية تتناقض مع واقعه وحال من يتحدث إليه، الذي ربما تختفي ضحالته خلف اللقب الذي تبرع به المذيع، أو ربما اكتفى من غنيمة الحضور الإعلامي باللقب الكبير وبإثارة العواطف إلى الحد الأقصى، بينما تبقى مكتسبات العقل والمنطق لدى المتلقي عند حدها الأدنى.

إن أولى الحقائق التي تتطلَّب مزيداً من التواضع هي أن ظهورنا الإعلامي يجب أن يهدأ على مستوى الألقاب ويصف الناس بوظائفهم الحقيقية: أستاذ في جامعة كذا ومؤلف كتاب كذا وعضو جمعية كذا ورئيس لجنة كذا ومحاضر هنا أو هناك. وبهذه الصورة من التواضع نخرج من حراج الألقاب الفخمة البرَّاقة ونكون أصدق مع أنفسنا وواقعنا ومع الناس.

أما الحقائق الأخرى فحكايتي وحكايتكم معها تطول.

رئيس التحرير

قافلة القرّاء

إلى.. رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

شكرٌ وضحكة واقتراح..

لا أكتب لكم كي أشارك في قافلة الأبحاث، ولكن لأني أريد أن أقول كلمة لكم، ألا وهي «الله يعطيكم العافية».. ابتداءً من رئيس التحرير ومروراً بكل أعضاء الفريق وحتى المنضم إليكم حديثاً أمين نجيب.

عندما رأيت إعلان قافلة الأبحاث، قلت وبعد كل هذا الجهد جهد، وأنا أكتب إليكم لأحييكم على هذه المبادرة السامية الرفيعة. فأنا أحب القافلة وأعتبرها كنزاً ثميناً غالياً ما رأيت مثله بين المجلات.. وأنا إنسان بسيط و «على قد حالي» ولست بكاتب ولا أديب. ولكني أعشق قراءة المجلات على اختلافها وقد قرأت وتابعت كل المجلات. ورأيت أن لكل مجلة شخصية مختلفة ولو كان اختلافاً قليلاً في رأيي المتواضع.

أنا لست قارئاً للمجلات الغربية بسبب ضعف لغتي الإنجليزية، ولكن نَفَس القافلة يمكن أن يكون مثلها والله أعلم.

المهم أنكم كأسرة تقومون بعمل رائع والله، والقافلة تفتح لي كمتابع لها باب حب الحياة والمعرفة والفن في كل صفحة من صفحاتها، لأنها لا تحمل فقط معلومات وعلم، ولكن فيها جمال وحلاوة في كل صورها، وفي طريقة عمل وتقديم الصفحات. وكل صفحة من صحفاتها ليست مشغولة بعقلية الموظف (الذي يريد أن يأخذ مرتبه آخر الشهر وخلاص) ولكن يشهد الله أن القارئ يرى حبكم وعقليتكم المتفتحة والجميلة في كل صفحة من الصفحات وإن كان يفوتكم أحياناً بعض الأشياء البسيطة، فأنا بعقليتي البسيطة لا أدرك المغزى وراء ذلك.

وأرجوكم أن تكثفوا حملاتكم الدعائية للقافلة فكلنا نحتاج إلى قراءتها.

وأحياناً عندما أستلم نسخة القافلة أقول لنفسي إنني محظوظ لأن القافلة تصلني بانتظام. ولكن هناك من لا يعرف أصلاً أن هناك مجلة اسمها القافلة. وأنا فخور أن عندنا مجلة عربية بهذه الجودة وبهذا الجمال.

واسمحوا لي أن أقدم مجموعة ملاحظات واقتراحات حول العدد الجديد من المجلة. وأعداد سابقة منها:

- في الأعداد الأخيرة لاحظت أن الأستاذ محمد العصيمي في بداية المجلة في الرحلة معاً اقترب كثيراً من هموم وحكايات القارئ وهذا اتجاه جديد على صحافتنا الثقافية، وأنا أحييه وأشد على يده.
- قضايا كل عدد أكثر من رائعة، ولا أنسى موضوع القيادات الشابة، وموضوع القراءة، والعرب والاتصال بعلوم العصر، والتعليم عن بعد، وأرجوكم أن تبتعدوا عن المشي مع التيار فيما يخص هذه المواضيع. من ناحية أخرى فإن موضوع المصرفية تتعدى المصرفية تناولته مجلة المجلة ومجلة بيزنس ويك، ولا أستغرب أن تكون هناك مجلات أخرى تناولته.

أنا أقرأ القافلة لأرى الجديد المميز لا الجديد المستهلك وألاحظ أن القافلة تعرّف القارئ بما يحدث حول العالم، ثم تستنتج في قضاياها تطبيقاته في العالم العربي والمملكة العربية السعودية. وهذا المنهج سديد فلا تحرمونا منه.

- أهم زاوية في رأيي في القافلة هي زاوية قول في مقال. وفاجأني في العدد الجديد بكاتب لم أقرأ له إلا مرة واحدة على ما أذكر ألا وهو الكاتب كميل حوا، المدير الفني، الذي لطالما أمتعتنا مقالاته في الحياة اليومية. والمقالة هي عن التراث. وهناك عبارة أذكرها والله دفعت الدموع من عيني حسرة وتأثراً وهي «أنا أريد أن أقرأ أبا الطيب المتنبي ليس للاعتزاز بموهبة في الماضي بل كمثال حي لعبقرية حاضرة وحية ومستمرة. المتنبي حاضر اليوم، إذن المتنبي موجود في الأمس.. قوله قولي وقولي قوله وإن اختلف الأسلوب وإلا فهو غير موجود بتاتاً، لا اليوم ولا الأمس، إلا كنقش مندثر». هذه العبارة تفيض بالحرارة والحياة والسمو والفهم العميق والرسالة الأعمق لأحوال زماننا وأقول إنني إذا ما قرأت غير هذه العبارة في المقال لكفت ووفت، وبصراحة ضعت قليلا في بداية الموضوع من دون أمثلة عملية تشهد على نظرية الكاتب.
- أتمنى أن تكون كل صفحات القافلة مليئة بالصور مثل صفحات الملف، وألاحظ أن الصفحة الأولى من كل موضوع كموضوع الفضاء تلقى اهتمام ساحب يغطي على الاهتمام ببقية صفحات الموضوع، يمكن لأنها تكون مزدحمة بالكلمات. وأقترح زيادة عدد الصفحات المخصصة لكل موضوع بحيث يكون الموضوع شاملاً ووافياً بالكلمات والصور.
- أرجوكم إصدار كل قصص الابتكار والمبتكرات في كتاب هدية أو يباع في الأسواق، لأهمية هذه القصص وجمالها وأنا أحب أن أهديها لابني الذي لا يناسبه أن يقرأ القافلة لصغر سنه، ولكنه يحب هذه القصص.
- كما أقترح أن يضاف إلى كل عمل أو لوحة فنية في المقالة تعريف بهذه اللوحة واسمها واسم الرسام والفترة الزمنية وما ترمز إليه لأن القارئ البسيط مثلي يشعر بالفضول أمام لوحات يعرف أنها لفنانين عظماء، ولكن ليس لديه أية خلفية عنهم

لضعف ثقافته التشكيلية.

- بصراحة، أصبت بخيبة أمل عندما قرأت ديوان اليوم للعدد الأخير ولكن ليس بسبب القصيدة، فالقصيدة رائعة. ولكن لضعف الاهتمام الذي لقيته القصيدة. فهذه القصيدة لا تقل روعة عن «حديث المرآة»، ولكن الثانية خطها جميل ورائع. فأتى الخط الكمبيوتري الصغير باهتاً بالمقارنة معها. فأنا أحب أن أعلق قصائد ديوان اليوم التي تعجبني على لوحة ولكن هذه القصيدة لم يشجعني شكلها رغم جمال كلماتها.
- ضحكت كثيراً كثيراً وأنا أرى الحمار الفاهم المرسوم في موضوع رواية الحمار الذهبي. وقد أعجبت بقول الكاتب «لا يكون هذا الحمار مجرد دابة تعامل بقسوة من قبل الإنسان، بل كان أيضاً شاهداً على سلوك هذا الإنسان وقيمه وعاداته وتقاليده) وأعجبني في عرض الرواية عدم التعقيد والثرثرة حول الكيان البنيوي للرواية والكلمات الغريبة التي يكتبها النقاد، ولا يفهم منها القارئ شيئاً.
- وبالتأكيد، الكل تحدث عن جمال توقيت ملف الذهب وروعة اختياره كملف بالذات بدلاً من موضوع عن قيمة الذهب في الاقتصاد، ولأجل ذلك لن أطنب في الحديث ولكن من أجمل ما في الملف الصور الرائعة، واختلاف لون الاقتباسات حول الذهب لتصبح بلون الذهب. وكنت أتمنى أن تكتب بخط مختلف، كما كتبت جمل وعبارات في ملفات سابقة بخط مختلف كي تعطي التأثير الدرامي المطلوب، وأيضاً في الملف خطأ سقط سهواً هو كلمة (الأصفر بألوان عديدية) بدلاً من ألوان عديدة.
- الإعلان الأخير لأرامكو كان جميلاً للغاية وحبذا لو كان هذا الإعلان يوزَّع في لوحات كبيرة يستطيع أن يستخدمها القارئ في إرشاد المجتمع من حوله.

قارئ القافلة: حسين علي
الأحساء

الآثار

أشكركم على وضع اسمي على قائمة المشتركين، وأسعدتني رسالتكم التي تؤكدون فيها استعدادكم لسماع ما عندي من اقتراحات.

ولذا أقترح أن تخصصوا مساحة في المجلة للآثار التاريخية، على الأقل المشهورة منها. وأرجو لو استطعتم أن تكتبوا عن آثار بلادي (العراق) ليتعرف العالم من خلالكم على حضارة بلادنا.

يحيى هادي عزيز
أربيل، العراق

القافلة: يغلب على أسلوب القافلة تناول الموضوعات كقضايا، ولا شك أن الآثار من جملتها وخاصة آثار عراقنا الحبيب.

قافلة الأبحاث

يشرفني أن أعبِّر لكم عن تقديري واحترامي لإدارتكم، ومنتهى كرمكم في التعامل مع القرّاء، ونشر الكتابات المتميزة فعلاً، وأيضاً حرصكم على وصول الأعداد الصادرة منها إلينا. وهذا يدل على تميز إدارتكم، وتميز فريق العمل من كبار الصحافيين والمصورين وكل هيئة التحرير، التي لا أستثني منها أحداً. ولولا الإطالة لأرسلت لكل واحد منكم خطاب شكر وعرفان ووضعت باقة ياسمين على صدره.

أما بشأن قافلة الأبحاث التي أشرتم إليها في العدد السابق من المجلة، فيشرفني الاشتراك معكم فيما تقترحونه. وأرجو إفادتنا بقائمة الموضوعات المقترحة من قبلكم حتى يتسنَى لنا اختيار ما نراه مناسباً لنا للتعاون معكم.

د. عماد عبدالعزيز الشموتي
استشاري في وزارة الصحة

القافلة: موضوعات قافلة الأبحاث تجدها على الموقع
qresearch@qafilah.com

الصورة الحية

اطلعت على مجلتكم الغراء «القافلة» عدد (مايو-يونيو 2004) ولقد أعجبني فيه جديد الموضوعات وتناسقها، وروعة الصور وبهائها، وجمال الطباعة وجودتها، وحسن الترتيب ودقة الاختيار.. وأصدقكم القول إن أكثر ما شدني إليها هو صورتها المشرقة الحية المؤثرة الجذابة، بالإضافة إلى موضوعاتها التاريخية والأدبية. فأنا ممن أهوى الشعر والأدب والتاريخ قراءة وكتابة وجمعاً وشغفاً.

ولقد أجبتم على أحد الأخوة في سؤاله عن كيفية الاشتراك فيها بأن الاشتراك مجاني للمهتمين بها.. فأرجو أن تضموني إلى قافلة المشتركين، وترسلوا إلي مجلتكم الرائعة والفريدة باستمرار على عنواني الموضح بالأسفل، فإن مجلتكم جديرة بالاهتمام والامتلاك... ولكم مني خالص الشكر والامتنان وعاطر المحبة والعرفان.

زمردة
مكة المكرمة

القافلة: نشكر لك ثناءك وتشجيعك ونرحب بك مشتركة بالمجلة.

قافلة الصغير

أشكر لكم إرسالكم لنا مجلتنا القافلة، والتي ننتظرها بشوق، بعد أن صارت تأتينا كل شهرين. وقد كان لي شرف التقدم ببعض الاقتراحات في الماضي، وإليها أضيف الآن:

1 - تصغير حجم المجلة ليتسنى لنا وضعها على أرفف مكتباتنا.

2 - إصدار مجلة مرافقة للطفل تسمى «قافلة الصغير» تعنى بكل ما يخص الطفل من موضوعات ورسوم وقصص وطرائف.

3 - تعريف المواطن العربي في كل عدد بمنطقة سعودية: موقعها وبماذا تشتهر، وما هي آثارها التاريخية ومعالمها السياحية. وأيضاً التعريف ببلدان الوطن العربي.

ختاماً أشير إلى أن المجلة تصلني بشكل غير منتظم.

جمال عبدالحليم التوني
موجه بالأزهر الشريف، القاهرة

القافلة: شكراً لاقتراحاتك. ونود إفادتك بأن عملية توزيع المجلة تخضع الآن للدراسة والتقويم، ونأمل أن تتحسن في المستقبل القريب إن شاء الله.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قراء القافلة مدعوون للمساهمة في هذه المناقشات على أن تكون كلمات المشاركة ما بين 300 و 600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة لذلك.

حول

الذهب.. لا يزال ثمنه أقل من قيمته

ارتفع سعر الذهب بمعدل 250 في المئة خلال السنوات الخمس السابقة، ومع ذلك، فإن هذا السعر لا يمثل سوى ربع قيمته الحقيقية التي كان عليها قبل 25 سنة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار عامل التضخم. وتزامن هذا الارتفاع في أسعار الذهب مع ارتفاع أسعار النفط، والأمر ليس مصادفة ولكنه في نفس الوقت ليس ارتباطاً مباشراً. فارتفاع أسعار النفط عائد إلى زيادة الطلب العالمي، واستمرار عوامل التوتر السياسي في بعض البلدان المنتجة للنفط، مثل العراق وإيران وفنزويلا، وغير ذلك...

أما فيما يتعلق بالذهب، فإن قيمته تتحدد بناءً على ستة عوامل، هي:

1 - سعره كمستودع للقيمة.
2 - معدَّل التضخم، الذي هو تآكل في القيم الحقيقية للأصول المالية.
3 - مقدار العرض منه والطلب عليه.
4 - مستوى الثقة في النظام النقدي الدولي القائم على تعويم العملات الرئيسة (الدولار الأمريكي واليورو الأوروبي والين الياباني والفرنك الفرنسي والجنيه الإسترليني).
5 - مستوى الثقة في النظام السياسي العالمي القائم حالياً على القطب الواحد.
6 - دخول لاعبين جدد على الساحة الاقتصادية الدولية، حيث إن مجموعة السبع (G7 أي مجموعة أكبر سبع دول اقتصادياً هي الولايات المتحدة واليابان وألمانيا وفرنسا وبريطانيا وكندا وإيطاليا) لم تعد كذلك، لقد أصبحت الآن عشر دول (والدول الجديدة التي تدعى للاجتماع أيضاً تشمل روسيا والصين ومؤخراً الهند).

ففيما يتعلق بالذهب كمستودع للقيمة، فهو الأكثر ثباتاً والأقل تغيراً. ذلك أن البشرية لا تزال تؤمن بالذهب كمعدن ثمين ذي قيمة جمالية عالية، وبنفس الوقت كمستودع للقيمة. حيث يلجأ الإنسان العادي إلى شرائه على شكل حُلي ومجوهرات وتخزينه كضمان لقيمة غير قابلة للتآكل بفعل الزمن. كما يعتبر الموجود منه ومن العملات الصعبة في الاقتصاد الوطني جزءاً من احتياطات الدولة. ومع أن هذا المتغير لا يفسِّر الارتفاع الكبير في أسعار الذهب هذه الأيام، إلا أنه مع ذلك يفسِّر الحد الأدنى من قيمة الذهب في أي وقت من الأوقات.

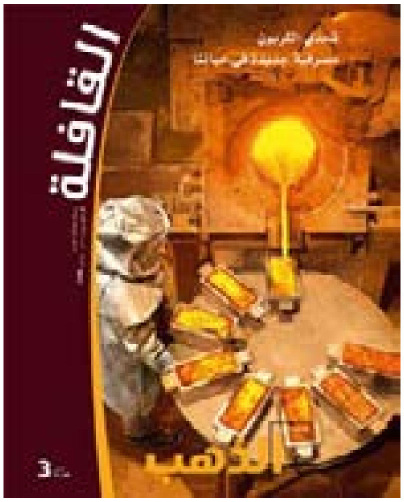
وأما عامل التضخم فهو الأكثر ارتباطاً بالتغيرات قصيرة الأمد لسعر الذهب. فكلما ازداد معدَّل التضخم كلما ازداد معدَّل الطلب على الذهب بهدف حفظ القيمة، وخاصةً إذا كان معدل التضخم أكثر من مخصصات التضخم المكونة لأسعار الفائدة السائدة بالسوق. فعلى سبيل المثال، عندما كان معدَّل التضخم في أدنى مستوياته في بداية السبعينيات لم يكن يتجاوز سعر الأونصة 35 دولاراً، إلا أنه قفز إلى 200 دولار للأونصة عندما شهد العالم بداية عقود التضخم في منتصف السبعينيات. ولكن محدودية السيولة النقدية في الاقتصاد العالمي والاندفاع نحو الاستثمار بالأسواق المالية أدى إلى انكماش الطلب على الذهب، وبالتالي تراجع سعره إلى 100 دولار للأونصة في عام 1976م. ولكن تصحيح أسعار النفط العالمي حينذاك قاد التضخم مرة أخرى إلى أعلى، ليعود سعر الأونصة ليرتفع إلى 200 دولار عام 1978م ثم إلى 800 دولار عام 1980م. ومع دخول الاقتصاد العالمي مرحلة الانكماش في بداية التسعينيات وتراجع معدَّلات التضخم مع نهاية التسعينيات، تراجع سعر الأونصة إلى 400 دولار، وبقي يدور في هذا الفلك من 400 إلى 500 دولار حتى نهاية القرن العشرين.

خلال الربع الأخير من القرن العشرين الماضي، استطاع عامل التضخم أن يفسِّر جزءاً كبيراً من التغير في أسعار الذهب. فهل ينطبق هذا على السنوات الخمس الأولى من هذا القرن الحادي والعشرين؟

كما أوضحنا سابقاً، فقد ارتفع سعر الذهب خلال السنوات الخمس السابقة بمعدل 250 في المئة، ولكن معدَّل التضخم في الاقتصاد العالمي لم يزد على 5 في المئة للفترة ذاتها، فمن أين جاءت هذه الزيادة في أسعار الذهب؟

هنا يأتي دور العامل الثالث، ألا وهو نقطة التعادل بين العرض والطلب على الذهب. فمنذ أكثر من سنوات عشر وحتى الآن، ما زال الطلب على الذهب أكثر من المعروض منه من إنتاج المناجم وإعادة التدوير. وما زالت الفجوة بين العرض والطلب قائمة، أي أن الطلب على الذهب أكثر من المعروض منه بحدود 1000 إلى 1500 طن سنوياً. فعلى سبيل المثال، بلغ حجم إنتاج المناجم ومعامل إعادة تدوير الذهب عام 1992م حوالي 1750 طناً بينما كان حجم الطلب العالمي حينذاك بحدود 3500 طن. وعلى الرغم من ارتفاع حجم المعروض من الذهب إلى 3100 طن عام 2000م إلا أن حجم الطلب العالمي حينذاك تجاوز 4200 طن، وبالتالي زادت الفجوة بين العرض والطلب. وفي الحقيقة، فإن هذه الفجوة قائمة منذ الأزل، فما الذي حدث حتى ترتفع الأسعار بهذا المستوى العالي؟

في هذا الصدد، يوجد هناك عاملان يمكن أن يُفسِّرا هذا الارتفاع الكبير في أسعار الذهب. العامل الأول ويكمن في جانب العرض، حيث يعتقد الخبراء أن معدَّل الاستكشافات لمناجم ذهب جديدة في تراجع مستمر، وبالتالي فهم يعتقدون أن حجم إنتاج المناجم سوف ينخفض. ويعتقد بعض الخبراء أن السنوات الخمس الماضية قد شهدت أعلى معدلات إنتاج للذهب، أي أنها قد وصلت إلى أعلى نقطة من حيث حجم إنتاج المناجم وليس بعد ذلك سوى التراجع والانخفاض. وأما العامل الثاني فيكمن في جانب الطلب، حيث دخل لسوق الذهب مشترون كبار يمثلون خمس دول ذات اقتصادات كبيرة هي: الصين واليابان وتايلاند وأستراليا والإمارات العربية المتحدة، وبعض الخبراء يضيفون الهند إلى القائمة. فعلى سبيل المثال، الصين كدولة اشتراكية لا تؤمن بالدولار كمخزن للقيمة. وبالتالي، فإن الفوائض النقدية الهائلة العائدة من التصدير يتم تحويلها إلى ذهب بغض النظر عن السعر. كل هذا أسهم ليس فقط في زيادة السعر، وإنما أيضاً في نقل محور الطلب عن وضعه السابق وثبات محور العرض



وبالتالي زيادة نقطة التعادل إلى أعلى، مما أدى إلى زيادة مضاعفة للأسعار.

ونعتقد أن تراجع مستوى الثقة في النظام النقدي الدولي، القائم على تعويم العملات الرئيسة والمقومة بناءً على حجم الطلب عليها، قد يفسِّر هذا الاندفاع نحو الطلب على الذهب ومن ثم زيادة أسعاره. سوف يكون من الممكن تحقيق نمو اقتصادي قوي وحقيقي في الولايات المتحدة وأوروبا إذاً، وفقط إذاً، عادت الثقة إلى النظام النقدي العالمي. ولن يكون ذلك إلا إذا تم تخفيض الدَّين العام الأمريكي الذي بلغ مستويات فلكية (بالتريليون دولار) والدَّين العام الأوروبي الكبير، والذي لن يتأتى إلا بتخفيض قيمة الدولار بشكل كبير جداً واليورو بشكل أقل. وبالتالي فإن الذي يرغب في أن يتجنب انعكاس مثل هذه التخفيضات عليه أن يتجه نحو الذهب والمعادن الثمينة الأخرى. وإذا ما حدث هذا الأمر، فسوف يعود بنا النظام النقدي الدولي إلى قاعدته الذهبية الأولى التي استمرت لقرون عديدة، حيث كانت عملات الدول مسكوكة بالذهب والفضة.

فمنذ مطلع هذا القرن، ونتيجة لأحادية النظام السياسي العالمي (العالمية) بدأت الثقة بالعملات الصعبة بالتراجع وبدأ العديد من البنوك المركزية وخاصة في الدول الناشئة (كالصين، وروسيا التي هي من أكبر منتجي الذهب في العالم) ببناء احتياطاتها من الذهب بدلاً من الدولار الأمريكي.

إن السياسات النقدية كما تُدرسها أفضل الجامعات الأمريكية، تفترض أن الثقة في الدولار الأمريكي حقيقة ثابتة غير قابلة للطعن ولا يوجد ما يواجه أو يتحدى هذه الحقيقة بشكل جدي. ولكن الواقع غير ما تفترضه السياسات النقدية الأمريكية. إذ إن هناك اتجاهاً كبيراً لدى كثير من البنوك المركزية في العالم نحو شراء الذهب كمخزون للدولة بدلاً من الدولار وذلك بهدف الاحتفاظ بمخزون يحافظ على قيمته. وما ينطبق على الدولار ينطبق على اليورو الأوروبي، الذي تعرَّض إلى هزات قوية قللت من الثقة فيه، مثل رفض الفرنسيين (ثاني أكبر دولة في الاتحاد الأوروبي بعد ألمانيا) للدستور الأوروبي الموحد. كما أن اليورو كعملة موحدة للأوروبيين يعاني من عدم وجود نظام نقدي ومصرفي موحَّد كالذي يدعم الدولار الأمريكي. الأمر الذي أدى إلى هروب الكثير من المستثمرين نحو الأصول الحقيقية (غير المالية) مثل المعادن وأهمها الذهب. ويعتقد بعض مديري المحافظ الاستثمارية أن أيام النظام النقدي العالمي الحالي معدودة. ولعل هذه من الأسباب التي أدت إلى ارتفاع العديد من أسعار المعادن ومنها الذهب.

العصر الذهبي للأصفر

يبدو أننا على أعتاب العصر الذهبي للمعدن الأصفر. فجميع المؤشرات الاقتصادية والسياسية السابقة الذكر تتجه نحو تعزيز مكانة الذهب في الاقتصاد العالمي. ولكن المشكلة أن المتوافر من الذهب عالمياً أقل بكثير من أن يغطي حجم الاقتصاد العالمي. وبالتالي سوف نلاحظ زيادة في أسعاره كما في أسعار المعادن الثمينة الأخرى. وفي الحقيقة، سوف يتحدَّد مستقبل الذهب بمستوى الثقة في النظام السياسي العالمي القائم حالياً على القطب الواحد. ففي الوقت الذي سيظهر فيه منافس حقيقي للقطب الواحد، سوف يتخلى العالم عن الدولار الأمريكي وبالتالي سوف يتجه نحو الأصول الحقيقية ومنها الذهب والمعادن الأخرى.

ذلك أن الطبيعة البشرية تسعى نحو الأمان المطلق في أوقات انعدام الثقة، وتخاطر وتتصرف بشكل غير عقلاني في أوقات الاستقرار والسلام. وتنعكس هذه الطبيعة البشرية على سلوك المستثمرين في الأسواق المالية.

وتكمن أهمية تحليل العامل النفسي في تفسير الارتفاع الكبير في أسعار الذهب من خلال استعراض العلاقة ما بين معدَّل مؤشر داو جونز الصناعي وسعر أونصة الذهب خلال المائة سنة الماضية. وتقيس هذه النسبة مقدار زيادة مؤشر داو جونز الصناعي على سعر أونصة الذهب سنوياً، أي عدد أُونصات الذهب التي يمكن شراؤها بمعدَّل مؤشر داو جونز الصناعي. ففي فترات عدم التأكد وتراجع ثقة المستثمرين في الأسواق المالية (1928-1935م و 1971-1974م و 1987-1990م)، كانت هذه النسبة في أدنى مستوياتها. فخلال الفترة من 1928 إلى 1935م حدث انهيار السوق المالي الأمريكي وقاد إلى الكساد الاقتصادي الكبير. فالمؤشر الذي كان يساوي 18 أونصة ذهب في الفترة السابقة للانهيار، انخفض إلى 3 أونصات فقط خلال فترة الانهيار. الأمر الذي يعني تراجعاً كبيراً في أسعار الأسهم مقابل ارتفاع في أسعار الذهب. كذلك الحال خلال فترة أزمة النفط العالمي 1971-1974م، حيث انخفض مؤشر داو جونز الصناعي من حوالي 25 أونصة ذهب إلى 4 أونصات ذهب خلال فترة الأزمة. وأخيراً، وفي ضوء انهيار الأسواق المالية عام 1987م وإعلان تفكك الاتحاد السوفياتي وأزمة الخليج الثانية (احتلال العراق للكويت) عام 1990م وبالتالي تنامي عوامل عدم الثقة، فقد انخفضت النسبة ولكن لفترة قصيرة. إذ وبعد تحرير الكويت وتوحد المجتمع الدولي في مواجهة الأزمة وتنامي الإجماع السياسي العالمي بقيادة الولايات المتحدة عام 1991م، عادت الثقة إلى الأسواق المالية وارتفعت النسبة بشكل تصاعدي كبير لتصل إلى أعلى مستوياتها عام 2000م ويبلغ المؤشر 42 أونصة ذهب. ويبدو أن ذلك العام يمثل نقطة القمة التي ليس بعدها سوى الانخفاض. حيث بدأت النسبة بالتراجع لتصل إلى 20 فقط عام 2003م ولا يزال الانخفاض مستمراً. أي لا يزال معدَّل أسعار الأسهم في انخفاض ومعدل سعر أونصة الذهب في ارتفاع. وحيث إن هذه النسبة توضح علاقة الارتباط السلبية بين الدولار وأسعار الأسهم من جهة وأسعار الذهب من جهة ثانية، فإنه يمكن الاستدلال منها على استمرار تصاعد أسعار الذهب من جهة وتراجع الدولار وأسعار الأسهم من جهة ثانية.

د. محمد محمود العجلوني
أستاذ مساعد في العلوم المالية والمصرفية - إربد، الأردن

حول ملف «الذهب»، القافلة عدد مايو-يونيو 2006

قافلة القرّاء

حول

تصويبان حول السفير عزَّام وابن خلدون

إن واجب الأمانة العلمية يدعوني إلى الكتابة إليكم حول بعض الأخطاء التاريخية التي لفتت انتباهي في مقالتين تضمنهما عدد القافلة لشهري مايو ويونيو 2006م، أحدهما يتعلق بما ورد في الفقرة المتعلقة بالسفراء الشعراء من صفحة قافلة القراء، أما ثاني هذه الأخطاء فيدور حول تاريخ هجرة جد المؤرخ والفيلسوف ابن خلدون من اليمن إلى الأندلس.

الفقرة المتعلقة بالسفراء الشعراء من صفحة قافلة القراء:

الخطأ هو حول ما عرضه الأستاذ صلاح الشهاوي باعتباره عبدالوهاب عزَّام الكاتب والشاعر المحقق، أول أمين عام لجامعة الدول العربية. وصحة المعلومة أن أول من شغل هذا المنصب كان الوزير المصري الأسبق عبدالرحمن عزَّام باشا. ولعل تشابه أسماء العائلتين كان سبباً في الالتباس الحاصل.

فقد كان الدكتور عبدالوهاب عزَّام الذي ولد عام 1894م في محافظة الجيزة بمصر من حملة شهادة الأزهر ثم شهادة الأدب والفلسفة من جامعة القاهرة، ثم نال شهادة الدكتوراة من جامعة لندن في الآداب الفارسية وأصبح عميداً لكلية الآداب المصرية ثم سفيراً لمصر لدى المملكة العربية السعودية عام 1948م ثم في عام 1954م. وعندما أحيل إلى المعاش كلفته حكومة المملكة بالإسهام في إنشاء جامعة الملك سعود في الرياض. وهو من أعضاء المجامع العلمية في سورية والعراق ومصر وإيران وقد أسهم في ترجمة الشاهنامة، وشعر محمد إقبال إلى العربية وله كتاب (ذكرى ابي الطيب المتنبي بعد ألف عام) وقد توفي عام 1959م.

أما فيما يتعلَّق بالأستاذ عبدالرحمن عزَّام باشا فقد ولد عام 1893م بمحافظة الجيزه بمصر ودرس الطب فيها. وانتخب سنة 1924م ممثلاً عن حزب الوفد في أول مجلس نواب مصري، ثم أعيد انتخابه وشارك في وفد مصر لمؤتمر فلسطين في لندن في 1939م كما تقلَّد العديد من المناصب والوزارات مثل وزارة الأوقاف والشؤون الاجتماعية وقد شارك في وفد مصر التأسيسي لجامعة الدول العربية واختير بالإجماع أول أمين عام للجامعة. وعقدت الجامعة في عهده قمتها الأولى بأنشاص في مصر (1945م). وترك هذا المنصب سنة 1952م. وقد سافر بعدها للعمل مستشاراً لدى حكومة المملكة حتى رجوعه إلى مصر سنة 1974م. وتوفي عام 1976م عن عمر يناهز (81) عاماً. ومن مؤلفاته كتاب بطل الأبطال، وأبرز صفات النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، والرسالة الخالدة.

الفقرة المتعلّقة بتاريخ هجرة جد المؤرخ والفيلسوف ابن خلدون:

أما ثاني هذه الأخطاء فيدور حول تاريخ هجرة جد المؤرخ والفيلسوف ابن خلدون من اليمن إلى الأندلس والذي حدده الباحث الاستاذ عبدالجبار السامرائي، عضو اتحاد المؤرِّخين العرب، في مقالته بالمجلة عن سيرة وفلسفة ابن خلدون في التاريخ بمناسبة مرور 600 عام على وفاته، بأنه كان في القرن التاسع هجري. مع أن المعلومات الموثَّقة تؤكد أن هجرة جد ابن خلدون واسمه خالد بن عثمان إلى الأندلس كانت في أواخر القرن الثالث الهجري. ويؤكد ذلك ما أورده ابن خلدون عن سيرته التي كتبها بنفسه بعنوان (التعريف) وألحقها بآخر أجزاء تاريخه المشهور (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر).

هذا ما أحببت إيضاحه بصدد ملاءمة تصحيح المعلومتين المنوه عنهما آنفاً.

السفير محمد فايز الشريف

الظهران

حول موضوعي «السفراء-الشعراء» و «ابن خلدون»، القافلة عدد مايو-يونيو 2006

حول

النظارة ابتكار عربي إسلامي

قرأت في العدد الأول/ 2006م من مجلة «القافلة» موضوعاً قيِّماً بعنوان: «قصَّة ابتكار النظَّارة»، أكدَّ فيه كاتب الموضوع أنّ «العالم العربي أبو علي بن الحسن ابن الهيثم (996 - 1038م) كان أول من بدأ بدراسة النظر والضوء وقوانين انعكاساته على المرايا، ومن خلال الزجاج، وشجَّعته ملاحظته العلمية هذه على تصنيع أول مكبِّر مساعد للرؤية». وبعد أنْ ترجمت مؤلفات ابن الهيثم من العربية إلى اللاتينية، روَّجَ الإيطالي «أليساندرو دي سبينا» لابتكار جديد، وهو «النظَّارة»، وكان ذلك في بداية القرن الرابع عشر الميلادي. والحقُّ إنّ ابتكار «النظَّارة»، كان للعرب قبل غيرهم من الشعوب، تعزّزه الشواهد الآتية:

أنشد الشاعر ابن حمديس الصقلّي، المتوفى سنة (527هـ / 1132م) في «النظَّارة» التي توضع على العينين، وليس في النظَّارة المكبِّرة التي تحمل باليد:

وجدول جامد في الكف تحمله ... يغوصُ فيه على درّ النُّهى النظرُ
يكسو السطور ضياء عند ظلمتها ... كأنَّ ينبوعَ نورٍ منه ينفجرُ

يشفُّ للعين عن خطّ الكتاب كما ... شفَّ الهواءُ، ولكنْ حسمه حجرُ
يُندي الخدودَ بجرح نالها عرقٌ ... فيه، وقرَ عليها جامداً نَهَرُ
كحَلْتُ عينيَ إذ كلّت بجوهره ... أما يحدُّ بكحل الجوهر البصرُ
كأنّه ذهنُ ذي حذق يفلّ به ... من المعمَّى عويصاً فكّهُ عسرُ
نعْمَ المعين لشيخ كان ناظره ... وصغَّرَ الخطّ في ألحاظه الكِبَرُ
يرى به صور الأسطّار قد عظمت ... كعنصر الماء فيه يعظمُ الوبرُ

ولعلَّ الأبيات السابقة أقوى الشواهد على معرفة العرب المسلمين للنظَّارة واتخاذها وسيلة لتكبير الحروف عند القراءة.

عبدالجبار محمود السامرائي

بغداد

حول موضوع «قصة ابتكار»، القافلة عدد يناير-فبراير 2006

حول

بين القلم ولوحة المفاتيح

كنت في صغري أتابع الأدب الكلاسيكي ورموزه، وكنت أتوقف أمام حالات انفعالية يمر بها هؤلاء من «اشتياق» و «هجر» و «حب» و «صداقة» و «امتنان» و..هوس بالقلم .. فأستعجب وأحاول الفهم، فأصل إلى استنتاج لا يقنعني، وإنما يرضيني، يقرر أن القلم أداة نبيلة لأناس وهبهم الله القدرة على تقدير النبل.. على عكسنا نحن العامة. وكبرت لأجد أنني أعاني من كل هذه الحالات الانفعالية وأكثر.. تجاه لوحة مفاتيح الكمبيوتر، ولكني ما زلت أرى رفعةً تحيط بأصحاب القلم، ولا أراها تشملنا نحن المحرومين، أصحاب اللوحة، ولم يعد استنتاجي الطفولي السابق يقنعني، ولا حتى يرضيني...

مقال (بين الورقة والشاشة) بشكلٍ أو بآخر قدَّم لي رؤية أخرى. وأعتقد أنني أتحدث عن جيل كامل، حينما أقولُ إننا، نحن الكمبيوتريون، لا نشعر بقرب أصابعنا من القلم كما نشعر بقربها من اللوحة، وأعني لوحة مفاتيح الكمبيوتر بالطبع.. ولكن ليس هذا لأننا سُلبنا الإحساس فلم نعد نسمح لمشاعرنا بأن تترقرق على الورق بترقرق حبر القلم.. ولكن لأن القلم يحمل رائحة «الزمن الجميل» كما يسميه البعض، كما تحملها أفلام الأبيض والأسود، وأسطوانات الحفلات الغنائية، وحتى الآلات الكاتبة.. حيث الرومانسية، والطيبة، والأخلاق الحميدة.. أو حيث يحلو للبعض تخيل أن كل المعاني الإنسانية الجميلة المجردة تواجدت فيه!

علاقتنا بلوحة المفاتيح تحمل نكهة عصرنا هذا، كما تحملها كلماتنا السريعة ونحن نطلب القهوة في ستاربكس، وخطواتنا الأسرع ونحن نحمل حقائبنا التي تحوي أجهزة الحاسوب الشخصية، وكما تجمعها عمليتنا التي لا تسمح بأن نتوقف كثيراً أمام لوعة هجر القلم، أو فرحة صداقته. علاقتنا بلوحة المفاتيح تلخصها العبارة العبقرية المتعددة الأغراض: «قل كلمتك.. وامشِ».

الورقة لاتزال ورقة، والشاشة لا تزال شاشة.. ولكنني أشك أن يكون الحال هكذا، بين القلم واللوحة.

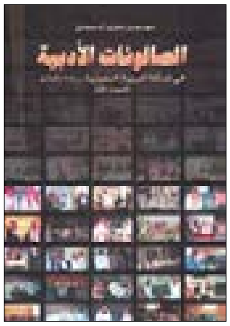
فردوس صالح

جدة

حول مقالة «بين الورقة والشاشة»، القافلة عدد مارس-إبريل 2006

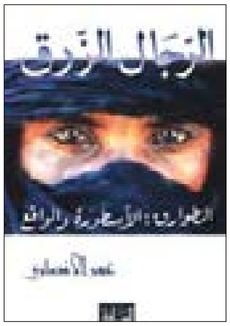
وردنا

• الصالونات الأدبية في المملكة العربية السعودية



كتاب من تأليف سهم بن ضاوي الدعجاني يرصد الصالونات الأدبية في المملكة العربية بشكل منهجي وموثق. ويقع في 255 صفحة. فبعد المقدمة واللمحة التاريخية عن الصالونات الأدبية، يتضمن الكتاب تعريفاً بسبعة وثلاثين صالوناً ومنتدى. وقد اتبع المؤلف منهجاً موحداً في تعاطيه مع كل هذه الصالونات. فبعد أن يفصّل في فقرات مستقلة كل المعلومات الأساسية حول الندوة مثل اسمها، ووقت انعقادها الدوري، والهدف العام والهدف التفصيلي منها، ومكانها، ويعدد أبرز روادها وما إلى ذلك ينشر المؤلف على صفحة كاملة خريطة تبيّن موقع المنتدى أو الصالون، إضافة إلى سبل الاتصال للمهتمين مثل أرقام الهاتف والفاكس والعنوان البريدي، الأمر الذي يجعل من هذا الكتاب دليلاً شاملاً ووافياً لا غنى عنه للمهتم بالنشاط الثقافي في المملكة.

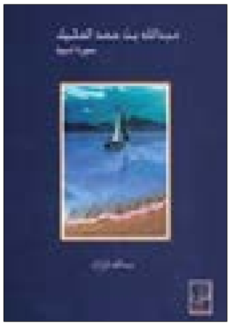
• الرجال الزرق، الطوارق.. الأسطورة والواقع



يتحدّر الطوارق من نسب قديم قدم فراعنة مصر، ويوغلون عميقاً في انتمائهم إلى العالم العربي. غير أنهم مهمشون وغير معترف بهم كعرب، ويكادون يكونون مشطوبين من ذاكرة العرب الجماعية. يسعى هذا الكتاب الصادر عن دار الساقي في بيروت ويقع في 200 صفحة، إلى فك هذه الأحجية: من هم الطوارق؟ ولماذا سموا الرجال الزرق؟ ولماذا يصرون على الانغلاق ضمن مجتمع يشبه «الغيتو»؟ ويستحضر المؤلف عمر الأنصاري في سبيل ذلك تاريخ هذا الشعب الهائم في الصحراء الإفريقية الكبرى، والعاشق لها: يتحدث عن حياة «الرجال الزرق» المليئة بالغموض والأسرار والأساطير.

كما يتطرق إلى عاداتهم وتقاليدهم وخصوصية مجتمعهم وغموضه اللذين ظلا عصيين على أي تمدن.

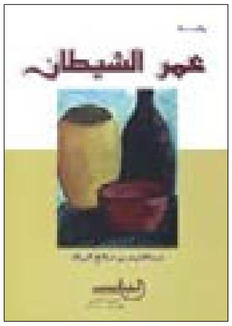
• سيرة عبدالله بن حمد الحقيل



أعد هذه السيرة عبدالله الزازان، وصدرت عن دار الزازان للنشر في الرياض. وعبدالله الحقيل وجه مشرق في العمل الثقافي والعطاء الفكري على صعيد المملكة والوطن العربي. كتب في التربية واللغة والتاريخ والنقد الأدبي والاجتماع وأدب الرحلات، وله نتاج أدبي يتجلى بحجمه ومكانته فيما يتضمنه هذا الكتاب من محاولات التعدد والحصر التي وإن بدت ممكنة فيما يتعلق بالكتب التي ألفها الحقيل، فإنها بدت مستحيلة في جمع كل مقالاته التي نشرها في المجلات والدوريات المختلفة.

وهذا الكتاب الذي يقع في 216 صفحة، هو «إبحار في عالم الحقيل الأدبي، يسعى إلى إيضاح الصورة الأدبية عنده، وفرز مضامينها ومعطياتها، وتجلية مقوماتها من حيث المضمون والموضوع والأسلوب والصورة والعاطفة والصدق، ومن حيث اللغة واستثمارها. فهو دراسة لجوانب شتّى من اهتماماته الأدبية واللغوية والتاريخية والتربوية». حسبما جاء في مقدمة الناشر.

• عمر الشيطان



رواية جديدة من تأليف عبدالحليم ابن صالح البرّاك، صدرت مؤخراً عن دار المفردات للنشر والتوزيع في الرياض. والرواية ليست كبيرة الحجم، حوالي 100 صفحة، مما يجعلها أقرب إلى القصة الطويلة، يأخذنا من خلالها الكاتب في رحلة عبر التقاليد والمفاهيم الاجتماعية المستمدة من واقع الحياة بأسلوب مشوّق، زاد من واقعيته اعتماد اللهجة العامية في صياغة الحوارات، وسلاسة الأسلوب والجمل القصيرة في السرد التي يتقنها المؤلف، ويتقن من خلالها الإمساك بالقارئ.

المونديال
..الذي لا يشبه شيئاً آخر



خلال شهر كامل، عاش العالم بأسره على إيقاع كرة القدم، فكانت الملاعب الألمانية قبلة أنظار العالم وقلوبه أيضاً.

شهر كامل من الشغف الذي كان ينطلق تكراراً من ملعب ما في ألمانيا، لينتشر بسرعة الضوء في العالم بأسره، بدءاً ببيوت الصفيح في أفقر دول العالم الثالث وصولاً إلى قصور الأثرياء في الدول الغنية وقادتها، ليلهب العواطف ويثير الحماسة ويسيل دموع الفرح أو الخيبة.

المونديال.. هذا المهرجان العالمي الذي يتكرر كل سنوات أربع، بات منذ زمن طويل أكبر من أن يختصر بوصفه بطولة العالم لكرة القدم. وهو اليوم، كما تجلّى في ألمانيا، أو بالأحرى في العالم بأسره انطلاقاً من ألمانيا، يكتسب اهتماماً عالمياً أكبر بكثير من أن تحصر دلالاته وآثاره في الملاعب.

إنه مولّد طاقة تحرِّك دفعة واحدة جملة أمور لا رابط بينها تبدأ بالعواطف الحميمة في نفس الفرد، وتنتهي بالسياسات الاقتصادية للدول وكبار المستثمرين مروراً بالثقافة والصناعة.

واليوم، وبعودة الهدوء إلى الملاعب بانتظار المونديال المقبل، يأخذنا محمد العمودي[1]، وديع عبدالنور[2]، وعبود عطية في جولة تتضمن قراءات لبعض أوجه «حضارة المونديال»، منها ما يعزِّز انطباعات سابقة، ومنها ما هو خاص بمونديال 2006م، ومنها ما يحاول أن يستشرف مستقبل هذه الرياضة التي أصبحت فعلاً بحجم العالم نفسه.

1- كاتب صحافي سعودي
2- إعلامي متخصص في الشؤون والأبحاث الرياضية



مهرجان الاجتهاد والبراعة والقوة المسالمة والانتماء إلى العالم الحي

بأي شيء يمكن تشبيه المونديال؟
والجواب: ما من شيء يشبه المونديال، ولا حتى الألعاب الأولمبية. فعلى الرغم من أن كل دول العالم تشارك في الألعاب الأولمبية، في حين أن اثنتين وثلاثين دولة فقط تتمثل في المونديال، يستقطب هذا الأخير اهتماماً عالمياً ومتابعة محمومة لا تعرف الألعاب الأولمبية إلا جزءاً يسيراً منها، وغالباً في إطار الاستعراض الثقافي الضخم عند افتتاحها فقط.

إذ ارتقى مونديال 2006م بمفاهيم الانتماء والمشاركة، الراسخين أصلاً، إلى مستويات غير مسبوقة، لا في المناسبات الرياضية، ولا في أي نشاط إنساني عالمي آخر. وبسبب ضخامة مستلزمات الاستجابة لهذا الالتفاف العالمي حول نشاط رياضي واحد، أصبح تنظيمه واستضافته صناعة بحد ذاتها، لا تقدر على القيام بأعبائها (ومن ثم جني ثمارها) غير الدول ذوات الاقتصادات الكبرى.

فمن أين يبدأ تفسير أحجية المونديال التي تتضمن مئة سؤال وسؤال؟

المشاركة.. نعرف كيف بدأت أما الحجم فمسألة أخرى

يظهر الإعلان التلفزيوني الذي وزَّعه الاتحاد الدولي لكرة القدم (الفيفا) لمناسبة مونديال 2006م، شاباً وحيداً على أحد المدرَّجات يصيح ويقفز حماساً، ومن ثم يلتفت حواليه خائباً ليرى أنه بمفرده. ومن ثم يختتم الإعلان بالتساؤل: «ما نفع كرة القدم من دون مشاركة؟».



Reuters

هذا الإعلان هو في الواقع خطاب يلخّص جزءاً كبيراً من الأحجية ويجيب عنها. فروح المشاركة هي التي غذّت هذه اللعبة، ومن ثم عادت لتتغذى منها، بحيث إن المتفرج بات عنصراً مكملاً للثلاثية التي تقوم عليها كرة القدم: الكرة، واللاعب، والجمهور.

يُروى أنه في العام 1868م، وبعدما كانت كرة القدم قد عُرفت جيداً في إنجلترا وبعض دول العالم كالصين، التي كانت لها كرة قدم مختلفة لا يجب فيها أن تمسّ الكرة الأرض، اجتمع بعض أبناء الأرستقراطيين الإنجليز في مكتبة بودليان التابعة لجامعة أوكسفورد، ووضعوا أول كتيب يضم قوانين كرة القدم التي تتحدر منها اللعبة بقوانينها الحالية. وفي غضون أعوام قليلة، باتت كرة القدم تستقطب جمهوراً معيناً. لكن أبناء الطبقة العمالية في لا نكشاير عدّلوا هذه القوانين «وعاثوا فيها فساداً». وفجأة بلغ جمهور مباراة كرة القدم 50 ألف متفرج جاءوا لتشجيع فريق ضد فريق آخر، فكانت أولى بذور عصبية المدرَّجات والملاعب وحالات الشغب والتشفي..

وخلال قرن ونصف قرن من الزمان نمت هذه البذور لتصبح غابة من العواطف والانفعالات تغطي العالم بأسره، تعزِّزها وسائل الإعلام الفضائية والنقل المباشر وشروحات المعلقين الذين أصبحوا صنفاً مستقلاً من الإعلاميين لا يقل أهمية -في موسم المونديال- عن كبار نجوم الصحافة والسياسة. ففي تعليقه على مونديال 2006م، قال رئيس الاتحاد الدولي، السويسري جوزف بلاتر، إنه «لم يحدث من قبل أن نُظِّم مثل هذا الحدث بهذا الشكل العالمي وتلك المشاعر المتدفقة». وعلى مدى شهر كامل كانت وسائل الإعلام تتناقل أخبار طرائف عجية وغريبة حول هوس العالم بالمونديال.



فقبل أيام من انطلاق المباريات، أثار مندوب زامبيا لوف ميتسا في منظمة التجارة العالمية قضية المونديال لافتاً إلى أنه «من الحيوي جداً أن تنهي المنظمة اجتماعاتها قبل الساعة الرابعة عصراً خلال شهر المونديال كي يتسنّى لممثلي الوفود مشاهدتها عبر التلفزيون». ولقي اقتراحه إجماعاً سريعاً. أما المدير العام للمنظمة باسكال لامي فقد كانت له وجهة نظر أخرى، إذ أعلن أنه يفضّل التوصل إلى اتفاق على الخطوط الرئيسة لإبرام اتفاق عالمي شامل لتحرير التجارة في إطار مفاوضات الدوحة قبل بدء المباريات «لأنها يمكن أن تأخذ حيزاً من تركيز الوفود».

الجاذبية.. بعضها في نسيج اللعبة

والواقع أن قسماً كبيراً من جاذبية كرة القدم يعود إلى شكل اللعبة نفسها. فمبدأها بسيط للغاية. ولكن إيصال الكرة إلى شباك الفريق الخصم أصبح بالرغم من بساطته الخالدة يتطلب تضافر عوامل في غاية التعقيد وعلى مستوى من الضخامة والتنوع بحيث بات توافرها في فريق معين إنجازاً عالمياً.

البراعة في المناورة التي تتطلَّب وضع خطط واستراتيجيات صارت اختصاصاً لا يبرع فيه غير حفنة من الأفراد يُسمّون المدربين، والقوة الجسمانية التي تتطلَّب اجتهاداً وصقلاً تتضافر عليه التمارين والطب والتغذية لصياغة جبال من العضلات وعظام من الإسمنت، والشحن العاطفي والنفسي تضامناً داخل الفريق الواحد ضد الخصم، وسرعة البديهة في استغلال الفرص لخطف الكرة، أو لتحقيق هدف، أو لإنقاذ المرمى من كرة تطير بسرعة الصاروخ.

فعندما يتابع المشاهد مباراة في كرة القدم، فإنما يتابع عملياً استعراضاً لمجموعة من الصفات المصنفة ضمن «الفضائل» في الوجدان الإنساني عموماً: الصحة الممتازة الممثلة برجال أشداء يتحدَّون الجاذبية، يتناطحون ويرتطمون ببعضهم وكأن أجسامهم من فولاذ، والذكاء، والاجتهاد، والإصرار على تحقيق النجاح والتفوق، وكل ذلك في إطار وإن تميَّز بالسيادة المطلقة للقوة فإن هذه القوة تبقى سلمية ونقيضاً للأشكال القبيحة من القوة وممارساتها التي تنقلها إلينا وسائل الإعلام يومياً من كل أصقاع الأرض بما فيه من حروب وجرائم ومظالم.

إلى ذلك تمثّل هذه اللعبة قدرة الإنسان على تجاوز العادي، من خلال سيطرته على الكرة وتوجيهها حيثما شاء وكيفما يريد بقدمه أو رأسه اللذين لم يخلقا لهذه المهمة. وفي هذا إبداع يختلف عن بقية الرياضات، والمتابع يدرك هذا، وإن لم يستطع أن يعبّر عنه بوضوح. كما أن قلة الأهداف التي يمكن تحقيقها في لعبة كرة القدم مقارنة برياضات أخرى ككرة السلة أو اليد، فإنها تزيد من حدة المنافسة، وبالتالي من انفعال المتابع لها.

ترويج الآمال أم الأوهام.. لا فرق

ولا يمكن للحديث عن جاذبية اللعبة بحد ذاتها أن يكتمل من دون الإشارة إلى عامل «الأمل».. أمل الضعيف في أن يصبح قوياً، وأمل الفقير في أن يصبح ثرياً، وأمل المستفرد في أن يصبح جزءاً من المجموعة الكبرى.

يمكن للبعض أن يرى هذا الأمل أقرب إلى «الوهم»، بدليل أن لائحة أبطال المونديال تكاد تعد على أصابع اليد الواحدة: البرازيل وألمانيا والأرجنتين وإنجلترا وفرنسا والأوروغواي وإيطاليا. وكان «بناء» المنتخبات القادرة على الفوز بكأس العالم صار صناعة لا تقوى على توافر مقوماتها إلا حفنة معدودة من الدول. أما غالبية الناس فتقدم قراءة أخرى.

حكاية انفعال مواطن عربي مقيم في السعودية، وهو يتابع مباراة البرتغال وإنجلترا على التلفزيون السويسري الناطق بالفرنسية

ففي حين أن نتائج الألعاب الأولمبية تعكس تفوق الدول الصناعية الكبرى، فتخطف الولايات المتحدة الأمريكية حصة الأسد من الميداليات، ويتبعها في ذلك ألمانيا وروسيا وأستراليا.. فإن هذه السيطرة تختل تماماً في ميزان كرة القدم. فها هي غانا الإفريقية تهزم الولايات المتحدة بهدف مقابل لا شيء.

وقبل أكثر من عشرين سنة، توقع بيليه أن تفوز دولة إفريقية بكأس العالم في مطلع الألفية الثانية. لم تتحقق هذه التوقعات، غير أن مدلولاتها كانت صحيحة إلى حد بعيد. فالمنتخبان النيجيري والكاميروني، مثلاً، أحرزا انتصارات مؤثرة في كأس العالم. ويلقي كثيرون باللوم على سوء الإدارة في بعض الدول الإفريقية بالإضافة إلى عوامل أخرى تنظيمية وثقافية، في كونها سبب تأخر تحقيق توقعات بيليه.

ولكن نجوم كرة القدم من أبناء أمريكا اللاتينية هم الذين يعزِّزون الآمال والتفاؤل بالقدرة على النجاح على الصعيد الفردي الذي يخاطب الطموحات القابعة في نفس كل إنسان. فمعظم هؤلاء النجوم العالميين ولدوا وترعرعوا في الأحياء الشعبية الفقيرة. ألم يدغدغ مارادونا أحلام فقراء العالم بأسره عندما روى أنه بدأ مسيرته من خلال اللعب مع فتيان حارته بعبوات المشروبات الغازية الفارغة بدلاً من الكرة لفقرهم؟

«رحلة النجاح» كما تمثلها كرة القدم تبدأ بحلم صغير بالبطولة والإنجاز والفخر، يرعاه الصبي في داخله، وربما كان فتيان الدول الفقيرة أكثر تمسكاً بهذا الحلم



يوسف الدبيس

انفجار عواطف العالم..
مرة كل سنوات أربع



Reuters

من غيرهم، حتى في الدول التي لم يقترب منتخبها من المونديال. فالكل يذكر المظاهرات الصاخبة التي قامت في بنغلاديش ضد قرار «الفيفا» باستبعاد مارادونا من مونديال 1994م نتيجة لاستخدامه المنشطات.

كروية العالم وقريته

يروي أحد المقيمين العرب في المملكة العربية السعودية أنه كان يتابع مباراة البرتغال وإنجلترا على التلفزيون السويسري الناطق بالفرنسية. ولأن الرجل من مشجعي



Reuters

المناسبة عالمية ومعولمة، أما العواطف.. فقومية

البرتغال، ولمس انحيازاً من المعلق إلى جانب إنجلترا، انتقل إلى متابعة المباراة على التلفزيون السويسري الناطق بالإيطالية كي يشاهد المباراة من دون أن يفهم كلام المعلِّق تلافياً للغيظ الذي لم يعد يتحمله.. وتلفتنا القراءة المتأنية لهذه الرواية الصغيرة إلى أمرين كبيرين.

أولهما أن هذا المتابع العربي (مثل أي متابع آخر) يتورط عاطفياً وبسرعة تأييداً لفريق ضد آخر من دون أن تكون له أية ذرة صلة بأي منهما، ويصل التورط والشحن العاطفي إلى درجة العجز عن تحمّل الموقف الآخر.

أما الأمر الثاني فيكمن في الخلطة الفريدة من نوعها والتي تتضمن جنسية المشاهد (مصري) ومكان المتابعة (السعودية) ووسيلة المتابعة (التلفزيون السويسري الناطق بالفرنسية، والذي يقدم أيضاً فرصة المتابعة بالإيطالية)، والمباراة المتابَعة (البرتغال وإنجلترا). ومثل هذه الخلطة لا يمكنها أن تظهر بمثل هذا الوضوح إلا في بطولة العالم لكرة القدم.. الكرة التي حوّلت العالم بأسره إلى قرية.

لا أحد ينكر ما لوسائل الاتصالات والنقل التلفزيوني المباشر من دور في هذا المجال. حتى أن الكثيرين يرون أن مشاهدة المباراة على التلفزيون لا تقل إثارة عن مشاهدتها على أرض الملعب، ويدعم هؤلاء رأيهم بالإشارة إلى متابعة الكاميرا للكرة عن كثب، وإعادة بث صور الأهداف ببطء وما شابه. ولكن لا بد من الاعتراف بأن شخصية هذه اللعبة هي التي تجعل من النقل التلفزيوني صالحاً لخدمتها وليس العكس. بدليل أن رياضة الغولف مثلاً غير صالحة بتاتاً لأي نقل مباشر.

عندما أقيم كأس العالم الأول في الأوروغواي سنة 1930م، حضر مبارياته حوالي 430,000 شخص. أما مونديال 2006م فقد حضره على الملاعب نحو 3 ملايين نسمة وتابعه على شاشات التلفزيون أكثر من مليارين.

إن تطور وسائل الاتصال والنقل التلفزيوني يمكنه أن يفسِّر رقم المليارين. ولكنه لا يفسِّر الشحن العاطفي الذي أحس به كل واحد من هؤلاء المليارين.

ما يفسِّر ذلك هو حاجة الإنسان للانتماء. هذه الحاجة التي ازدادت إلحاحاً بعدما عزَّزت الحداثة فردية الإنسان المعاصر، حتى تحولت إلى عنوان مشكلة، لا يمكن مواجهتها إلا بالمشاركة.

المشاركة على صعيد الفريق اللاعب نفسه الذي لا أمل بالفوز إلا بالتعاون الكامل بين كل لاعبيه.. والمشاركة من الجمهور التي أصبحت تلعب دوراً حتى في حسم النتائج، بدليل أن الفريق اللاعب على أرضه وبين جمهوره المشجع يبدو دائماً مرشحاً للفوز.

بين العولمة وتفجُّر المشاعر القومية

ما سقناه سابقاً عن قروية العالم لمناسبة المونديال قد يبدو لوهلة منسجماً مع ما يذهب إليه بعض المنظرين الذين يرون في «العولمة» صَهراً للثقافات المختلفة وتمييعاً للحدود الفاصلة ما بينها. ولكن



المراقبة السريرية الأولية لنوعية الانفعاليات العاطفية المصاحبة لمباريات المونديال تؤكد أن سببها إفرازات الغدد القومية للجماهير.

فالمونديال مهرجان للأعلام الوطنية.. الأعلام المرفوعة بكل المقاييس، والمطبوعة على الملابس، والتي تعطي ألوانها للملابس وحتى صباغ الوجه والشعر. ومن الأمثلة التي يمكن ذكرها في هذا المجال أن أحد مُصنِّعي الأعلام في وبرتال في ألمانيا يقول إنه فوجئ خلال المونديال الأخير بطلبية عاجلة لتأمين مئة ألف علم ألماني في أقل من 12 ساعة!

فالمدرَّجات صارت (وربما كانت منذ أن وجدت) منابر للتعبير عن العواطف القومية المتقدمة. وقد تتجاوز في بعض الأحيان حدود التعبير عن الولاء إلى الهوية إلى إشهار العداء السياسي للفريق الآخر. ففي مباراة الأرجنتين وبريطانيا في تصفيات كأس العالم 2002م، كانت الجماهير الإنجليزية تهتف بأهزوجة تقول في أحد مقاطعها: «أين قواتكم البحرية؟ في قاع البحر بالتأكيد!» في إشارة واضحة إلى حرب الفوكلاند التي هزمت فيها بريطانيا الأرجنتين.

وتتدرَّج مستويات الولاء والتشجيع من الأقرب إلى الأبعد على الصعد القومية والثقافية والاقتصادية وصولاً إلى التأثر بأطياف العوامل السياسية الشاحبة. وحالنا في البلاد العربية خير مثال.

فناهيك عن التشجيع المطلق من السعوديين والتونسيين لمنتخبيهم الوطنيين، كان تشجيع العرب المقيمين في السعودية للمنتخب السعودي مماثلاً في زخمه لتشجيع السعوديين. حتى أن أحدهم أقرّ بعد المباراة مع تونس أنه أحس بتأنيب الضمير في وقت لاحق لـ «الحقد» الذي أحسّ به ضد المنتخب التونسي عندما حقق هدف التعادل مع السعودية، ومرد توبيخ الضمير هو أن «التونسيين عرب مثلنا مثلهم».. أما العرب خارج السعودية وتونس فتحدثوا عن «الكرة العربية».. وهكذا تدريجاً حتى الوصول مثلاً إلى تشجيع الدول الإفريقية «لأنها فقيرة»، أو أي فريق يلعب ضد «فريق دولة استعمارية كريهة» وما إلى ذلك.

ولعل أفضل ما يسمح بقراءة واضحة من هذه الزاوية هو الفارق بين كرة القدم في مواسمها العادية والمونديال. فعلى مدى سنوات أربع، تتخاطف الأندية (الأوروبية



يوسف الدبس

الحضور السعودي
لا يزال طري العود..
لكنه أسعد محبيه

بشكل خاص) مهارات اللاعبين من دول العالم الثالث. تدفع لهم الملايين مقابل الانضمام إليها، فتبدو بطولات الأندية في أوروبا الشمالية من خلال أسماء نجومها وكأنها بطولات إفريقية - أمريكية لاتينية.

الميدان الأفضل لتعلن شعوب العالم رغبتها في التواصل من دون التخلي عن هوياتها وخصوصياتها

وفي بعض دول العالم الثالث كالسنغال مثلاً، مدارس كثيرة تعد صغار اللاعبين للوصول إلى العالمية. وبعد أن تبرز الموهبة، وبالالتزام والعمل الشاق، يتحول اللاعب من هاوٍ إلى محترف لا يقوى على دفع أتعابه سوى الأغنياء.

وهكذا، خلال المباراة الافتتاحية لكأس العالم 2002م بين فرنسا والسنغال، كان معظم لاعبي المنتخب السنغالي من اللاعبين المحترفين في الأندية الفرنسية، وهم بذلك كانوا أكثر «فرنسية» من المنتخب الفرنسي نفسه، الذي كان يضم كثيراً من اللاعبين الفرنسيين المحترفين في صفوف الأندية البريطانية،

فخلال المونديال، على كل الأندية أن تعيد أبطالها إلى أوطانهم ليلعبوا تحت راياتها. وهذه الرايات هي التي تعطي المونديال نكهته العالمية المميزة عن البطولات الأخرى.

اثنتان وثلاثون دولة فقط تشارك في المونديال على ملاعبه، وأكثر من مئة وستين تشارك من خارج الملاعب. ولعل التفسير الوحيد الذي يمكنه أن يوفق في الجمع بين التفاف العالم بأسره حول نقطة واحدة ممثلة في الملعب، والإحساس بالانتماء المشترك إلى حدث واحد من جهة وتفجُّر المشاعر الوطنية من جهة أخرى، هو القول بأن المونديال يبدو اليوم أكثر من أي وقت مضى، ومن خلال تعاظم مقاييس عناصره، المناسبة والميدان العالمي الأبرز لتعلن فيه شعوب الأرض قاطبة رغبتها في التواصل مع بعضها وحاجتها الماسة إلى هذا التواصل من دون التخلي عن هوياتها وخصوصياتها. إنه العطش إلى الحضور والمشاركة والانتماء إلى الجماعة الإنسانية الكبرى.



وما هذه الكرة البيضاء الصغيرة التي تشد أبصار الإنسانية برمتها على مدى شهر كامل، إلا عنوان هذا الطموح والمسعى، أو على الأقل.. الأمل.



Reuters

هكذا تبدأ
حكايات الأبطال

فقراء العالم
يشترون إنتاجهم.. غالياً

من ضمن الأرقام القياسية التي تحطمت في مونديال 2006م، كان بيع حقوق نقل المباريات تلفزيونياً بمبلغ وصل في حصيلته النهائية إلى 1.11 مليار يورو. ولأن الشركات الناقلة ليست جمعيات خيرية، كان عليها أن تبيع بالمفرق ما اشترته بالجملة.

السعوديون والمقيمون في السعودية كانوا من المحظوظين عندما أمر خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز ببث مباريات المنتخب السعودي على القنوات الأرضية لكي يتمكن الجميع من متابعتها مجاناً، بعدما كادوا أن يحرموا حتى من هذا الحق الذي هو بالنسبة إلى الكثيرين بأهمية الماء والخبز..

ولكن، وحتى في المملكة، حيث مستوى الدخل والمعيشة أعلى مما هو عليه في كثير من دول العالم، وجد الكثيرون صعوبة في دفع قيمة الاشتراك في القنوات التي تنقل المونديال.

فكيف هو الحال في باقي دول العالم؟.

كيف الحال في ضواحي مدن أمريكا اللاتينية التي أعطت كرة القدم بيليه ومارادونا ورونالدو ورونالدينيو.. وأسهمت في صناعة مجد كرة القدم؟ وكيف هو الحال في إفريقيا التي وهبت هذه الرياضة من أبنائها حتى لم يعد بين الأندية الكبرى ما يخلو من عدد من اللاعبين الأبطال السُّمر، ولا المنتخبات أيضاً التي جنّست بلدانها الأبطال من ذوي الأصول الإفريقية.

وحتى آسيا البعيدة تقليدياً عن كرة القدم..

ألا يسلّم الجميع بأن متابعة الفقراء فيها لكرة القدم يضفي على هذه اللعبة زخماً وقيمة ويجعلها عالمية شاملة فعلاً؟

كرة القدم هي من ضنع فقراء العالم. ولكن هذه الصناعة وقعت في أيدي الأغنياء. وبلغ حجمها (بمصاريفها ومتطلباتها) مستويات مثيرة للقلق.

قد يكون من حق «الفيفا» أن يبيع حقوق البث التلفزيوني، وأن يسعى إلى زيادة مداخيله. ولكن ما بين المبدأ والتطبيق كما رأيناه في المونديال الأخير تبرز الإشكالية، أخلاقياً على الأقل.

ولعل القسم الأكبر من هذه الإشكالية يقع على عاتق الشركات الناقلة نفسها. فوسائل الإعلام المرئية التي تمطرنا يومياً ومجاناً بوابل من أخبار المصائب والكوارث الطبيعية والحروب، تطلب منا مالاً لكي تسمح لنا بمشاهدة شيء جميل يسعدنا أن نشاهده!!

فما هو الاتجاه المستقبلي لهذا الأمر؟ على الاتحاد الدولي والدول المنظمة والشركات الناقلة أن تتدبر حلاً. والحل لا يمكن أن يكون إلا بعقلنة اقتصاد كرة القدم» وتخفيض الأرقام.. كل الأرقام. وإلا هناك حل آخر سيفرض نفسه رغم الجميع: تطوير وسائل قرصنة البث الفضائي وتخفيض أسعارها.. المنخفضة أصلاً.



يوسف الديس



يوسف الديس

المتابعة مدفوعة الأجر.. حسب القدرات!

مع المعلِّقين العرب في «مونديال» 2006

بعضهم يزيد متعة المشاهد، وبعضهم يتطفَّل عليه

قبل نحو نصف قرن، كان عشاق كرة القدم العرب يتابعون بطولات العالم عبر الصحافة المطبوعة فيلاحقون أخبار النتائج أولاً بأول، وتحليلات المعلِّقين الدوليين، التي تنشر بعض الصحف العربية مقتطفات موجزة منها، مع بعض الصور أحياناً.

وكان القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية، على الأرجح، أول إذاعة باللغة العربية تبث وصفاً حياً لبعض المباريات المهمة، منذ أن فجّرت ألمانيا مفاجأة الحصول على لقبها المونديالي الأول في سويسرا عام 1954م. ولعل مونديال العام 1962م، الذي أقيم في تشيلي، كان الأول، الذي حظي فيه المتفرجون العرب، في بعض البلدان العربية، بنقل حي لبعض مبارياته المهمة، من خلال التلفزيون، بالأبيض والأسود.

وليس من باب الحنين فقط تُذكر خصوصية التعليق الإذاعي على مباريات المونديال، قبل انتشار البث التلفزيوني بشكل متدرج في البلاد العربية. ففي تلك الفترة، لمع نجم المعلِّقَين الرياضيَين موسى بشوتي وأكرم صالح، متابعين تجربة الوصف الإذاعي المثير لمباريات كرة القدم، الذي كان قد دشنه المعلقون المصريون، وأشهرهم الكابتن لطيف. وتميز ذلك العصر بحتمية أن يكون المعلق الإذاعي على مباريات كرة القدم (في المونديال وسواه) عاشقاً لكرة القدم، ومرجعاً أكاديمياً في تاريخها وفنونها وأسرارها، حتى ينقل إلى المستمع الذي يتابع فقط من خلال حاسة السمع كل الانفعالات الجياشة التي تزخر بها المباريات المهمة بالذات، وكل فنون اللعب القائم.

وقبل التطرق إلى التغيير الكامل الذي فرضه البث التلفزيوني على فنون التعليق على المباريات، لا بد من الإشارة إلى أن التعليق الصوتي في عصر البث الإذاعي كان العنصر الوحيد الذي يربط المستمع المتابع بمجريات المباراة، أما في عصر البث التلفزيوني فإن تعليق المعلقين قد تراجع إلى الصف الثاني، وأصبح العنصر الأول الذي يشد المشاهد هو الصورة الملونة، التي تصنعها عشرات الكاميرات، وكل واحدة منها تلاحق المشهد من زاوية محددة. يضاف إلى ذلك، احتمال الإعادة الفورية لأي مشهد كروي مثير، لزيادة الاستمتاع بالمشهد أولاً، ولزيادة الدقة في ملاحقة الخطأ أو احتمال الخطأ، إلى درجة أصبح معها بوسع المشاهد، بفضل هذه التقنيات، أن يصدر حكماً مباشراً على حكم المباراة، إذا كان قد أخطأ في قراره أم أصاب.

وهكذا، وبفضل كل هذه التطورات، أصبح دور المعلق التلفزيوني، محصوراً في مجال خدمة المشهد البصري والسمعي، الذي توصله التقنيات مباشرة من الملعب إلى المشاهد، بمعلومات إضافية، بعضها آنٍ، له علاقة مباشرة بأحداث المباراة المنقولة، مثل التعريفِ السريع باسم اللاعب الذي أطلق الكرة، واسم اللاعب الذي تلقاها، أو لفت المشاهد (خاصة الهاوي قليل الدراية بأسرار كرة القدم)، إلى جماليات نقلة كروية متقنة، أو إلى تصرف مفعم بالروح الرياضية لأحد اللاعبين، أو تصرف يفتقر إلى الروح الرياضية للاعب آخر، وما شابه ذلك.

كذلك، أصبح للمعلق الرياضي دور آخر، يتعلق بخلفيات المباراة التي ينقلها، وخلفيات الفريقين المتواجهين، وكيفية وصولهما إلى دورة المونديال الحالية. غير أنه يلاحظ في انقسام دور المعلق بين ما هو مباشر، وما هو غير مباشر من معلومات خلفية، تساعد في فهم أجواء المباراة، أن هذه المعلومات غالباً ما تكون مجمعة في كراسات وبيانات الاتحاد الدولي لكرة القدم (فيفا) بحيث تكون هذه البيانات كاملة وشاملة ودقيقة إلى درجة لا تترك أحياناً للمعلق مزيداً من فرص الاجتهاد الشخصي.

لكن كون رياضة كرة القدم نشاطاً إنسانياً يستقطب الحماسة والعواطف يبقي مساحة واسعة للعلاقة الإنسانية بين المعلق في الملعب (أو الاستوديو) والمشاهد في بيته. ذلك أن بيانات وإحصاءات الاتحاد الدولي لكرة القدم موضوعة بين أيدي جميع المهتمين وليس المعلِّقين فقط. كما أن المعلومات الهائلة الموزعة على شبكات الإنترنت، قد فتحت أبوابها على مصراعيها، أمام أي معلق مجتهد ليستزيد من المعلومات التفصيلية، أضعاف ما تزوده به البيانات والإحصاءات الرسمية للفيفا.

ومع ذلك، فإن دور المذيع يتجاوز كم المعلومات الخلفية ودقتها، إلى حرارة العلاقة الإنسانية بينه وبين المشاهد، وإلى خفة ظله واتزانه وموضوعيته وسرعة بديهته، وإلى إمساكه بالميزان الذي يحدد بدقة شديدة كمية ما يبثه من المعلومات الكثيفة المتراكمة أمامه، والوقت المناسب لذلك.

فبعض المعلِّقين، الأقل كفاءة وخبرة من سواهم، يصابون بهوس أمام نبع المعلومات الموجود أمامهم، فينطلقون إلى سرد المعلومات بطريقة فيها أولاً ميل واضح إلى استعراض العضلات المفضوح، علماً بأن معظم هذه المعلومات (وأحياناً


Corbis

التعليق بين إثارة الحماس والتحليل وتقديم المعلومة


Magnum

كلها) موضوع بين يدي المعلق، لم يبذل في جمعه أي جهد. كما أن عيباً آخر قد يبدو في سوء تصرف بعض المعلِّقين بالمعلومات المكدسة أمامهم، وهو عدم امتلاك الميزان، الذي يحدِّد العلاقة ما بين أحداث المباراة الجارية، وبين بعض المعلومات التاريخية، فبعض هذه المعلومات يكون على علاقة دقيقة بأحداث المباراة الجارية على أرض الملعب، فيأتي ذكرها مكملاً لأحداث المباراة، فيزيد على متعة المشاهد، متعة إضافية وحماسة واطلاعاً. والبعض الآخر من هذه المعلومات الخلفية، يكون بعيداً عن أجواء المباراة، فيأتي إقحامه مكدراً لمزاج المشاهد. لكن هذين العيبين بالذات، لا يقع فيهما إلا ضعاف المعلِّقين، وقليلي الخبرة والثقافة بينهم.

موضوعية المعلِّقين

من المسائل التي يمكن أيضاً أن تجعل المشاهد يميِّز ما بين معلق وآخر، الموضوعية في الوصف. فإذا استثنينا المنتخبين العربيين المشاركين في مونديال 2006م، فلا شك في أن لكل معلق عربي موقفاً يجعله يميل إلى تفضيل منتخب على آخر. نلاحظ مثلاً في هذا المجال كثرة عشاق منتخب البرازيل بين الجماهير العربية، والمعلقين العرب، وخبراء استوديوهات التحليل التي أصبحت بالمناسبة، جزءاً لا يتجزأ من تقاليد نقل المباريات، في فترة ما قبل النقل بقليل، وما بعده مباشرة.

إن انحياز هذا المعلق أو ذاك، إلى هذا المنتخب أو ذاك، هو أمر إنساني طبيعي، لا ضير فيه ولا عيب، غير أن العيب يظهر عندما يسيطر انحياز معلق لمنتخب على حساب المنتخب المنافس له في المباراة التي يذيعها.

وشاهدنا في مونديال هذا العام نوعاً من الانحياز أكثر غرابة من ذلك النوع التقليدي الذي أشرنا إليه، فقد كان أحد المعلقين يتخذ في كل مباراة يكلف بالتعليق عليها، موقفاً مسبقاً يؤيد فيه سلفاً الفريق الذي يعتقد أنه الأقرب إلى الفوز، فيحصر فيه كل مهارات اللعب وجمالياته، وينفي ذلك عن المنتخب المنافس. وكم تكون حيرة هذا المعلق كبيرة وخيبته أكبر، عندما تجري رياح المباراة بما لا تشتهي سفنه، فيضطر أحياناً للتراجع وتبديل لهجته، أو التخفيف منها، أو مناقضتها، بشكل مثير للشفقة.

والحقيقة أننا مع الاستمتاع الشديد بعدد من المعلِّقين الممتازين، المثقفين ثقافة كروية واضحة، الخفيفي الظل، الحريصين على الموضوعية، شاهدنا في بعض المباريات معلقين، نرجِّح أن هناك بين المشاهدين نسبة غير قليلة تتمتع بثقافة كروية أوسع منهم وأدق. وهذه ظاهرة نعتقد أن من واجب الشركات التلفزيونية التي تملك حق نقل مباريات المونديال التنبه لها.

تبقى الإشارة إلى مسألة لهجات المعلِّقين. فإلى جانب اللهجة المصرية المألوفة عربياً منذ زمن طويل، امتاز المعلقون الخليجيون، إلى جانب احتفاظهم الطبيعي بلهجاتهم المحلية، بتطعيم تعليقاتهم باللغة الفصحى، الأمر الذي جعلها قريبة من آذان بلاد الشام والمغرب العربي.

كما أن لهجات المغرب العربي، وإن لم تعد غريبة على أهل المشرق والخليج كما كانت سابقاً، فإن التونسية تبقى الأقرب لما فيها من ملامح مشتركة مع الشامية. أما المعلقون من المغرب فما زالوا يحتاجون إلى ضبط السرعة الشديدة التي تتميز بها لهجتهم المحلية الجميلة، لأن هذه السرعة، عندما تنطلق بعفوية أهلنا في المغرب يصبح فيها شيء من صعوبة المتابعة لكل التفاصيل، بالنسبة إلى المشاهدين المشارقة.

على أية حال، فكما أن مشاركة المنتخبات العربية في أعراس المونديال، ما زالت في حدودها الدنيا، رغم المشاركة المتكررة لكثير من المنتخبات العربية، منذ العام 1934م، وحتى العام الحالي، فإن تجربة العرب في مجال البث التلفزيوني لمهرجانات المونديال، ما زالت أطرى عوداً من تجربة المنتخبات الكروية، مما يدفعنا إلى أن نأمل بتحسن مضطرد في مستوى منتخباتنا الوطنية، ومستوى معلقينا ومحللينا الرياضيين.

قول في مقال

هجرة اليد العاملة

..فوائد للفقراء وللأغنياء

على الرغم من أن الهجرة كانت موجودة منذ القدم، إلاَّ أنَّ دراستها كإحدى وسائل معالجة الفقر في الدول النامية لم تظهر إلاَّ مؤخراً. وقد شدَّد تقرير أعدته مؤخراً «الهيئة العالمية» (Global Commission) على أهمية دور المهاجرين في التنمية الاقتصادية، وأوصت بضرورة الاهتمام بهذا الدور وتعزيزه. مهى قمر الدين* تعرض قراءتها لهذا الموضوع.

يسلّط البنك الدولي الضوء، من خلال تقرير أصدره في نوفمبر 2005م على أهمية دور الحوالات المالية التي ترسل من قبل المهاجرين إلى ذويهم في بلدانهم الأم. وكانت الأرقام التي ذكرها هذا التقرير مذهلة، إذ تحدّث عن مبلغ 167 مليار دولار دخلت إلى الدول النامية عام 2005م من هذا المصدر بالتحديد. ويجب الإشارة هنا إلى أن هذه هي الأرقام الرسمية فقط، وأن الأرقام الفعلية قد تكون أكبر بكثير، وأن هذه المداخيل بلغت بالنسبة لبعض الدول الصغيرة والفقيرة، أكثر من 20 بالمئة من الدخل القومي الإجمالي. كما أن هذه الحوالات المالية في ازدياد مستمر إذ إنها تنمو سنوياً بمعدّل 8 إلى 9 بالمئة.

* باحثة من لبنان

أهم من المساعدات التنموية

وهناك نقطة أخرى مهمة أيضاً وهي أن حجم هذه الحوالات يبلغ ضعفي أو ثلاثة أضعاف حجم المساعدات التنموية التي ترسل من الدول الغنية إلى الدول الفقيرة.

فمع ارتفاع عدد المهاجرين الذي بلغ 200 مليون شخص في العالم، نشهد اليوم تحوّلات ديموغرافية أو سكانية على الصعيد العالمي. هناك الكثير من الشباب الموجود في الدول النامية الذي يصعب عليه إيجاد فرص عمل في بلاده. لذلك يعمد هؤلاء الشباب إلى الهجرة، وأحياناً بطرق غير شرعية، على أمل إيجاد فرص عمل قد تعود عليهم بحوالي خمسة أضعاف ما قد يحصلون عليه في بلدانهم. وعندما يعمل هؤلاء يرسلون حوالي 20 بالمئة من مدخولهم إلى عائلاتهم في بلادهم الأم. وقد تمثل هذه المداخيل أكثر من نصف مدخول الأسرة كما أنها مصدر مهم للعملة الأجنبية.

دورها الاقتصادي

ولكن، مع الأهمية الشديدة التي يعلّقها بعض المتخصصين على هذه الحوالات بالنسبة للتنمية الاقتصادية في الدول النامية، إلاَّ أنَّ هناك فريقاً آخر منهم يعتقد أن هذه الحوالات لا تُوظّفُ في التنمية. ولذلك، لا يمكنها أن تسهم في أي ازدهار اقتصادي. إلاّ أن الدفاع عن أهمية الحوالات المالية يأتي دائماً مع هذه الجدلية بأن المدخول الذي يرسله العاملون في الخارج إلى أسرهم يسهم في ازدياد المدخول الذي يتم استهلاكه، وهذه الزيادة غالباً ما تكون لها فاعلية مضاعفة اقتصادياً. ولذلك، فإنها تُنشطُ الوضع الاقتصادي في البلاد. كما أنها تسهم في دفع جزء من فاتورة تعليم الأجيال الجديدة. بالإضافة إلى أنها، وفقاً للبنك الدولي، تزيد من قدرة الدول النامية الشرائية في أسواق السندات.

وعلى عكس المساعدات الأخرى التي يكون مصيرها الهدر، في كثير من الأحيان فإن هذه الحوالات تصيب هدفها بالإضافة إلى أن فعاليتها قد تكون أكبر. و تعطي الإحصاءات التي نشرها الاتحاد الأوروبي أخيراً فكرة عن مدى مساهمة الأموال التي حولت عام 2003م فقط من المهاجرين العاملين في أوروبا من خمسة بلدان عربية بالإضافة إلى تركيا، في الناتج الوطني الإجمالي لهذه الدول. وقد بلغ مجموع هذه الأموال المحوَّلة بصورة رسمية 8.46 مليار دولار. ويتضاعف الرقم إلى 16.2 مليار دولار اذا أدخلنا التحويلات غير الرسمية في حساباتنا. وهذا رقم يزيد على الرقم الذي منحته الدول الأوروبية كمساعدات إلى ثماني دول نامية في العام نفسه. وتشير البيانات التالية إلى النسبة المئوية لمساهمة هذه الأموال في الناتج الوطني الإجمالي لكل دولة:

1 - الأردن:	22%
2 - لبنان:	15%
3 -المغرب:	6 - 9%
4 - تونس:	4 - 5%
5 - الجزائر:	2 - 3%
6 - تركيا:	2%

عندما تكون الخسارة أكبر من الفائدة ولكن، في الوقت نفسه، فإن العنصر الذي يهاجر ليعمل في الخارج لا يتضمّن فقط اليد العاملة غير المتخصصة. بل قد تُفقد الهجرة في كثير من الأحيان بعض الدول النامية قسماً كبيراً من نخبتها المتعلمة والمتخصصة. إذ إن ثمانية من أصل عشرة من خريجي الجامعات في جاميكا وهايتي مثلاً تركوا بلادهم. وفي بعض مناطق إفريقيا حصل 4 بالمئة فقط من السكان على شهادات بعد المرحلة الثانوية، ولكن هؤلاء الخريجين يكوّنون 40 بالمئة من مهاجري المنطقة. يرسل هؤلاء الحوالات المالية إلى ذويهم من بلاد المهجر، ولكن الخسارة التي يشكّلها فقدان مهاراتهم في بلادهم تفوق القيمة الاقتصادية لهذه الحوالات. لذلك نحن بحاجة لمعرفة المزيد من أجل وضع قوانين قد تزيد من الإيجابيات، في الوقت الذي تُقلل فيه السلبيات التي يمكن ظهورها.

الحاجة إلى قوانين داعمة للتبادل

من ناحية ثانية، تساعد الهجرة في زيادة الإيجابيات الكامنة في الدول النامية التي يواجه الكثير منها عدم تكافؤ ديموغرافي. هناك مصالح مشتركة بين الدول النامية والدول الغنية التي تأخذ على عاتقها إرسال مساعدات لتحسين أوضاع تلك الدول النامية. ولكن تحقيق تلك المصالح المشتركة يتطلَّب وجود قوانين جيّدة مرتكزة على معطيات ومعلومات وأبحاث موثوقة. هذه القوانين يجب أن تشمل زيادة المنافسة بين الشركات التي تعمل على إرسال الحوالات المالية من أجل تخفيف الرسوم التي غالباً ما تكون منظمة بطريقة تنازلية ولذلك يكون وقعها أكبر على الفقراء. وهناك أمثلة حقيقية موجودة. ففي عام 1999م، كان المهاجر المكسيكي يدفع 26 دولاراً من أجل إرسال 300 دولار أمريكي إلى بلاده، ولكن في عام 2005م بلغت كلفة إرسال المبلغ نفسه 11 دولاراً، مما يعادل انخفاضاً بنسبة 56 بالمئة خلال 6 سنوات. وقد جاءت هذه النتيجة بفعل المنافسة المتزايدة بين البنوك وغيرها وذلك بسبب التعديلات القانونية التي أقرّت في الولايات المتحدة والمكسيك بطريقة منسَّقة.

ولكن هناك أمراً غريباً ومحيّراً جداً بالنسبة للدول، وهو إيجاد توازن مقبول وصحيح بين الإجراءات المتخذة لمواجهة تهريب الأموال من جهة، وتسهيل انتقال الأموال من خلال قنوات فاعلة من جهة أخرى، ومن الصعب الاعتقاد بأن يكون هذا التوازن محققاً في الوقت الحالي.

أخيراً، لا يجب أن ننظر إلى هذه الحوالات المالية كمساعدات للدول النامية كما اقترح البعض. هذه الحوالات هي أموال خاصة تُرسل من مداخيل مكتسبة بطريقة صعبة من الفقراء إلى ذويهم الفقراء أيضاً. لا يجب أن تخضع هذه الحوالات إلى أيّ نوع من الضرائب في الدول التي تُرسَل إليها، كما أنه لا يجب أن تعتبرها الدول الغنية التي تُرسل منها بمثابة مساعدات تنموية إلى الدول الفقيرة. وبالتالي تخفف من مساعداتها المالية التي ترسلها إلى تلك الدول. لا يكمن التحدّي بالنسبة للهجرة العالمية في الحصول على جزء من الإفادة التي تعود بها تلك الهجرة. ولكن التحدّي يكون بإيجاد حلول تفيد الدول الفقيرة والدول الغنية والمهاجرين أنفسهم في وقتٍ واحدٍ.

بين المتشائم والمتفائل يضيع موعد بلوغ «ذروة إنتاج الزيت» ما بين العام الجاري ومنتصف القرن المقبل! فمتى ستكون هذه الذروة فعلاً ليبدأ بعدها الشح ثم النضوب؟ بين التوقعات المتناقضة، هناك ولحسن الحظ، قراءات واقعية. المهندس مازن تمار* يلقي الضوء على بعض دوافع التوقعات المتشائمة.

الجدل بشأن بلوغ الزيت ذروة إنتاجه

يقصد «بذروة إنتاج الزيت» النقطة التي يبلغ فيها إنتاج الزيت من مكمن أو حقل زيت معين أعلى مستوى له ثم يبدأ في الانخفاض.

ويعود الجدل الدائر حول توقيت بلوغ الإنتاج العالمي من الزيت ذروته وبداية انخفاضه إلى بداية التسعينيات من القرن الماضي، وقد اكتسب هذا الجدل زخماً وأهمية كبيرة في السنوات القليلة الماضية نتيجة لارتفاع أسعار الزيت إلى مستويات غير مسبوقة ونقص المعروض منه وانتعاش الطلب العالمي عليه وقلة ما يتم إضافته من احتياطات جديدة، غير أن الأكثر أهمية اليوم هو أن ازدياد حدة هذا الجدل نتيجة المخاوف المتعلِّقة بأمن الإمدادات، قد جعل هذه المسألة تكتسب بعداً سياسياً أكثر من أي وقت مضى.

معسكر المتشائمين

فهناك معسكران رئيسان يشتركان في هذا الجدل هما معسكر المتشائمين أصحاب نظرية نضوب الزيت أو بلوغ الإنتاج ذروته من جهة، ومعسكر المتفائلين من جهة أخرى. ويقول المتشائمون، الذين يركِّزون في الأغلب على النواحي الجيولوجية، إن الإنتاج العالمي من الزيت التقليدي سيبلغ ذروته بين عامي 2005 و2010م، إن لم يكن قد بلغها بالفعل. وقد قاموا، انطلاقاً من نظريتهم القائلة ببلوغ إنتاج الزيت ذروته، بالضغط على الحكومات لتخصيص أموال وإصدار تشريعات تدعم ترشيد الطاقة وتنويع مصادرها والمحافظة على البيئة، محذرين من النتائج الخطرة التي سيجرَّها نفاد «الزيت الرخيص» التقليدي على الاقتصاديات والمجتمعات في الدول الصناعية.

وتستند نظرية بلوغ إنتاج الزيت ذروته إلى الاعتقاد بأن ذروة الإنتاج تأتي متأخرة عن ذروة الاكتشافات بما يتراوح ما بين 35 و45 سنة. ويعتقد أتباع هذه النظرية أن اكتشافات الزيت العالمية قد بلغت ذروتها في أوائل الستينيات من القرن الماضي، وبالتالي، فإن إنتاج الزيت التقليدي سيبلغ ذروته عند مطلع القرن الجديد.

ولما لم تتحقق هذه التوقعات، فقد عزوا تأخر بلوغ ذروة الإنتاج إلى عدد من الأحداث غير المتوقعة، أهمها صدمات ارتفاع أسعار الزيت في عامي 1973-1974م وفي عام 1980م، والأزمة المالية الآسيوية في عام 1997م، حيث كان لكل هذه العوامل أثرها السلبي على الطلب والإنتاج، مما أدى إلى تأخير بلوغ الذروة إلى حوالي نهاية العقد الحالي. ومع أن أتباع نظرية بلوغ الذروة يأخذون بعين الاعتبار تأثير الطلب على الإنتاج، فهم يرون أن الطلب لن يكون وراء محدودية الإنتاج، بل الإمدادات، أو «قاعدة الموارد».

ومعسكر المتفائلين

أما المتفائلون، على الجانب الآخر، ومنهم شركات البترول والدول المنتجة والمسؤولون الحكوميون ورجال الاقتصاد وغيرهم، فيعتقدون أن التطورات الاقتصادية والتقنية ستنجح في العثور على المزيد من الزيت وتطويره. كما

* متخصص وباحث في الشؤون البترولية



Reuiters

أنهم لا يحصرون قاعدة الموارد النهائية التي تحدد ذروة إنتاج الزيت التقليدي كما يفعل المتشائمون، وإنما يأخذون بعين الاعتبار الدور المتنامي الذي ستلعبه إمدادات الوقود السائل غير التقليدي في المستقبل، خاصة رمال القار الكندية والزيت الفنزويلي الثقيل جداً، الموجودان بكميات هائلة تقدَّر بمئات البلايين من البراميل من الاحتياطات القابلة للاستخلاص. وعلى هذا الأساس فإن بلوغ ذروة الإنتاج في تقدير المتفائلين سيكون في الفترة ما بين عامي 2026 و2047م، وهو ما يبتعد كثيراً عن توقعات أتباع نظرية الذروة.

سقطت توقعات هيوبرت ببلوغ الذروة عام 1991م ومن ثم عام 2000م ولكن جيلاً جديداً من المتشائمين لا يزال على نهجه

منحنى هيوبرت سيء السمعة

يمكن القول إن أول من طرح مفهوم بلوغ الزيت ذروة إنتاجه رسمياً هو م. ك. هيوبرت، وهو جيولوجي عمل في «شل أويل كومباني» وإدارة المساحة الجيولوجية الأمريكية. فقد وضع هيوبرت فرضية مفادها أن إنتاج الزيت في إقليم يضم عدداً كبيراً من المناطق المنتجة للزيت يتبع منحنى ناقوسي الشكل، وهو المنحنى الذي عرف بمنحنى هيوبرت، وينقسم عند نقطة ذروته (النقطة الوسطى) إلى شقين متماثلين ويغطي منطقة تساوي الاحتياطات النهائية القابلة للاستخلاص. وعلى هذا الأساس فإن بلوغ ذروة الإنتاج يحدث عندما يتم إنتاج ما نسبته 50 في المئة من هذه الاحتياطات (أي نصف المنطقة الواقعة أسفل المنحنى).

وقد اكتسب هيوبرت شهرة ومصداقية عندما تمكَّن في عام 1956م من التوقع بصورة دقيقة بأن إنتاج الزيت في الولايات المتحدة باستثناء ألاسكا سيبلغ ذروته في أوائل السبعينيات من القرن الماضي ثم يبدأ في الانخفاض. وفي عام 1972م أُعلن أن إنتاج الزيت في الولايات المتحدة باستثناء ألاسكا قد بلغ ذروته عند مستوى 9 ملايين برميل في اليوم خلال السنة السابقة. وفي عام 1974م قام بإعداد منحنيين يمثلان الإنتاج العالمي من الزيت، أولهما منحنى منخفض يعتمد على احتياطات نهائية قابلة للاستخلاص تبلغ 1.35 تريليون برميل وتؤدي إلى بلوغ الإنتاج العالمي ذروته في عام 1991م، والثاني منحنى مرتفع يعتمد على احتياطات قدرها 2.1 تريليون برميل تؤخر الذروة إلى عام 2000م. وعندما لم تتحقق توقعات هيوبرت حول بلوغ إنتاج الزيت العالمي ذروته، ثارت الشكوك حول مدى انطباق طريقته شديدة التبسيط على العالم ككل، خاصة في غياب منطق فيزيائي أو اقتصادي قوي يدعم تماثلية النتائج بالنسبة لعموم العالم.

أبرز النماذج الحالية «لبلوغ ذروة إنتاج الزيت» نتيجة النضوب

يشمل الجيل الثاني من المدافعين عن نظرية بلوغ ذروة إنتاج الزيت كولن كامبل وجان لاهرير وكينيث ديفيز وديفيد قودشتاين وغيرهم. وقد واصل هؤلاء نهج هيوبرت في تحديد الوقت الذي سيبلغ فيه الإنتاج العالمي من الزيت ذروته، مستخدمين نماذج أكثر تطوراً من تلك التي استخدمها هيوبرت، إلا أنها تقوم على مبادئه الأساسية المتمثلة في استنباط توجهات الاكتشاف والإنتاج في الماضي لتقدير كمية الاحتياطات النهائية القابلة للاستخلاص.

الجدير بالذكر أن أتباع نظرية بلوغ ذروة إنتاج الزيت عادة ما يتجاهلون المواد الهيدروكربونية التي تعتبر غير تقليدية، مما يقلل من قاعدة الموارد الإجمالية التي تتكون منها الاحتياطات النهائية القابلة للاستخلاص. ويستندون في هذا التجاهل إلى أن السوائل غير التقليدية لها أطوار نضوب مختلفة ومن ثم فإنها تؤدي إلى إخفاء معدلات النضوب الفعلية. وتشمل السوائل غير التقليدية التي يستبعدونها ما يلي:

- الزيت الثقيل (أقل من 20° حسب درجات معهد البترول الأمريكي) ورمال القار الكندية والزيت الفنزويلي الثقيل جداً (أقل من 10° حسب درجات معهد البترول الأمريكي) والبيتومين وزيت السجيل.
- الزيت والغاز الموجودان في المياه العميقة، التي يزيد عمقها على 500 متر.
- الاستخلاص المحسن.
- سوائل الغاز الطبيعي.
- الغازات المسالة.
- الفحم المسال.
- الزيت والغاز الموجودان في المناطق القطبية.
- الغاز غير التقليدي مثل هيدرات الغاز وميثان طبقات الفحم والغاز الطبيعي الموجود في مكامن قليلة المسامية والنفاذية.

ومن أبرز أنصار نظرية بلوغ ذروة إنتاج الزيت اليوم كامبل ولاهرير، ويستند نموذج استنزاف الزيت الخاص

بكامبل إلى تحاليل تفصيلية لكل دولة على حدة من حيث الاحتياطات والطاقات الإنتاجية، وتتضمن هذه الطريقة تقسيم الدول إلى ثلاث مجموعات على أساس حالتهم النضوبية (أي قبل أو عند أو بعد النقطة الوسطى للنضوب). ويعتبر هذا الأسلوب نظاماً مغلقاً يعتمد على متابعة أنماط الإنتاج والنضوب في أحواض البترول العملاقة المكتشفة بالفعل في مختلف أنحاء العالم، وتبلغ آخر تقديرات كامبل للاحتياطات النهائية القابلة للاستخلاص من الزيت التقليدي بتاريخ ديسمبر 2005م ما مقداره 1.85 تريليون برميل، مع افتراض وجود 125 بليون برميل فقط لم يتم اكتشافها بعد، أي ما يعني بلوغ الإنتاج ذروته في عام 2006م، وهو أمر غير محتمل الحدوث.

أما جان لاهرير فيستخدم طريقة لتقويم مجمل ما يمكن أن تصل إليه الاكتشافات العالمية تعرف باسم الخط البياني المتعرج للقطع الزائد. وقد بلغت تقديرات لاهرير التي وضعها في عام 2003م للاحتياطات النهائية 2.25 تريليون برميل.

وتعد تقديرات كل من كامبل ولاهرير شديدة التحفظ عند مقارنتها بتقديرات إدارة المساحة الجيولوجية الأمريكية، حيث تقدم هذه الإدارة تقديرات بديلة أكثر تفاؤلاً للاحتياطات النهائية القابلة للاستخراج. فعلى العكس من كامبل ولاهرير، لا تضع إدارة المساحة الجيولوجية الأمريكية تقديرات للاحتياطات النهائية، وإنما تستخدم طريقة محاكاة تعرف بـ «مونت كارلو» لتقدير توزيعات الاحتمالات الخاصة بالموارد القابلة للاستخلاص غير المكتشفة في مناطق إنتاج الزيت في العالم، وهي الموارد التي يحتمل أن تظهر إلى حيز الوجود وتتحول إلى احتياطات وإلى زيادة في احتياطات حقول قائمة بحلول عام 2025م.

وفي عام 2000م، أصدرت إدارة المساحة الجيولوجية الأمريكية نتائج تقويمها للموارد البترولية في العالم

تقديرات كامبل للموارد/الاحتياطات العالمية من الزيت التقليدي (2005)	بليون برميل
ما تم إنتاجه حتى اليوم	968
الاحتياطات	759
ما تم اكتشافه حتى اليوم	1,727
ما لم يتم اكتشافه بعد	125
ما لم يتم إنتاجه بعد	884
كمية الاستخلاص النهائي	1,852
معدل النضوب السنوي	%2

تقديرات إدارة المساحة الجيولوجية الأمريكية للموارد البترولية العالمية لعام 2000 الطلب العالمي III.	الزيت التقليدي، ببلايين البراميل			
	ب 95	ب 50	ب 5	القيمة المتوسطة
العالم باستثناء الولايات المتحدة				
لم يكتشف بعد	334	607	1,107	649
الزيادة في الاحتياطات	192	612	1,031	612
الاحتياطات الحالية	-	-	-	859
الإنتاج التراكمي	-	-	-	539
الإجمالي	-	-	-	2,659
الولايات المتحدة				
لم يكتشف بعد	66	-	104	83
الزيادة في الاحتياطات	-	-	-	76
الاحتياطات القائمة	-	-	-	32
الإنتاج التراكمي	-	--	-	171
الإجمالي	-	-	-	362
إجمالي العالم	2,248	-	3,896	3,003

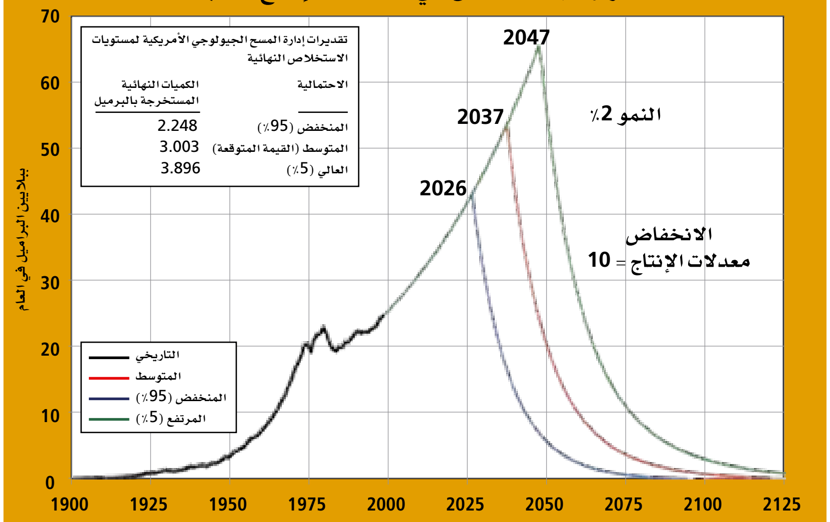


لعام 2000م، في شكل دراسة تصدر كل سنوات خمس ويعتبرها الكثيرون في صناعة البترول الأدق والأحدث بين تقاويم موارد الزيت الخام والغاز الطبيعي في العالم. وقد جاء فيها أن القيمة المتوسطة لاحتياطات الزيت القابلة للاستخلاص في العالم تبلغ 3 تريليونات برميل، أما الحد الأقصى للموارد النهائية القابلة للاستخلاص فهو أعلى من ذلك، حيث يبلغ 4 تريليونات برميل.

وإلى جانب ذلك، أعدت إدارة معلومات الطاقة التابعة لوزارة الطاقة الأمريكية تصوراتها بعيدة المدى لإمدادات الزيت العالمية بالاستناد إلى تقديرات وكالة المساحة الجيولوجية الأمريكية المتعلّقة بالموارد، وتوضِّح المنحنيات المتباعدة الثلاثة في الرسم البياني أدناه ثلاثة تصورات لبلوغ ذروة الإنتاج، وهي التصور الأساسي بنسبة 95 في المئة، والقيمة المتوسطة (القيمة المتوقعة)، والقيمة الكمية بنسبة 5 في المئة.

وعلى هذا الأساس، فإذا ثبتت صحة التقدير المتوسط الذي وضعته إدارة المساحة الجيولوجية الأمريكية للموارد، واستمرت الزيادة بنسبة 2 في المئة في الإنتاج حتى بلوغ ذروة الإنتاج، ثم انخفض الإنتاج عندها بمقدار 10 من نقاط معدل الاحتياطات/الإنتاج، فإنه يتوقع بلوغ إنتاج العالم من الزيت التقليدي ذروته في عام 2037م بإنتاج يبلغ 53.2 بليون برميل في السنة، وهو مستوى أكثر تفاؤلاً

تصورات الإنتاج السنوي مع معدلات نمو بنسبة 2% ومستويات مختلفة للموارد (الانخفاض في معدلات الإنتاج =10)



ملاحظة: أضيفت الكميات في الولايات المتحدة إلى تقديرات إدارة المسح الجيولوجي الأمريكية للكميات الأجنبية لمعرفة الإجمالي العالمي

وواقعية من التقديرات الأخرى التي تحصرها بين عامي 2005 و2010م.

أدوار التقنيات

وبصرف النظر عن تقديرات الاحتياطات النهائية القابلة للاستخلاص، هناك عدد من النقاط الأخرى يتذرع بها أنصار نظرية بلوغ ذروة الإنتاج ويمكن دحضها. منها رفضهم الاعتراف بأثر التقنية على الاحتياطات النهائية القابلة للاستخلاص، مدعين أن التقنيات لا تزيد الاحتياطات وإن دورها يقتصر على تسريع عملية الاستخراج وبالتالي جعل الانخفاض الذي يحدث في نهاية المطاف أكثر حدة. وهذا القول ليس صحيحاً تماماً، فمع أنه بحلول الثمانينيات من القرن الماضي كانت معظم الأحواض المعروفة في العالم قد تم الحفر فيها بالفعل، إلا أن الحفر قد تم بواسطة تقنيات قديمة.

أما في ظل أسعار الزيت السائدة وما نشهده من تطورات تقنية اليوم، فبوسع شركات ومنتجي البترول العودة إلى تلك المناطق مرة أخرى للبحث عن الزيت القابع في المكامن القديمة وتطويره إلى جانب تطوير الحقول الصغيرة التي كانت تحتل أولوية دنيا في مجموعات مشروعات شركات البترول. وتشمل هذه المناطق الأجزاء المغمورة في كولومبيا ومدغشقر وحوض أورفان في شرق كندا وفوكلاند وغيرها، وهي مناطق يمكنها جميعاً أن توفر احتياطات إضافية من الزيت التقليدي. والنقطة المهمة هنا هي أن اقتصاديات أو جدوى أعمال التنقيب والاستخراج تتغير مع التطورات التقنية وتغير أسعار الزيت والطلب العالمي والنواحي الجيوبوليتيكية، بحيث يصبح ما هو غير اقتصادي اليوم جذاباً في المستقبل.

كما أن اقتصاديات وتقنيات اليوم قد بررت تطوير السوائل غير التقليدية، أو «الزيت الصعب»، التي يتمثل معظمها في رمال القار الكندية والزيت الفنزويلي الثقيل جداً. فعلى العكس من الزيت التقليدي، الذي ينطوي بطبيعته على مخاطر في أعمال التنقيب تحت الأرض، فإن المعوقات الخاصة بالزيت الصعب توجد فوق الأرض، ونعني بها الجوانب السياسية والاقتصادية والتقنية. ولذا فإن تجاهل موارد الزيت غير التقليدي كلية وعدم احتسابها ضمن قاعدة الموارد الإجمالية أمر يتنافى مع الواقع.

وللدلالة على ذلك نذكر أنه يعتقد وجود 1.6 تريليون برميل في رمال القار في كندا، منها 175 بليون برميل قابلة للاستخلاص، وتبلغ طاقة إنتاج رمال القار (الزيت الخام المستخلص من الرمال الزيتية بعد تحسينه زائداً البيتومين) حالياً مليون برميل في اليوم. وتشير التوقعات إلى زيادة إنتاج رمال القار بنسبة 7 في المئة في السنة حتى عام 2025م، ليصل إلى 5 ملايين برميل في اليوم، وذلك على أساس مشروعات التوسع المعلنة والمتوقعة.

ارتفاع الأسعار يقلِّل الضغط على الموارد المالية، وتطور تقنيات التنقيب يؤجِّل بلوغ الذروة إلى ما بعد المستقبل المنظور

ولعل هذا هو أهم سبب يجعل مصادر المعلومات العامة، مثل وكالة الطاقة الدولية، وإدارة معلومات الطاقة وأوبك، إلى جانب المستشارين والبنوك، لا تتوقع انخفاض إنتاج العالم من الزيت في المستقبل القريب، وإنما تفترض تواصل اكتشافات الزيت، تقليدي وغير تقليدي، واستخراجه على حسب الحاجة خلال العقد الحالي، بشرط توافر الظروف المناسبة. وتأخذ هذه الجهات في اعتبارها أثر استمرار ارتفاع أسعار الزيت عن الطلب العالمي والدور الموازن الذي تقوم به هذه الأسعار في تقليل الضغط على قاعدة الموارد الحالية.

علاوة على ذلك، ستشهد الإمدادات من حقول المياه العميقة زيادة قوية خلال السنوات التالية، حيث أدت الطفرة في أعمال التنقيب في المياه العميقة التي شهدتها فترة التسعينيات من القرن الماضي إلى عدد من الاكتشافات التي تبلغ بلايين البراميل.

تتعدد الدوافع وتبقى مثيرة للجدل

ومن الضروري أن ندرس دوافع أنصار نظرية بلوغ ذروة إنتاج الزيت، فهؤلاء الذين ينتمون إلى مجتمع رجال الأعمال ربما تكون دوافعهم تجارية متمثلة في الاستفادة من الزيادة التي يحدثها الخوف في أسعار الزيت. أما دعاة حماية البيئة فهم عموماً يهتمون باستهلاك العالم من الوقود العضوي، وأثر الغازات المسببة لظاهرة الاحتباس الحراري على ارتفاع درجة حرارة كوكب الأرض، والضرر الذي يلحق بالأنظمة البيئية نتيجة لانسكابات الزيت وتصريف المخلفات التي تتسرب إلى التربة. وقد انضمت هذه المجموعة بحماس بالغ إلى أنصار نظرية بلوغ ذروة إنتاج الزيت لتحقيق أهداف بيئية من خلال الترويج لترشيد الطاقة وتطوير مصادر الطاقة البديلة مثل الوقود العضوي والرياح والطاقة الشمسية.

وأخيراً، وليس آخراً، يأتي واضعو السياسات المسؤولون عن المحافظة على رفاهية دولهم، سواء من الناحية المادية أو الاقتصادية. ومع أن موضوع بلوغ ذروة إنتاج الزيت لا يأتي في مقدمة أولوياتهم في مجال الطاقة، إلا أن العديد من السياسيين في الدول المستهلكة يستخدمون هذه النظرية لدعم سياساتهم حول أمن الطاقة الذي يتم اليوم الخلط بينه وبين الأمن القومي. ومن أمثلة سياسات الطاقة التي استفادت جزئياً من مخاوف بلوغ الزيت ذروة إنتاجه المبادرة التي أطلقها الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر في عام 1970م للترويج لأنواع الوقود المستخلصة من الرمال الزيتية، والمبادرة التي أطلقها الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش تحت عنوان «قوة الهيدروجين».

وبعيداً عن هذه الدوافع المتباينة، فإن النهج الذي يتعين على الدول المنتجة والمستهلكة في العالم سلوكه للمحافظة على النمو الاقتصادي وضمان بقاء إمدادات الطاقة الحالية لفترة طويلة واضح وبسيط، وهو يستلزم التحرك في الاتجاهات التالية:

- ترشيد الطاقة
- رفع كفاءة استهلاك الوقود
- الترويج للمواد المضافة للوقود غير الهيدروكربونية
- المحافظة على أسعار زيت عادلة تشجِّع على إنفاق المزيد من الاستثمارات في التنقيب وتطوير موارد الطاقة التقليدية وغير التقليدية
- تخصيص المزيد من الأموال للأبحاث والتطوير في مجال التقنيات التي تزيد من عمر احتياطات الزيت من خلال رفع كفاءة الاستهلاك ومعدلات اكتشاف الزيت واستخلاصه.

ولا ينبغي بذل جهود لا طائل من ورائها في إثارة مخاوف لا تؤدي إلا إلى زيادة اضطراب السوق وزيادة تقلبات أسعار الزيت، لأن هذين العاملين يضران بالاقتصاد العالمي وبالاستثمارات في مجال التنقيب والإنتاج، مما يؤدي إلى إعاقة الإمدادات المستقبلية من مصادر الطاقة التقليدية وغير التقليدية.

قروض البنوك:

للمستثمر ام للمستهلك..

استكمالاً لموضوع «مصرفية تتعدى المصرفية» الذي نشرت القافلة الجزء الأول منه في العدد الماضي، والذي تناول التحولات التي طرأت على الأداء المصرفي المعاصر بشكل عام، يتناول الدكتور محمد آل عبّاس* هنا واقع البنوك السعودية محللاً أداءها في إدارة التوازن الاقتصادي من خلال توازن التحفيز على الاستثمار من جهة والاستهلاك من جهة أخرى.

أنهت مؤسسة النقد العربي السعودي (ساما) تعليماتها لرؤساء مجالس إدارات البنوك والمديرين التنفيذيين بالقول: «من المستحسن أن يدرك أعضاء مجالس إدارات البنوك، أن البنوك ليست مؤسسات هدفها الربح فقط، بل لها أيضاً أهداف اجتماعية.

وما لم يتمكن البنك من خلق شعور بالارتياح نحوه في المجتمع الذي يخدم فيه عن طريق تقديم خدمات فعالة ومعقولة التكاليف، ومعاونة الأشخاص ذوي الإمكانات المحدودة على إنشاء أعمالهم، ومصانعهم ومهنهم، والمساهمة في النشاطات التي تساعد في بناء البلاد، فإن أسسه ستظل غير ثابتة، ومستقبله غير واضح».

موقع البنوك في الاقتصاد

تمثل البنوك القلب النابض للاقتصاد الحديث والذي من خلاله تتمكن الجموع البشرية من الحفاظ على مقوماتها وأداء مهامها. فهي، أي البنوك، تقوم بتجميع المال من أطراف المجتمع الاقتصادي لتعيد ضخه مرة أخرى وبما يغذِّي هذا الاقتصاد. وعليه، فإن كفاءة الاقتصاد في أي بلد تعتمد ابتداءً على كفاءة النظام المصرفي فيه وتطور أدواته. من هنا اهتمت أمم الأرض قاطبة بالنظام المصرفي لدوره المحوري في التنمية الاقتصادية المستدامة. فالاقتصاد بشكل عام يعتمد على محورين رئيسين هما الإنتاج و التوزيع، ويشمل التوزيع الاستهلاك والادخار والاستثمار.
ونستطيع اعتبار الوظيفتين الأخيرتين محور أعمال المصارف والتي تحفِّز الإنتاج والاستهلاك. ولهذا، كان لا بد للمجتمع العاقل اقتصادياً أن ينتج أكثر مما يستهلك ولذلك يدَّخر ويستثمر ليعود، عن طريق البنوك، إلى دعم قدراته الإنتاجية وتحفيز الاستهلاك حتى يصل المجتمع إلى مستوى الرفاهية المستهدف.
أما إذا كان كل المجتمع يستهلك كل ما ينتجه،

* أستاذ المراجعة المساعد في جامعة الملك خالد بأبها



يوسف الدبيس

المصرفية الجديدة: إدارة الاستهلاك اليومي

بحيث لا يبقى شيء للادخار أو الاستثمار فلا داعي لأعمال البنوك البتة، إلا كوسيط خامل بين الإنتاج والاستهلاك، ولا يؤثر في التفاعلات بينهما ويظل الاقتصاد والمجتمع تبعاً لذلك، وفي أحسن الأحوال يراوح مكانه ولا يتقدم.

وهكذا تتضح الصورة أكثر. ففي الاقتصاد الراشد تقوم البنوك بمهمتين رئيستين هما: تجميع المدَّخرات من الناس وإعادة ضخها إلى الاقتصاد عن طريق الاستثمار الذي يصبُّ في قنوات تطوير أساليب الإنتاج، ومن ثم رفع معدلات الناتج المحلي. هذا من جهة، ومن جانب آخر فإن البنوك وعن طريق القروض الاستهلاكية تقوم بدعم القدرات الاستهلاكية للمجتمع مما يسمح بإيجاد أسواق رائجة لمخرجات العملية الإنتاجية ومن ثم رفع معدلات النمو الاقتصادي. هذه العلاقات الاقتصادية المتشابكة والمعقَّدة في بعض الفترات تحتاج إلى نظام مصرفي متطور وكوادر مصرفية على مستوى عالٍ من التأهيل والتدريب. فكلما انخفض الاستهلاك عن مستويات الإنتاج تتدخل البنوك تجنباً للكساد لحفز الاستهلاك بطرق مختلفة. وإذا حصل العكس وزاد مستوى الاستهلاك عن مستويات الإنتاج وتجنباً للتضخم تعمل البنوك على تخفيض مستويات الاستهلاك. من هنا يتضح الدور الذي تلعبه البنوك في حياة الأمم الاقتصادية والتي تمارس لعبة التوازن ولكن بطريقة منهجية احترافية.

البنوك السعودية أمام النزعة الاستثمارية

إن اقتصاد المملكة العربية السعودية لا يستثنى من هذا، فهو يقوم على تفاعل بين عوامل الإنتاج وطرق وأساليب التوزيع. غير أن المملكة لا تزال دولة ذات اقتصاد ناشئ ولم تزل المفاهيم الاقتصادية الأساسية غير واضحة المعالم للناس. ولذلك، قد يبدو دور البنوك الحالي في المملكة أقل مما هو عليه في الدول الأخرى، رغم أننا شهدنا خلال الفترة الحالية، والتي يسميها البعض «فترة طفرة سوق الأسهم»، تغيرات في سلوك المواطن السعودي من خلال توجه العديد من الناس إلى الاستثمار في سوق الأسهم. وهو الأمر الذي سوف يقود الاقتصاد السعودي كله إلى آفاق استثمارية وإنتاجية أرحب، إذا ما تمت المحافظة على هذه النزعات الاستثمارية لدى المجتمع ووجهت إلى خدمة الاقتصاد.

ولذلك، لابد أن تقوم البنوك هنا، وفي هذه المرحلة الحاسمة، بالحفاظ على هذه النزعات الاستثمارية وتوجيهها التوجيه الصحيح. وأن تقوم بدورها الرئيس كوسيط ناقل للسيولة من المستثمرين الذين يشكِّلون في مجموعهم مصادر تمويل ضخمة إلى رجال الإعمال الذي يؤسسون القاعدة الإنتاجية العريضة للمجتمع.

إلا أنه من الملاحظ أن قدرات البنوك في المحافظة على هذه النزعة الاستثمارية هو دون المستويات المطلوبة. فالجاذبية الاستثمارية للبنوك لا تغري العديد من المواطنين لأمرين أساسين هما صعوبة فتح حسابات استثمارية، وضعف العوائد التي تقدمها البنوك للمستثمرين مقارنة بالأرباح العظيمة التي تحققها. ونتيجةً لهذا، ولتفريغ النزعة الاستثمارية لدى المواطنين، وجد المجتمع في بعض موظِفّي الأموال المشبوهين متنفساً وبديلاً عن البنوك.

أضف إلى ذلك أن البنوك تعتمد على الحسابات الجارية للمواطن السعودي والتي تغذيها أنظمة إيداع الرواتب (سريع)، وهي حسابات لا يمكن التعويل عليها كثيراً في مد رجال الأعمال بالتمويل اللازم. كما أن المواطن الذي يودع راتبه في البنك لا يستفيد حقيقة من عمليات البنوك التمويلية والتي تتم باستخدام مجموع حسابات المودعين، وبالتالي تقل نزعته الادخارية. لذلك، تحتاج البنوك إلى إقناع العديد من أصحاب الحسابات الجارية بالتحول إلى أنظمة الادخار والاستثمار ومشاركة البنك. ولن يتم هذا حتى تعطي هذه البنوك عوائد مجزية لأولئك الذين سوف يسلكون هذه المسارات.

تواجهنا هنا قضية أساسية وهي أن المجتمع



المحترف السعودي

الادخار التقليدي للشيخوخة باق.. أما معطياته وأنماطه فتغيرت

السعودي مجتمع ملتزم بالأسس والمبادئ الدينية التي تحرّم الربا والعوائد على المال دون مشاركة في المخاطر. إذاً فعلى البنوك تحمل مسؤولية ابتكار تلك الأساليب التي تتوافق مع الشريعة الإسلامية فيما يختص بقبول المدخرات ومشاركة الناس في العوائد.

وفي الآونة الأخيرة بدأنا نسمع ونقرأ كثيراً عن تلك الأساليب التمويلية التي تنهج المنهج الإسلامي في القروض والتمويل. ورغم الجهود المبذولة، تظل عملية استقطاب المدخرات نقطة ضعف في النظام المصرفي السعودي وقد تعيق أي تقدم حقيقي.

من المهم أن تمارس مؤسسة النقد دورها الفعّال في هذه المرحلة بالذات. فمؤسسة النقد في النظام المصرفي تمثل البنك المركزي في دول العالم المختلفة، فهي تلعب دور قائد الأوركسترا بتوجيه النظام المصرفي ككل نحو تحقيق أهداف وتطلعات خطط التنمية. لذلك نجد أنها عادةً تراقب تصرفات البنوك وتقوم بإصدار العديد من اللوائح المنظمة للعمل المصرفي ككل، ابتداءً من إجراءات فتح الحسابات إلى تعيين المراجع الخارجي للبنك ونظم الرقابة الداخلية فيه.

ولما كانت البنوك كمنشآت خاصة تهدف للربح، فإن من الصعب إقناعها أو إجبارها على القيام ببعض الأدوار التي تضر بهذه المصالح، ومن ذلك إقناعها بان تمارس لعبة صانع السوق في السوق المالية عن طريق صناديقها الاستثمارية. لذلك جاءت عبارات مؤسسة النقد في أول هذه المقالة كعبارات الناصح الأمين.

وأمام إدارة التوازن: توسع الاستهلاك على حساب الإنتاج

في أحد المؤتمرات العالمية، ذكر أحد رجالات البنوك السعودية أننا تجاوزنا الشيك المصرفي إلى بطاقات الصرف الإلكتروني والبطاقات الائتمانية. نعم حققت البنوك السعودية قفزة في هذا الجانب، ولكنها ما زالت بعيدة عن إدارة التوازن الاقتصادي. فما زالت

البنوك تضع العديد من العوائق أمام عملية الادخار وفتح الحسابات النظامية بشروط أشبه بالتعجيزية للمواطن البسيط، على الرغم من أن تكلفة إدارة الحساب قد لا تذكر أبداً.

المطلوب مشاركة البنوك للناس في العوائد وتوجيه السيولة المتاحة إلى القروض الإنتاجية

كذلك لم تزل البنوك بعيدة كل البعد عن مشاركة المجتمع في الأرباح التي تحققها من خلال ابتكار أساليب إدارة المدخرات لتضمن عوائد جيدة للمودعين. وفي المقابل، تتوسع البنوك في عملية الإقراض الاستهلاكي عن طريق التوسع في خدمة البطاقات الائتمانية والقروض الشخصية. هنا تتضح مشكلة إدارة التوازن الاقتصادي من خلال التوسع في الاستهلاك على حساب الإنتاج مما يعمق فجوة الميزان التجاري مع دول العالم.

نعم توسع الناس في القروض الاستهلاكية الموجهة وبطاقات الائتمان التي عادةً ما توفر السيولة اللازمة لشراء السيارات والعقارات ودفع الفاتورة الباهظة للسياحة الداخلية أو الخارجية. وابتكرت البنوك أساليب تمويلية ودعائية باهرة لجذب الناس من مختلف المشارب والثقافات. وبذلك ارتفعت القروض الاستهلاكية الممنوحة من البنوك التجارية لمختلف الأفراد بنحو 65.2 مليار ريال خلال عام 2005م لتستقر عند 180.5 مليار ريال بنهاية العام. أي أنها حققت معدل نموٍ سنوي بلغ 56.5 في المائة، فيما وصل مجموع القروض الاستهلاكية وقروض البطاقات الائتمانية بنهاية عام 2005م إلى 184.8 مليار ريال.

وأظهرت أحدث الإحصاءات الرسمية الصادرة من «مؤسسة النقد العربي السعودي» ارتفاع القروض الاستهلاكية من إجمالي القروض الممنوحة من البنوك التجارية خلال الفترة من 1998 إلى 2005م، من نحو 5 في المائة بنهاية عام 1998م إلى 39.9 في المائة بنهاية 2005م، بمعنى أن القروض التي يتحملها أفراد المجتمع أصبحت تمثل أربعة أعشار القروض الممنوحة من البنوك التجارية. ومع ذلك، ظل التطور في هذه الناحية محصوراً على فئة من الناس قادرة على دفع فاتورة الأقساط الشهرية.

وقد لا تلتزم كل البنوك بتعليمات مؤسسة النقد حول الإعلان عن برامج القروض الاستهلاكية من حيث بساطة الإعلان وتوضيح الفئة المستهدفة ونوعية القرض ونسبة الفائدة عليه، بشكل واضح وفي مكان بارز من البنك. كما أشارت الضوابط أيضاً إلى أن أي شرط الغرض منه أن يؤدي إلى الإجحاف بالمصالح الاقتصادية للمقترض فإنه يعتبر شرطاً غير عادل.

مصاريف المقترض.. باهظة

ومع هذا، ما زالت الدراسات تشير إلى أن المصاريف التي يتكبدها المقترض من البنوك السعودية أعلى بكثير من مثيلاتها الأجنبية، وهنا مكمن التحدي، فبعد التوقيع على اتفاقية التجارة العالمية من المتوقع أن يكون أول قطاع سيتم استهدافه من قبل الشركات العالمية هو القطاع المصرفي لعدة أسباب، من أهمها، أن عدد البنوك في المملكة لم يزل محدوداً جداً بما لا يتجاوز الأحد عشر بنكاً، ولذلك تتمكن البنوك من تحقيق أرباح احتكارية، كما أن المجتمع السعودي مجتمع استهلاكي، والدولة تتجه لدعم القطاع الصناعي، فالسوق التمويلية لم تزل رائجة جداً، ولذلك فإن المنافسة لن تكون في صالح البنوك السعودية إذا لم تعدل من سياساتها الائتمانية وتخضعها للتجربة الميدانية وبسرعة.

ويبقى الخلل إذا استمرت البنوك في عدم حفز الادخار من جهة وتوجيه المبالغ المودعة لديها لتنمية القروض الاستهلاكية من جهة أخرى. ففي النهاية لن يبقى ما ييسر لرجل الأعمال السعودي فتح مصنع أو معمل يمكنه من توظيف عدد أكبر من الناس يقومون بعمليتي الاستهلاك والادخار لتستمر الدورة الاقتصادية.
كما أن البنوك وهي تتوسع في عملية الإقراض من خلال الحسابات الجارية وليس الادخارية تعرض هذه البرامج إلى الاستنفاد على المدى الطويل. أما إذا شاركت الناس في العوائد، ووجهت الحصيلة الأكبر من سيولتها المتاحة إلى القروض الإنتاجية فإنها ستضمن -بإذن الله- تنمية مستدامة للمدخرات ومن ثم الاستهلاك والإنتاج.

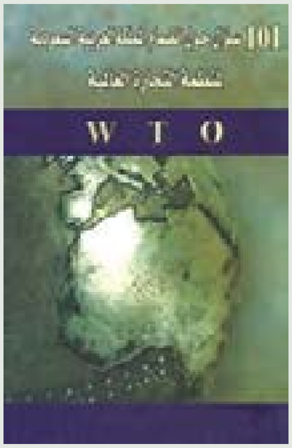
خدمات مهمة.. رغم الانتقادات

وعلى الرغم من كل هذه الانتقادات التي وجهت إلى نظم التمويل البنكية الحالية فإنها تقدم خدمات مهمة للمواطن السعودي من خلال القروض «شبه» ميسرة الدفع. وتظل البطاقة الائتمانية محل نقاش طويل حيث لم تزل دون المستويات المطلوبة من حيث عدد المواقع التي تقبلها داخلياً أو خارجياً والضمانات المقدمة عنها، مما يعيق عملية استخدامها بالشكل المطلوب. حيث تختلف البطاقات من حيث إنها بطاقات دائنة (Credit Cards) وبطاقات مدينة (Debit Cards).

وفي حالة البطاقات الائتمانية الدائنة يتم وضع حد ائتمان للعميل يُعاد تقييمه من وقت لآخر، ويحق للعميل الشراء أو السحب النقدي حسب المبلغ المحدد للبطاقة. وبالنسبة للبطاقة المدينة فإنها مرتبطة بالحساب الجاري بحيث يتم قيد المبلغ المسحوب نقداً أو قيمة المشتريات على الرصيد الدائن لصاحب الحساب. وتنوّع البنوك من مستويات هذه البطاقات فتسمى بالبطاقات الفضية والذهبية وبطاقات الأعمال والبطاقات الإلكترونية. وهي تختلف بالطبع في التسهيلات الممنوحة لها، إلا أن نسب المواطنين الذين يستخدمون هذه البطاقات لا تزال أقل مما هو متوقع، ويعود ذلك إلى الشروط الصعبة للبنوك في بعض الأحيان، وأيضاً إلى قلة نقاط استخدامها والتي لا توجد إلا في المدن والمحلات الكبرى.

وفي العصر الحالي، فإننا ندخل بقوة وسرعة إلى عالم الميتامارکت (Meta-Markets) والذي من خلاله تتم عملية البيع والشراء من خلال شبكة الإنترنت العالمية، ولكن البنوك السعودية بعيدة عن تطوير أدواتها لتواكب هذه التطورات. وقريباً، لن يكون القوي هو من يأكل الضعيف إنما سيكون السريع هو من يأكل البطيء. وسوف تفتح المملكة أبوابها لصنّاع المال من خلال اتفاقية التجارة العالمية وهنا مكمن التحدي الكبير، حيث لا بد أن تقدم البنوك خدمات عديدة من خلال الإنترنت وتقدم بطاقات ائتمانية للدفع عن طريق الإنترنت، وتتوسع في هذا الجانب بشكل أكبر، لتستطيع أن تنافس، وتحصل على الثبات.

اقرأ للاقتصاد



أسئلة وأجوبة حول الانضمام

«101 سؤال حول انضمام المملكة العربية السعودية لمنظمة التجارة العالمية» هو عنوان كتاب صدر مؤخراً من تأليف محمد سعدو الجرف وتوزيع دار الخزامى للنشر والتوزيع الرياض.

يتناول هذا الكتاب الذي يقع في 280 صفحة عدداً من الموضوعات والقضايا التي تتعلق بانضمام المملكة إلى منظمة التجارة العالمية ويسهم في تسليط الضوء على المكاسب والآثار والنتائج التي تترتب على هذه الخطوة التي خطتها المملكة في حقبة مهمة أصبح فيها العالم قرية كونية في شتى المجالات الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية، التنموية، الثقافية. وهو محاولة جادة يجد فيها القارئ ضالته والمعلومة التي يبحث عنها.

ويحتوي الكتاب على قسمين رئيسين إضافة إلى الملحقات. يتناول القسم الأول تعريفاً عاماً بمنظمة التجارة العالمية وأهدافها وآليات الانضمام إليها وعملها والانعكاسات الإيجابية والسلبية المتوقعة من الانضمام إليها. وفي حين أن القسم الثاني متخصص بأكمله للأسئلة المختلفة التي يثيرها انضمام المملكة إلى المنظمة على صعيد كافة القطاعات الحكومية والخاصة بدءاً بقطاع البترول ومشتقاته وصولاً إلى الإعلام والجمارك والملكية الفكرية والزكاة والضريبة والدخل، وغير ذلك من المجالات التي كانت ولا تزال مصدر تساؤلات لغير المطّلعين.

أما الملاحق فهي ثلاثة: عضوية المملكة في الجات، المملكة والملكية الفكرية، وتجارة الخدمات وآثارها المتوقعة في الاقتصاد السعودي.

يوماً بعد يوم تزداد تكنولوجيا المعلومات تعقيداً، حتى أن انتفاع الكثيرين من مستخدميها لم يعد يتجاوز نسبة مئوية ضئيلة من الإمكانات التي توفرها.

المهندس أشرف إحسان فقيه* يتناول مسألة التعقيدات التكنولوجية التي وصلت إلى مستوى أيقظ المبتكرين على وجوب التبسيط تسهيلاً للانتفاع حيث إن البساطة -الظاهرية على الأقل- صارت اليوم قيمة أساسية لا غنى عنها لضمان نجاح المنتج بغض النظر عن تعقيداته الضمنية.

البساطة..

القيمة المفقودة لعصر التكنولوجيا

«متلازمة الصفر الومّاض» أو (The Flashing-Zero Syndrome) ليس اسماً لخلل ميكانيكي مخيف ولا تشخيصاً لداء بشري عضال. إنه ببساطة مسمى أُطلق للتعبير عن حالة الرهاب التكنولوجي التي تزامنت مع انتشار السلع التقنية خلال سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي.

خلال تلك الفترة كانت الأجهزة الإلكترونية -كأجهزة تشغيل أشرطة الفيديو مثلاً- مزوَّدة بساعات رقمية مضبوطة أوتوماتيكياً على الوقت 00:00. وكان المطلوب من مشتري الجهاز أن يضبط بنفسه تلك الأرقام الومَّاضة كي يستفيد من قراءتها للوقت. الظاهرة تمثلت في أن الأغلبية لم تهتم لأمر ضبط تلك الأصفار التي استمرت تومض بلا توقف لأن المستخدم العادي.. ببساطة.. لم يعرف كيف يفعل ذلك!

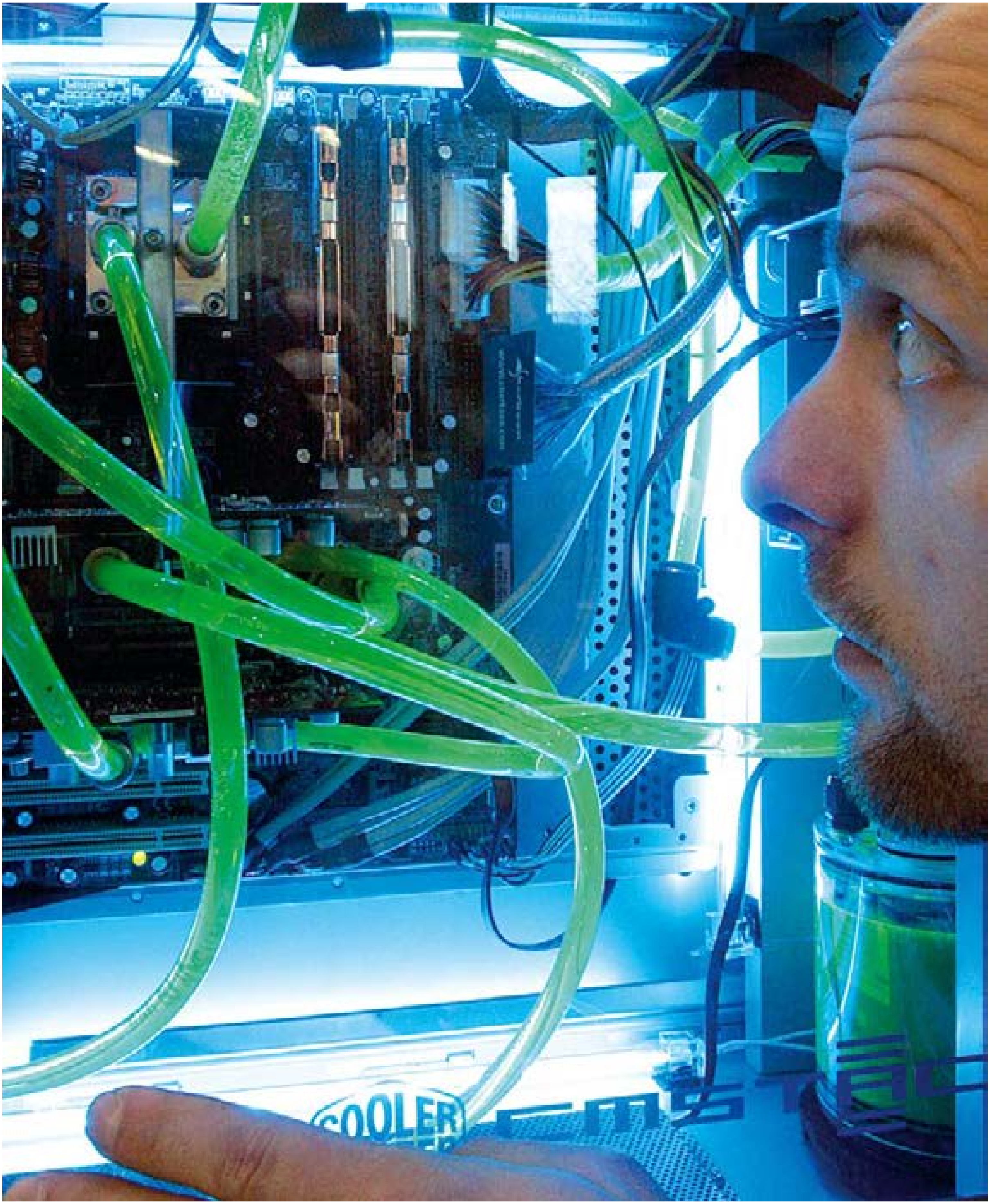
هل تكره الكمبيوتر؟ أهلاً بك في النادي!

الآن وخلال العقد الأول للقرن الحادي والعشرين، فإن الانتشار الطاغي لتكنولوجيا المعلوماتية لم يزد الحال إلا سوءاً. والتذمر من الصعوبة المتزايدة في التعامل مع الأدوات و «الألعاب» التقنية التي تفرض ذاتها على حياتنا ليس حكراً على رجل الشارع ولا المستخدم العادي. نكتة الزبون الذي

* محاضر بقسم علوم الحاسب الآلي والمعلومات في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن.

اتصل بمركز الصيانة ليشكو من تعطل «حامل القهوة» في حاسوبه.. والذي لم يكن سوى محرك الأسطوانات المدمجة(!!) باتت تُعبّر بمصداقية متزايدة عن حال مجموعة متزايدة حتى من الفنيين والمهندسين المعتادين على التعقيد بحكم تخصصاتهم.

خذوا مثلاً جون مايدا الحاصل على درجة الماجيستير في علوم الحاسب الآلي، ثم الدكتوراة في تصميم واجهات الاستخدام الحاسوبية (Interfaces). مايدا هو كذلك مصمم رسوميات رقمية ذو صيت عالمي ويشغل حالياً منصباً في مختبر الوسائط التابع لمعهد ماساتشوستس للتقنية (MIT) العتيد. هذا الرجل ذو السيرة الذاتية المغرقة في الرقمية يعرّف بنفسه ببساطة بأنه «عدو للحاسوب»! ومبرره في هذا التعبير الصادم هو أن لا شيء يلمسه يعمل.. فهو أيضاً يعاني الأمرين عند محاولته ربط الطابعة أو الكاميرا الرقمية بحاسوبه عبر وصلة USB عادية. هو أيضاً معقّد من رسائل التحذير الآلية التي تبرز له بغتة على الشاشة لتفسد يومه. وهو أيضاً يشكو من ضياع وقته وجهده في محاولة ترقيع الثقوب الموجودة في برامج مايكروسوفت ونظم تشغيلها التي تقبع داخل أكثر من 90 في المئة من الحواسيب الشخصية حول العالم. ويتساءل مايدا عن مبرر استمرار مثل هذه الشركات في الوجود إذا كان مطلوباً منه وهو المستخدم



Reuters

نظرة ضائعة إلى تعقيدات التكنولوجيا

العادي أن يتحمل مسؤولية تنزيل برامج التحديث ومحاربة الفيروسات.. وتحمل تبعات انهيار نظام التشغيل في حال وقع خلل برمجي هنا أو هناك.

إذا كان اختصاصيون مثل مايدا يعانون مع تكنولوجيا اليوم.. فليس من قبيل المبالغة أن نعتبر أن البشرية تواجه بوادر كارثة تقنية. والواقع أن هذا التعبير بالذات يلقى قبولاً ليس من شريحة عريضة من الزبائن غير الراضين وحسب، وإنما بين الكثيرين من المسؤولين داخل الشركات التي تقود مسيرة الاستهلاك التقني مثل «مايكروسوفت» و «صن» و «آي بي ام».

يصر مايدا ورفاقه على أن الأزمة في النهاية هي أزمة بساطة. وقد أطلقوا مبادرة اسمها (Simplicity) تهدف لتعزيز قيم التكنولوجيا «الأكثر إنسانية». فالبشر في نهاية المطاف هم المعنيون بالمنتج التقني، وهم كائنات غير ميكانيكية ولا رقمية.. وربما كانت هذه هي الجزئية التي فاتت أولئك الذين أطلقوا الثورة التقنية.

تعقيدات الكمبيوتر تشبه كل التعقيدات الأخرى. والحل هو في إخفائها عن المستخدم

«التقنية» مرادف «التعقيد»

لكن ما هي أسباب هذه النقمة التي تجتاح العالم حيال المظاهر التقنية. أليس المفترض بالتكنولوجيا أن تسهِّل حياتنا وتجعلها أكثر رفاهية؟ لماذا يتفق الخبراء والمستخدمون العاديون إذن على أن وسائل التقنية الحديثة من حواسيب وبرمجيات وهواتف جوالة وأطباق لاقطة ووصلات (بلوتوث).. لم تزد حياتهم إلا تعقيداً في نهاية الأمر؟!

الواقع أن القضية ليست حكراً على عصر الإنترنت. وهي ترجع بجذورها إلى ما قبل اختراع مسجل (الفيديو) بكثير أيضاً. القاعدة المُحزنة تنص على أن كل اختراع تقني متقدم جلب معه نوعاً من الصدمة، واستلزم من البشرية مرحلة انتقالية امتدت عبر جيل (نحو 30 سنة) قبل أن يتم تقبل هذا الاختراع واستيعاب استخداماته على نحو كامل.

الأمر كان كذلك بالنسبة للسيارة الأولى التي انطلقت في أوائل القرن العشرين. السائق الأول كان مطلوباً منه أن يكون ملماً بكامل ميكانيكا نقل الحركة وأن يقوم يدوياً بضبط السوائل ومستوى الضغط داخل الماكينة والصمامات عدة مرات خلال الرحلة الواحدة. ماكينة الخياطة الأولى كانت تباع مرفقة بدليل من 40 صفحة لضمان استخدام آمن وسليم لها. وقبل اختراع شبكات الربط الكهربائي في المدن فإن الشركات كانت تنشئ إدارات فنية خاصة وتنصّب عليها نواباً للرؤساء وظيفتهم الوحيدة هي التفرغ التام لهذا الاختراع ذي السر العويص المسؤول عن تزويد المنشأة بالتيار الكهربي.. الوضع كان كابوسياً داخل المنازل المتمتعة بنعمة المولدات بطبيعة الحال!

الذي حصل لاحقاً مع السيارة وماكينة الخياطة والمولد الكهربائي كان تطوراً هندسياً بديهياً. ففي النسخ المتعاقبة لكل هذه الابتكارات وسواها، تم إخفاء التفاصيل عن المستخدم. السيارة باتت أكثر (أوتوماتيكية) وباتت الخبرة الأساسية اللازمة لتسييرها مختصرة في إدارة المقود والضغط على الدواسات. شبكة الربط الكهربي نقلت كامل العبء إلى شركة الكهرباء واختصرت علاقتنا بالخدمة الكهربائية إلى أدنى مستوى ممكن: مجرد تثبيت القابس الكهربي إلى فتحة بالجدار.

هذا الاختزال لعملية التواصل بين الفرد البشري والآلة هو ما يطلق عليه المصممون اسم (واجهة المستخدم — User Interface). على سبيل المثال فواجهة المستخدم الرسومية Graphical User Interface سهّلت كثيراً استخدام نظام تشغيل الحاسب كما نشاهد في برمجيات آبل ومايكروسوفت، بينما كان المستخدم العادي قبلها مطالباً بالتعامل مع أحاجي لغات البرمجة وأوامر التشغيل. واجهات الاستخدام في نظم ربط الكهرباء والصرف الصحي في المدن سهّلت علينا استخدام مرافقها من دون أن نهتم بالتفاصيل أياً كانت.

المشكلة في هذا النمط الهندسي تتمثل في أن المزيد من تبسيط واجهات الاستخدام سيستدعي بالضرورة المزيد من التعقيد في المراحل الداخلية للتصميم. سياراتنا مثلاً أضحت اليوم عبارة عن حواسيب متنقلة على عجلات. فمكوناتها الداخلية تحتوي على العشرات من الرقائق الإلكترونية والمستشعرات (Sensors). والحال هو كذلك بالنسبة لبرمجيات الحاسوب والهواتف النقالة وسواها من مظاهر التقنية المحملة بالعديد من الأسرار والوظائف التي قد لا نحتاج إليها كلها، لكننا عالقون معها.

أين هم المهندسون كي نلومهم؟!

تشير استطلاعات شركة مايكروسوفت إلى أن مستخدمي برنامجها لمعالجة النصوص (Word) لا يستغلون أكثر من 10 في المئة من الإمكانات الحقيقية لهذا البرنامج. وهي نسبة مقاربة لما يستغله أحدنا فعلاً من كامل إمكانات عقله البشري!

إحدى مظاهر الإشكال الحقيقية في تطبيقات اليوم التكنولوجية هي في وجود حلقة كبيرة مفقودة بين المصممين والمستهلكين العاديين. لذا فالمنتجات التقنية من برامج وعتاد غالباً ما تكون متقدمة أكثر من اللازم ومتخمة بمزايا وإمكانات تفوق قدرات المستخدم البسيط على فهمها فضلاً عن التعامل معها.

في الشركات المعنية بالتقنية، غالباً ما يسود انطباع بأن المهندسين هم الأطفال المدللون لأن نجاحات الشركة

مقترنة بنجاحهم هم في الابتكار. واقع السوق يقول غير ذلك. فالمسؤول الحقيقي عن نجاح أي منتج هو إدارة التسويق بالشركة -والعاملون بالتسويق للمفارقة يعانون الكثير من الضيم في شركات التقنية بالذات-. لكن حين يفشل منتج ما، فإن أول من تتدحرج رؤوسهم وقت الحساب هم المهندسون والمصممون.. وهذه قاعدة يعيها المديرون التنفيذيون في الشركات الكبرى جيداً!

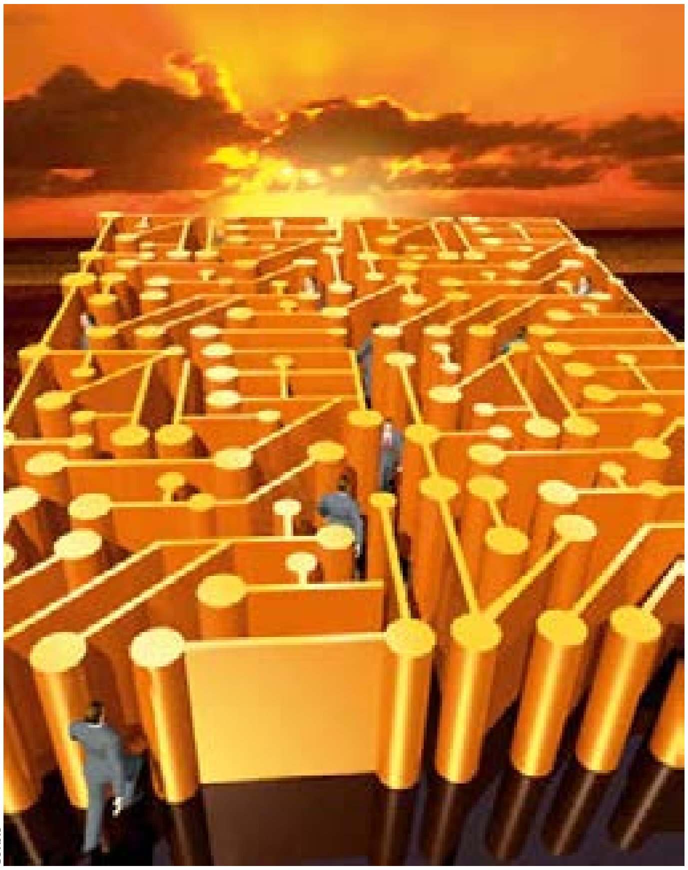
للوهلة الأولى إذن يبدو الحل جاهزاً: الشروع في إعادة تأهيل المهندسين ليفكروا بأسلوب أبسط عند تصميم مبتكراتهم. لكن المشكلة الكبرى اللاحقة كما يقررها بعض مديري شركات التقنية الكبرى هي أن من يقوم بوضع تصاميم التقنيات المبتكرة ليسوا دوماً مهندسين ولا فنانين. هم في الواقع مهووسون وعباقرة تقنيون لكن انطوائيين وعلى درجة كبيرة من الفشل الاجتماعي. الثقافة الأمريكية أسبغت على هذه الشريحة ألقاباً على شاكلة «Nerds» و«Geeks». والتاريخ حافل بأمثلتهم التي نجحت وتطورت لتشكِّل علامات فارقة في المسيرة التقنية من أمثال بيل غايتس وستيف جوبز وحتى توماس ألفا إديسون.

> **المبتكرون المنعزلون ينتجون ابتكارات منعزلة، ولو أخذت ميكروسوفت بنصيحة والدة الرئيس لكان الأمر أفضل**

والمسألة ليست مجرد طرفة عابرة بل هي واقع مرير صعب التغيير. فالموائل التي يبدع منها هؤلاء سواء داخل الجامعات الشهيرة أو مواقع الإبداع العالمية كوادي السليكون في كاليفورنيا أو مختبرات CERN الأوروبية ليست سوى شرانق لهؤلاء المبدعين. إنهم لا يختلطون بسواهم ولا يتناقشون إلا مع بعضهم ليتبادلو نفس المستوى من الحوار والأفكار مما يجعلهم فعلاً كالمرتفعين عن باقي العالم الواقعي في برج عاجي. والابتكارات الناتجة عن عقليات كهذه لابد وأن تكون معزولة وبعيدة عن نمط الحياة اليومي لباقي البشر.

واحدة من الأزمات الحقيقية التي يعانيها المشتغلون بالهم التقني هي في كون معظمهم من الرجال. مما يعني انعزالهم بالكلية عن السيدات وطريقة تفكيرهن واستخدامهن للمنتج ما يعني تجاهلاً كاملاً -وإن كان غير متعمد- لنصف سوق المستهلكين في العالم! فللتقرب من نمط التفكير الأنثوي.. وللتحقق في الوقت نفسه من بساطة المنتج يلجأ بعض المصممين لما يسمى بـ «اختبار الأم». يقول أحدهم «اعرف أن لأي منتج تقني مستقبلاً.. إذا كانت والدتي ستستخدمه».

ستيف بالمر رئيس شركة مايكروسوفت نفّذ «اختبار الأم» مثلاً مع والدته قبل إطلاق نظام التشغيل «Windows 95». بعد أن قامت بالتنقل بين وظائف البرنامج تساءلت


Corbis

السيدة بالمر: كيف تقوم بإقفاله؟ فأشار لها ابنها لزر (ابدأ – Start) العتيد، لتتساءل الأم: «تضغط على «ابدأ» كي تنتهي؟!».. وهي الملاحظة التي لم تستجب لها (مايكروسوفت) حتى الآن مع الأسف!

التقنية وإعادة اختراع العجلة

المتفائلون في قطاع التطوير التقني يتداولون طرفة مفادها أن أكبر نجاحات تقنية في عالم اليوم أبطالها عجلة، وصفحة بيضاء. العجلة هي عجلة التحكم في جهاز «iPod» الأسطوري من شركة آبل. والصفحة البيضاء هي صفحة البداية لموقع محرك البحث غوغل. ووجه النجاح في المنتَجَين يعبّر عنه المقدار الكبير من البساطة الذي يغلف واجهتهما مقابل مستوى التعقيد العالي المخبأ خلفهما والذي لم يتم توريط المستخدم في أي من جزئياته. وبطبيعة الحال فإن نجاح المنتَجَين يرجعان كذلك إلى توقد عقول مؤسسي الشركتين الذين نتناول سيرهم في الصفحات التالية.

يمتاز موقع غوغل من جهته بخوارزم نظام بحث هو الأفضل بين جميع منافسيه. لكن ما يراه ملايين المستخدمين حول العالم ليس المائة ألف جهاز خادم (Server) التي يعتمد عليها هذا المحرك ولا التصميم المعقد لشبكته. كل التعامل يتم عبر صفحة بيضاء مزوَّدة بشعار الشركة ومربع بحث أنيق مع مجموعة محدودة من الكلمات هنا وهناك. لا إعلانات ولا

زحام صور ورسومات مشتتة للانتباه. هذا في رأي الكثيرين يمثل مبرر قوة وشعبية غوغل الأساس.

يقال إنه في أيام غوغل الأولى كان فريق تطوير الموقع يتلقى رسائل إلكترونية من مرسل مجهول. كل محتوى الرسالة لم يكن سوى الرقم 53. هذه الرسائل كانت تنقطع لفترات قبل أن تتوالى من دون معرفة معناها والسر خلف الرقم 53. اتضح بعد ذلك أن المرسل المجهول كان مقتنعاً بأن عدد الكلمات في صفحة غوغل البيضاء يجب ألا يزيد على 53 كلمة وحسب. وكان يرسل بالرسائل التذكيرية كلما تم تجاوز هذا الرقم. على كل فعدد الكلمات في صفحة غوغل الرئيسة اليوم لا يتجاوز حتى الأربعين.

من ناحيتها، فإن «آبل» والتي تمثّل عملاقاً آخر في فن التصميم، ضمنت لنفسها مكانة تاريخية في عالم التسويق عبر جهاز «iPod» لتشغيل ملفات الموسيقى والفيديو وتخزين البيانات الرقمية. يثبت واقع السوق وجود مئات الأجهزة التي تقوم بالوظيفة ذاتها. إن ما يميز iPod في النهاية هو المقدار الكبير من البساطة الذي يتسم به تصميم الجهاز وطريقة تشغيله. كل شيء من اختيار الملف المراد تشغيله إلى التحكم في درجة الصوت وسرعة التشغيل وضبط الإعدادات يتم عبر عجلة صغيرة تتوسط الجهاز. وعمل العجلة مرهون بسرعة ومستوى حساسية إبهام المشغل. هذا الربط المباشر بين الوظيفة الجسدية والفاعلية التقنية هو سر نجاح «آبل» ليس مع «iPod» فقط ولكن عبر تاريخها كله. لنتذكر أن هذه الشركة هي التي قدمت الحاسوب الشخصي وواجهة الاستخدام الرسومية ومبدأ التعامل مع محتويات الحاسوب كملفات ومجلدات Files and Folders والتخلص منها في سلة مهملات افتراضية. «آبل» هي التي جاءت أصلاً بفكرة النوافذ «Windows» التي تعتاش شركات أخرى اليوم على أمجادها.

بغض النظر عن المستوى العلمي للمستخدم فإن تقديم خدمة أفضل يبدأ بسؤال: ماذا نريد من التقنية؟

نحن والحاسوب وأرضية تفاهم مشتركة!

ما يقوم به المصممون في كل من غوغل و «آبل» وغيرها من الشركات المنتجة للتطبيقات الشعبية الناجحة ليس سوى تطبيقاً لأصول علم بالغ الأهمية ربما يحمل مفتاح الخروج من الأزمة التقنية التي نعيشها مع الآلة. ذلك هو علم التفاعل ما بين الإنسان والحاسوب (Human-Computer Interaction). هذا العلم هو نتاج تزاوج بين علوم الحاسب الآلي ومجموعة أخرى متنوعة من المعارف تشمل الفلسفة وأسس التصميم والتفاعل البيئي وعلوم النفس والاجتماع والذكاء الاصطناعي وسواها. والغرض الأساسي من تخصص كهذا هو صنع منتجات متلائمة مع الطبيعة البشرية ومؤدية للغرض البشري.

لكن المسألة ليست بهذه البساطة كما يؤكد الخبراء وكما يثبت الواقع. فما نريده من التكنولوجيا قد لا يكون واضحاً دوماً. في أحيانٍ كثيرة فإننا نفكر بالحاسوب كمخلوق خرافي يفترض به أن يقرأ أفكارنا وينفّذها! ومرد جزء كبير في سوء التفاهم بيننا وبين الآلة هو الشق البشري في الأزمة. والحقيقة أن الانهمار المتتابع للتطبيقات التقنية المتطورة منذ ابتكار الدارة المتكاملة «Integrated Cercuit» قبل نحو ثلاثة عقود وحتى سيادة الإنترنت قبل سنوات عشر قد أدى إلى ظهور أجيال تقنية متفاوتة الانتماء، متعايشة مع بعضها البعض من دون تواصل حقيقي. هناك جيل مواليد ما بعد الحرب العالمية الثانية الذين يكرهون التقنية الحديثة بالسليقة. هناك الجيل الذي لا يزال يعيش على تراث الحاسبات المركزية «Main Frames» ويناضل ليدخل في أجواء الجوالات والرسائل القصيرة وما في حكمها. وهناك جيل التكنولوجيا الصرف الذي لا يعجبه شيء مما يوجد في الأسواق ويسعى دوماً نحو المزيد من التقنية المتقدمة. إن وجود هذه التشكيلة من المستهلكين في الأسواق الغربية يسبب إرباكاً متزايداً لمطوري التقنيات وبالذات لأولئك المهتمين بتطبيق قواعد التصميم التفاعلي منهم.

بطبيعة الحال فالوضع مختلف تماماً في العالم الثالث الذي يضم البلدان العربية. هنا أمية القراءة والكتابة تشكّل معضلة أولى. وهي تنعكس بدورها على المحتوى العربي على الإنترنت الذي لا يشكّل أكثر من 1 في المئة من الحجم العالمي. التخلف التقني العربي مرده كذلك ضعف البنى التحتية والثقافة المعلوماتية العربية وتفشي نظم الرقابة. والكلام عن «الرهاب التقني» أو الخوف من الآلة الوارد أعلاه يتضاعف ويزيد مرارة بالنسبة للحالة العربية التي تحكم تعاملها مع المظهر التقني استحقاقات حضارية ونفسية كثيرة. لكن وبغض النظر عن موقعنا من الخارطة يظل السؤال هو ذاته: ماذا نريد من التقنية؟ لأن الإجابة عن سؤال كهذا قد ترسم لنا وجه المرحلة القادمة من الزمن التقني، وقد تشرح لجيوش المصممين والمهندسين والتنفيذيين في قطاعات شركات التكنولوجيا كيف يقدمون خدمة أفضل لزبائن يجهل الكثير منهم أبسط معالم التقنية.

هل نعرف بالضبط ماذا نريد من التقنية؟ وهل تشكّل الآليات التقنية مسلمات حقيقية في حياتنا اليوم؟ أسئلة حقيقية تعود بنا إلى المربع الأول لكنها ليست وليدة الفراغ. فالاستفسار الأول الذي يطرحه موظفو خدمات العملاء في شركات الإنترنت الأمريكية على الزبائن المتذمرين من مستوى خدمة الإنترنت هو: هل تملك حاسوباً؟ والجواب المفاجيء الذي أحياناً كثيرة ما يأتي.. يكون بالنفي!

«غوغل» و «أبل» أبطال البساطة الناجحة

حكاية غوغل أولاً

يعود أصل كلمة غوغل (Google) إلى المصطلح الرياضي «Googol» الذي ظهر للتعريف بالرقم الهائل الذي يعبر عنه الواحد متبوعاً بمائة صفر، في إشارة إلى الروح التي تُسيّر فريق تطوير محرك البحث الأشهر، والساعية إلى الغوص في أعماق بيانات الإنترنت والتنقيب خلالها مهما كان عدد صفحاتها.

بدأت فكرة غوغل في ذهنيّ طالبي دراسات عليا بجامعة ستانفورد، هما سيرغي برين ولورنس بايج، اللذان كانا في منتصف عقديهما الثاني وقتها، وتزامنت مع ذروة حمى شركات الإنترنت التي اجتاحت العالم تسعينيات القرن الماضي.

كانت بعض أهم الموضوعات البحثية الرائجة آنذاك -ولم تزل- متعلقة بالبحث عن المعلومات المترابطة المبعثرة ضمن قواعد البيانات الهائلة كالشبكة النسيجية. فركَّز الشابان جهودهما عام 1996م على تطوير خوارزم (خطوات حل) مبتكر لبرنامج للبحث عبر الروابط على الانترنت سمياه «Back Rub». وسرعان ما حقق مشروعهما البحثي الوليد نتائج مبهرة أكسبته صيتاً ودفعت بالشابين إلى إنفاق جُلّ أموالهما بدايات عام 1998م لشراء وسائط تخزين بسعة ألف ميغا بايت، قاما بربطها مع ما تسنّى لهما استعارته من حواسيب في غرفة بايج بسكن الطلاب، لتكون النواة الأولى للمرحلة التالية من مشروع غوغل الوليد.

وبالرغم من الحماسة لتقنية المعلوماتية التي اجتاحت أسواق العالم في ذلك الوقت، فإن محاولات الشابين للحصول على تمويل الشركات لمشروعهما الطلابي لم تلق تجاوباً كبيراً حتى من صديقهما دافيد فيلو الذي أسس صرح دوت-كوم آخر هو «ياهو» (Yahoo)، والذي وعدهما بإعادة النظر في فكرة مشاركتهما إذا ما وقف المشروع على قدميه! ومع اقتناع برين وبايج بثورية فكرتهما وبأنها ستتفوق على جميع التقنيات الموجودة، فقد قاما بإيقاف برامج دراستهما للدكتوراة وقررا التفرغ كلياً للتسويق تجارياً لفكرة محرك البحث.

كان أول الفرج عبر أحد أساتذتهما الذي قدمهما لأحد مؤسسي شركة «صن» (Sun) العملاقة، والذي اطلّع على مخططاتهما ثم وقّع لهما على عجالة شيكاً بمبلغ مائة ألف دولار باسم شركة غوغل المحدودة. ولما لم تكن ثمة شركة قد خرجت لحيز الوجود بعد، فقد تأجل صرف الشيك لحين اقترض الاثنان المزيد من الأموال التي أتاحت لهما قانونياً تأسيس شركة بذاك بالاسم في السابع من سبتمبر عام 1998م ومقرها مرآب سيارات أحد الأصدقاء.

الباقي في قصة النجاح تلك تكفلت به برامج وعتاد منظومة غوغل التي حققت نجاحاً استثنائياً نما عن عبقرية مصمميها في الحصول على نتائج البحث وتسجيل المواقع على الإنترنت والروابط بينها بسرعة وكفاءة لم يسبق لهما مثيل. وقد صنع غوغل لنفسه سمعة باهرة خلال زمن قياسي مع تلقيه لأكثر من ألف طلب بحث خلال الفترة الأولى من تدشين نسخته التجريبية «بيتا». ولم يكد العام ينتهي حتى كانت وسائل الإعلام تتحدث عنه، وتم تصنيفه كأحد أفضل مائة محرك بحث على الإنترنت.

وفي أوائل العام 1999م انتقلت غوغل إلى مقر جديد في مبنى مستأجر، وبدأ مؤسسوها في تعيين موظفين جدد



سيرغي برين ولورنس بايج

في الصرح الوليد الذي بات موقعه يستقبل نصف مليون طلب بحث يومياً. ولم يكد العام ينتصف حتى حصلت غوغل على ثقة بعض كبريات شركات المعلوماتية، وتم دعمها بمبالغ وصلت إلى خمسة وعشرين مليون دولار. ومع اعتماد عملاق الإعلام الأمريكي (AOL) على غوغل كمحرك بحثها الرئيس، قفز عدد طلبات البحث اليومية إلى ثلاثة ملايين. مع نهاية 1999م صُنفت غوغل من قبل مجلة «PC Magazine» كواحدة من أهم 10 شركات تقنية الإنترنت في البلاد، وما عادت نسخة البرنامج تجريبية، وانتقلت الشركة إلى مبنى جديد خاص بها، كل ذلك خلال عام واحد من تأسيسها.

ينظر إلى غوغل اليوم كأفضل محركات البحث وأعظمها شعبية على الإطلاق بفضل هيكلية نظامه المبتكرة. وهو يقدم خدماته بعدد من اللغات من ضمنها العربية، على نحو مجاني ضمن بحر من صفحات الإنترنت وصل حتى لحظة كتابة هذه السطور إلى أكثر من ثمانية مليارات ولا يزال في ازدياد. وتوسع نشاط غوغل عبر السنين ليغطي ما هو أكثر من البحث عن النصوص، وليشمل مداه الصور مطلقاً ثورة البحث وفق نوع الملف التي تبنته محركات بحث أقدم منه باتت تعتمد تقنياته الآن مثل «ياهو» على سبيل المثال. كما قدمت شركة غوغل عبر موقعها الخدمات الإخبارية والبحث ضمن المنتجات التجارية تحت الاسم (Froogle) عام 2002م. واقتحمت مجال النشر عبر الإنترنت والتسويق عبر شراكتها مع (Blogger) عام 2003م، بالإضافة إلى توفيرها خدمة البحث في البحوث العلمية على الإنترنت عبر «Google Scholar». في ربيع العام الماضي أعلنت الشركة عن خدمة بريد إلكتروني ثورية (Gmail)، ذات سعات تخزين غير مسبوقة، ومبنية على تقديم خدمات البحث عبر محتوى البريد الإلكتروني. مما أثار لغطاً حول مدى التزام هذه الخدمة بخصوصية مستخدمي البريد، لكنه عزز من مكانة غوغل كشركة رائدة في تقديم الخدمات المبتكرة عبر الإنترنت.

وتتمثل صيحات غوغل الأحدث في خدمة البحث عن مواقع المحال التجارية والخدمات ضمن نطاق جغرافي معين، الترجمة الفورية وتوافر الخرائط كل ذلك عبر موقعها ذي الواجهة المحببة بالغة البساطة. ولأن الشركة بدأت كحلم طموح فإنها اليوم تسعى عبر مختبراتها لتبني الأفكار الجذَّابة في مجال الإنترنت، وهي تقدم جائزة مقدارها 10 آلاف دولار لأفضل مشروع في هذا الصدد. ولا يبدو أن شيئاً يحد من طموح المهندسين الشابين اللذين أصبحا مالكين لشركة تتداول أسهمها اليوم في سوق المال العالمية، وتخطط لافتتاح مقر لها على سطح القمر بحلول العام 2007م كما أعلنت في موقعها في إبريل الماضي!

وحكاية «آبل»

أما ستيف بول جوبز، فقد وُلد لأستاذ علوم سياسية سوري اسمه عبد الفتاح جندلي وأم أمريكية هي جوان سيمبسون، ليتبنّاه الزوجان بول وكلارا جوبز مباشرة بعد ولادته. قبل تخرجه من المدرسة الثانوية عام 1972م، قضى جوبز عدة أشهر صيف متدرباً لدى شركة «هيولت-باكرد» حيث التقى صديقه ستيفن ووزنياك الذي سيكون له معه شأن. ثم ترك التعليم الجامعي بعد فصل دراسي يتيم.

عُين جوبز في التاسعة عشرة كتقني بشركة «أتاري» الصاعدة حينها حيث عمل مع رفيقه ووزنياك على تطوير مهارتهما في تصميم اللوحات الإلكترونية. وفي عام 1976م قررا ركوب الموجة وإنشاء شركتهما الخاصة التي سمياها «التفاحة» (Apple) تيمناً بالتفاحة التي سقطت على رأس (إسحاق نيوتن).. ولم يجدا لها مقراً سوى مرآب السيارات بمنزل عائلة جوبز.

كانت باكورة إنشاء الشركة الوليدة هي اللوحة الرئيسة (Mother Board) للجهاز «آبل - 1» ثم أتبع عام 1977م بـ «آبل - 2» والذي حقق نجاحاً تجارياً مدوياً وضع آبل كلاعب أساس في سوق الحواسيب الشخصية الواعدة حينها. ومع النمو المضطرد للشركة بدأ مؤسساها البحث عام 1983م عمّن يديرها كما يجدر بالشركات الكبرى. فكان رئيس شركة «بيبسي-كولا» جون سكُلي الذي ترفّع بدءاً عن المنصب قبل أن يرضخ لتحدي جوبز بسؤاله الشهير: «أتريد أن تقضي بقية حياتك في بيع المياه المحلاة؟ أم تريد الفرصة لتغيير التاريخ؟».

أطلقت الشركة بإدارتها الجديدة جهاز «ماكنتوش» (Macintosh) عام 1984م كأول حاسوب شخصي


ستيف بول جوبز

يستخدم واجهة المستخدم الرسومية عوضاً عن نمط أسطر الأوامر النصية. وهو الأسلوب الذي اتبعته برامج التشغيل الأكثر شعبية بعد ذلك بما فيها «ويندوز» و «يونيكس». لكن أيام جوبز الذهبية مع «آبل» انقطعت حين تم تجريده من سلطاته عام 1985م إثر خلافات في إدارة الشركة ومشكلات شخصية سببها اعتناقه للديانة البوذية. ليؤسس شركته التالية تحت مسمى (NeXT) والتي وإن لم تحظ بسمعة تجارية عريضة، إلا أنها قدمت للوسطين البحثي والأكاديمي أجهزة ذات تقنية بالغة التقدم عدها الكثيرون سابقة لزمانها. ويشير أنصار الشركة إلى أن البريطاني، تم برنارز-لي، قد كتب أول تطبيقات الشبكة النسيجية العالمية WWW لمختبرات CERN على واحدة من أجهزتهم.

اضطر جوبز للتحالف مع غريمته «Sun» عام 1993م لمواجهة ضغوطات السوق. إلا أن طوق النجاة ظهر بشكل مفاجئ حين تلقت «نيكست» عرض شراء من «آبل» عام 1996م ليجد جوبز نفسه في بيته القديم، ورئيساً مؤقتاً للشركة التي كانت تعاني من أزمة إدارية خانقة. على الفور بدأ جوبز بإجراء سلسلة من التغييرات المؤلمة التي شملت إلغاء عدد من المشروعات غير المثمرة وتسريح عدد من الموظفين. ثم قام بتبني التقنيات التي طورها في نيكست ليقدم للسوق عاماً بعد عام عدداً من المنتجات ذات الشعبية الساحقة التي أعادت الوهج لـ آبل كشركة ناجحة وعرّفت المستهلك بقيم معلوماتية جديدة كميزة تتفرد بها «آبل».

شملت لائحة المنتجات التي صعدت بالشركة إلى القمة تحت قيادة جوبز الحاسوب «iMac» الحاسم في نشر ثقافة الإنترنت، وجهاز التخزين الرقمي «iPod» وتقنية «iTunes» للبرمجيات الموسيقية مع إعادة بث الحياة في نظام التشغيل العتيد (Mac OS X).

دخل جوبز كتب التاريخ حين أصر على إدارة شركته براتب سنوي مقداره دولار واحد ليثبت جديته في العودة بها إلى قوائم الربحية. وبالرغم من أنه قد ثبت في العام 2001م كرئيس فعلي للشركة، إلا أن راتبه الطريف لم يزل كما هو.. وإن كان هذا لا ينفي كون ستيف جوبز واحداً من مليارديرات مجتمع المعلوماتية باستثماراته الطليعة التي كان أشهرها شراء شركة الرسوميات «Pixar» من كاتب ومخرج الخيال العلمي الأشهر جورج لوكاس. وقد أعادت هذه الشركة تعريف فن الرسم الحاسوبي والفن السينمائي كذلك حين فاز فيلمها «حكاية لعبة» المنتج بالاشتراك مع استوديوهات «ديزني» بجائزة الأوسكار عام 1995م. ولا تزال هذه الشركة تحدِّد مسيرة التقنية في هذا الصدد بفضل النظرة المميزة لصاحبها جوبز الذي يعد بلا شك واحداً من أهم أعلام هذه الحقبة من عصر المعلوماتية.

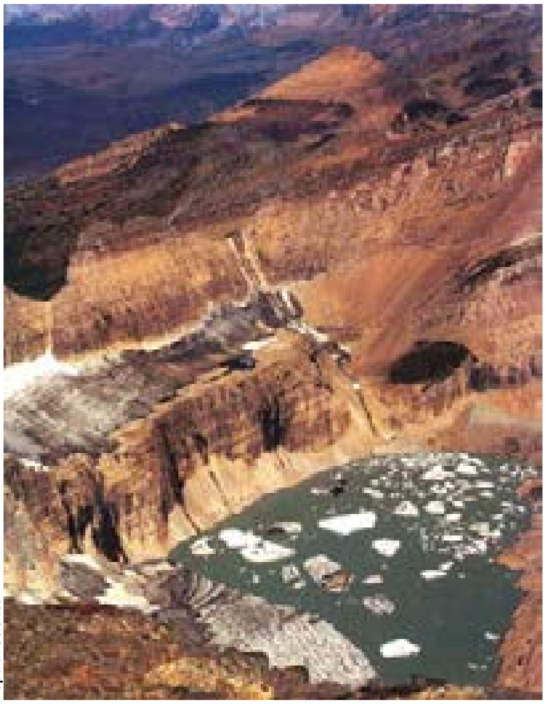
1 الثلوج الدائمة.. لم تعد كذلك

بعد الإنذار بأن ثلوج جبل كليمنجارو في إفريقيا ستختفي نهائياً خلال العقدين المقبلين بسبب سخونة الأرض، أكدت مجلة «بوبولار ساينس» الأمريكية أن «محمية الثلوج الدائمة» في مونتانا خسرت 70 في المئة من ثلوجها خلال القرن العشرين، بعدما حافظت عليها لأكثر من 7000 سنة.

ويقول العالم البيئي دانيال فارج من المركز العلمي في جبال روكي الشمالية: «لا يوجد أي سبب أو تفسير لهذه الظاهرة غير سخونة الأرض».

ويضيف متهكماً إنه إذا استمر الوضع على ما هو عليه فستختفي آخر مساحات الجليد من المحمية بحلول العام 2030م. الأمر الذي سيدفع إلى البحث عن اسم آخر لها.

ويؤكد على تسليم الجميع بوقوع هذه الكارثة بالإشارة إلى أن «العديد من السياح يقولون بأنهم يزورون المحمية لرؤية الثلوج الدائمة قبل زوالها».



Popular Science

2 الحلوى بعد الطعام عادة وليست ضرورة

جواباً عن السؤال ما إذا كان تناول الحلوى بعد الطعام يستجيب إلى حاجة غذائية مثل تحفيز الهضم أو ما شابه، أم مجرد عادة «ثقافية»؟، أجابت مجلة «العلم والحياة» الفرنسية أن المسألة هي ثقافية بحتة، ولا ضرورة جسمانية لها.

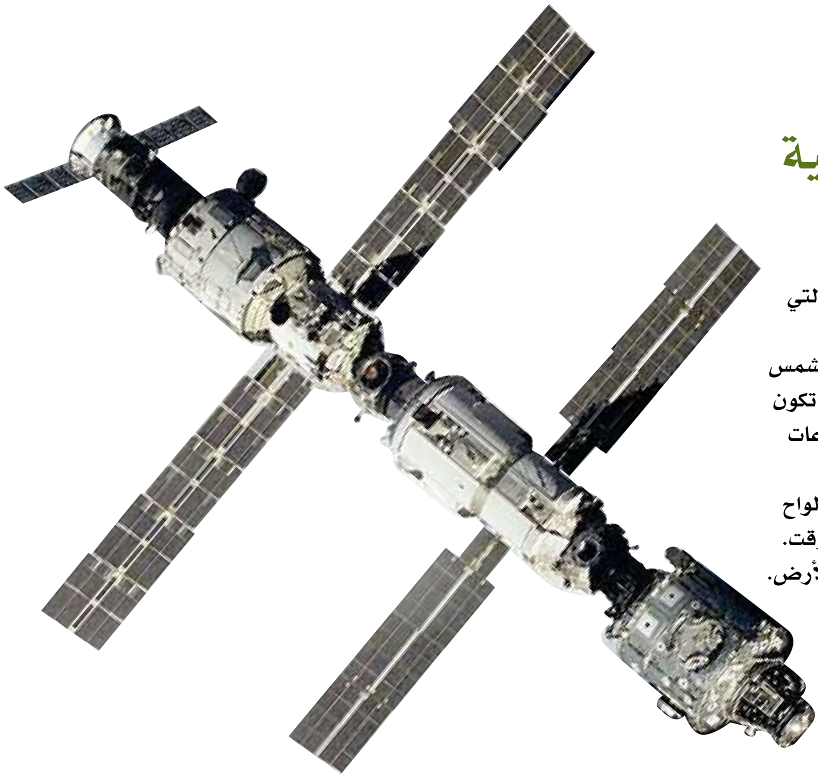
فالرومان مثلاً كانوا يتناولون الحلوى قبل الطعام، وفي الصين يدخل السكر في تحضير أطباق تبدأ بالمقبلات وتنتهي باللحوم. أما رواج تناول الحلوى بعد الطعام فهو مجرد عادة اقتبسها الأوروبيون من مدن بلاد الشام خلال الحروب الصليبية.



Stock Xchange

أما استمرار هذه العادة الغذائية على مر العصور. فيعود إلى أن المذاق الحلو مرتبط بالمشاعر الجيدة، وبالأحاسيس الإيجابية وكلما كان الإنسان راضياً عن محيطه وواقعه، كلما كثر استهلاكه للحلوى. وهذا ما يفسر الاستهلاك المتزايد للسكريات عند الشعوب المستقرة اقتصادياً وارتفاع نسبة السكر في كافة الأطعمة وليست الحلوى فقط، بدءاً باللحوم والخبز والأجبان والمشروبات.. وهذا ما يفسر أيضاً تفشي السمنة في هذه البيئات أكثر من غيرها.

وبعد ما كان عسل النحل هو مادة التحلية شبة الوحيدة حتى القرن الخامس عشر الميلادي، أدى استخراج السكر من القصب في ذلك الحين، ومن ثم من الشمندر في القرن التاسع عشر، إلى انخفاض كبير في ثمن الحلوى وشيوع استعمالها على نطاقات لا تزال تتسع يوماً بعد يوم، رغم تحذيرات العلماء من الإفراط في استهلاكها.



3 رؤية الأقمار الصناعية بالعين المجرَّدة

هل نستطيع أن نرى بالعين المجردة الأقمار الصناعية التي تجوب الفضاء الخارجي بالآلاف؟

الجواب: نعم. ولكن في أوقات معينة فقط: قبل شروق الشمس بنحو ساعة، وبعد غروبها بنحو ساعة. ففي هذه الأوقات تكون الشمس غير مرئية من الأرض، ولكنها مرئية على ارتفاعات معينة، حيث المدارات التي تدور فيها الأقمار الصناعية، فتنعكس أشعتها على هذه الأقمار وعلى ما تتضمنه من ألواح شمسية تزوّدها بالطاقة، فيصبح القمر مضاءً لبعض الوقت. إذ سرعان ما يختفي عن الأبصار عندما يصبح في ظل الأرض. ومؤخراً، دخل معدن الأيريديوم على صناعة الأقمار الصناعية. وهذا المعدن عالي الانعكاسية، ويبعث وهجاً قوياً لبضعة ثوانٍ، بحيث يمكن رؤيته حتى في وضح النهار.

4 المال والسعادة

خلصت دراسة واسعة جداً استمرت لحوالي ثلاثين عاماً وتناولت حوالي 20,000 من الأمريكيين حول علاقة المال بالسعادة، إلى تأكيد ما قاله الفيلسوف جون ستيوارت ميل قبل حوالي 150 عاماً من أن «الناس لا يرغبون في أن يكونوا مجرد أثرياء، بل أثرياء أكثر من غيرهم من الناس».
وقد قام بالدراسة باحثون من جامعة هارفارد وجامعة بنسلفانيا وتناولت موضوعات كثيرة مثل العمر، الصحة، الزواج، العزوبية، مستوى التعليم، الدخل، وضع العمل.. الخ. وبينت أيضاً أن الصحة والزواج هما أهم من المال بالنسبة إلى غالبية الذين تم استطلاعهم.
وقد عرضت هذه النتيجة في المؤتمر السنوي لجمعية علم الاجتماع الأمريكية في فيلادلفيا وحازت على إعجاب الكثيرين خصوصاً من ناحية الجهد والمستوى.



5 الكسل وتطور الدماغ

الكسل يعيق تطوّر الدماغ. هذا ما استنتجه شارلز غروس من جامعة ونستون، في اختبار أجراه على القردة وعلاقتها بالبيئة المحيطة وغناها بالحركة.
فقد وضع غروس ثلاثة قردة في أقفاص مختلفة: الأول في قفص فارغ إلا من المعلف، والثاني في قفص أكبر بقليل مع لعب مختلفة الأشكال تشجع القرد على الأكل مثل أغصان تخفي بعض الديدان الحية، والثالث ذو حجم مضاعف مع ألعاب أكثر، وذلك لمدة شهر.
وعند فحص أدمغة القردة الثلاثة تبين أن الاثنين في القفصين الكبيرين طوّرا خلايا دماغية ذات كثافة أكبر، كما طوّرا ضعف الأول من نقاط التشابك البروتينية (Synaptics) التي ينقل الدماغ بواسطتها الرسائل المختلفة بين الخلايا العصبية.
ويستخلص غروس من هذا: «أن الأمر لا يعكس فقط كم تعلم القرد بل القدرة على العلم، وهذا درس للإنسان: الناس يتأثرون مباشرة بما يفعلونه وبما توفره لهم البيئة المحيطة بهم».

تخفي بعض الأشياء البسيطة التي نستعملها أو نستهلكها كل يوم، تاريخاً بأكمله، كما أنها، بحكم الاعتياد عليها، تفقد قدرتها على الإدهاش كما كانت عند اكتشافها.

فهل خطر ببال أحد يوماً أن كيس الشاي المألوف جداً عند الكثيرين، هو على بساطته قاسم مشترك بين كافة الحضارات؟ لم يقصد توماس سيليفان، تاجر الشاي في نيويورك عندما وضع سنة 1908م أول كيس شاي في السوق، إلاّ التوفير بالنقل. فهو كان يضع أوراق الشاي في علب من التنك حيث كانت ثقيلة الوزن وباهظة الثمن. فاعتقد أن وضع الشاي في كيس من الحرير أسهل للنقل حيث كان عليه أن يبعث بكميات كبيرة لزبائنه. كما أن وضع أوراق الشاي في علب التنك تجعل المستهلكين الصغار غير قادرين على شرائها، لأنه لا يستطيع أن يضع كمية صغيرة في علبة واحدة. وبالصدفة اعتقد بعض زبائن سيليفان أن المقصود بالشاي داخل الكيس، أن يغمَس بالإبريق، فيتحلل الشاي في الماء. ومن دون قصد، كرّس هؤلاء الزبائن بداية عادة جديدة وإنجازاً كبيراً في تاريخ الشاي المعاصر، سيتوسّع لاحقاً في كلّ بلدان العالم.

قصة ابتكار

كيس الشاي

فبحلول سنة 1920م، أصبحت أكياس الشاي في أمريكا تنتج للسوق على نطاق واسع، واستبدل الحرير بالشاش ثم بأكياس الورق التي تتسع لأحجام صغيرة وتكفي لكوب واحد، ثم انتقل استهلاكها إلى أوروبا، حيث تبلغ اليوم نسبة استهلاك الشاي بالأكياس 96 في المئة من مجموع استهلاك الشاي العام. ويبدو أن الصدف رافقت تاريخ الشاي منذ البداية. فكما تقول الأسطورة، كانت الصين مصدر اكتشاف الشاي، حيث كان الإمبراطور شين نونغ يزور منطقة نائية من إمبراطوريته قبل أكثر من 4500 سنة، حين قدّم له الشعب كوباً من الماء الساخن لضروريات صحية، وبالصدفة وقعت ورقة من الشجرة جعلت الماء بني اللون، فوجد الإمبراطور ذلك طيِّب المذاق وطلب بشرب المزيد. وكما تحولت كلمة شاي من أصل صيني (Cha) إلى تاي (Tay) نسبةً إلى لغة المنطقة التي كانت صلة الوصل بين الصين وهولندا وهي فيوجيان حيث كانت شركة التجارة الهولندية هي صلة الوصل بين هذين البلدين. ثم تحولت الكلمة إلى «تي» (Tea) لملاءمة اللهجة الإنجليزية، في حين أنها بقيت في أوروبا تلفظ تاي (Tay). كذلك أيضاً تحوّل إبريق الشاي إلى كيس من ورق لملائمة نمط حياة جديد.



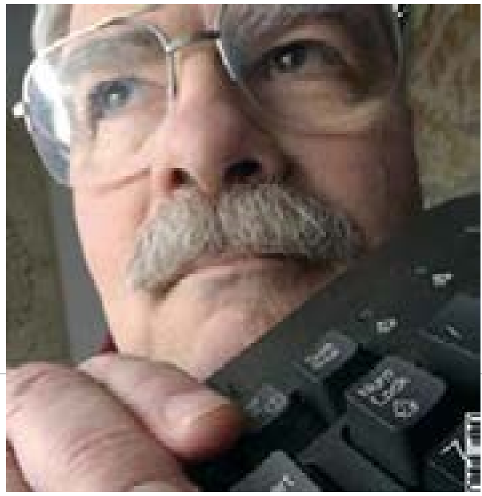
كان الطقس الذي يرافق شرب الشاي يناهز بأهميته طعم الشاي نفسه. فبعض الحضارات القديمة كانت تعتبر جلسات الشاي جلسات احتفال، حيث كان الوقت يلعب دوراً أساساً فيها. وكان اللافت في تلك الاحتفالات الرائحة العطرية التي كانت تفوح من إبريق الشاي وتضفي على هذه المجالس جوّاً خاصاً. أما اليوم فإن أكياس الشاي ألغت تلك المجالس وحشدت أوراق الشاي في مكان ضيق لا تتمكن من التمدد والانصهار مع الماء. هذا عدا أن نوعية الشاي في الكيس يمكن أن تكون أقل جودة، إلا أنها تعكس نمط الحياة السريعة التي آلت إليها البشرية.

صحيح أن مجالس الشاي التقليدية فقدت الجو الاجتماعي حول الشاي، لكن أكياس الشاي كانت قاسماً مشتركاً بين كثير من الحضارات المختلفة. وربما سبق كيس الشاي غيره في نسج علاقات العولمة باكراً.

قصة مبتكر

دايفيد برادلي

مبتكر شيفرة المفاتيح الثلاثة



ربما لا يعرف الكثيرون اسمه، لكنه أحد العقول التي جعلت فكرة «الكمبيوتر الشخصي» شيئاً ممكناً، وفتحت له كل تلك المجالات لاستخدامه في حياتنا، كما أنه الشخص الذي يتوجب علينا شكره كلما أنقذتنا المفاتيح الثلاثة الساحرة «Control-Alt-Delete»، من ورطة كمبيوترية علقنا بها. ولد دايفيد برادلي في العام 1949م، وبعد انتهائه من دراسته الثانوية، التحق بجامعة دايتون بولاية أوهايو الأمريكية لدراسة الهندسة، وتخرج منها في العام 1971م. وبعد تخرجه، استكمل برادلي دراسته في جامعة بوردو حيث حصل على درجة الماجستير في الهندسة الكهربائية عام 1972م، ثم على درجة الدكتوراة في المجال نفسه في العام 1975م.

بدأت رحلة برادلي مع الكمبيوتر بعد حصوله على درجة الدكتوراة، حيث التحق بالعمل في شركة «آي. بي. أم.» (IBM)، وشارك في العمل على اثنين من أنظمة الحاسب، كانت «آي. بي. أم.» تعمل على تطويرهما في ذلك الحين. في العام 1980م كان برادلي واحداً من المهندسين الاثنى عشر الذين اختارتهم الشركة للعمل على بناء أول نظام للكمبيوتر الشخصي يحمل اسمها. وواجه الرجل وفريقه مشكلة أثناء عملهم، تكمن في اضطرارهم إلى إقفال الأجهزة ثم إعادة تشغيلها عندما تسير الأمور بطريقة خاطئة، أو «تجمد» الجهاز لسبب أو لآخر. كان على أحدهم أن يقوم بإقفال جهاز الكمبيوتر، وينتظر لبضع دقائق قبل أن يقوم بإعادة تشغيله. ثم ينتظر ثانية حتى يقوم الجهاز بفحص أدائه قبل عودته للعمل. كان الأمر يصيبهم بالملل، ويستهلك كثيراً من الوقت. فلم يكن أداء أجهزة الكمبيوتر بالسرعة التي نعرفها الآن. كان الأمر محبطاً لفريق عمل يعني له الوقت الكثير، حيث كانت «آي. بي. أم.» في سباق مع الزمن، لتقوم بطرح حاسبها الشخصي في وقت قياسي، يحفظ لها اسمها في عالم أجهزة الكمبيوتر، بعد أن سبقتها شركة أبل بخطوات، وقامت بطرح حاسبها الشخصي في الأسواق.

كان برادلي يحتاج إلى طريقة جديدة يستطيع بها أن يعيد تشغيل جهاز الكمبيوتر، تكون على درجة كبيرة من البساطة، ولا تتطلب الكثير من الوقت، وتختصر اختبارات الأداء التي يقوم بها الجهاز عند إعادة تشغيله. وفي هذا الصدد يقول هذا المبتكر إن الأمر لم يتطلب منه سوى خمس دقائق من التفكير، قبل أن تولد الشفرة الثلاثية الشهيرة «Control-Alt-Delete».

صمم برادلي مجموعة من الشيفرات التي تسمح بإعادة تشغيل الكمبيوتر، عندما يتم الضغط على تلك المفاتيح الثلاثة. كان اختيار مفردات تلك الشيفرة اختياراً ذكياً، فكونها تتكون من ثلاثة مفاتيح، ووقوع مفتاح الإلغاء (Delete) بعيداً عن المفتاحين الآخرين، يجعلها شفرة آمنة بالرغم من بساطتها. إذ أن ضغطها يتطلب استخدام اليدين معاً، وبصورة لا يمكن أن تحدث بالصدفة، أو عن طريق الخطأ.

قدمت شفرة برادلي حلاً للمشكلة التي واجهت فريقه في العام 1980م، لكن استخدامها لم يتوقف حتى الآن، وانتقلت من يد المهندسين ومطوري البرامج، إلى أيدي المستخدم العادي. فقد تبنتها شركة ميكروسوفت لتصبح جزءاً من نظام «الويندوز»، كحل مثالي لمشكلات توقف البرامج من العمل، يتيح للمستخدم الخروج من تلك «الورطات» الصغيرة، وبأقل درجة من الإيذاء للجهاز ومكوِّناته. يقول برادلي بتواضع عن شيفرته الذكية: «قد أكون أنا من ابتكر «Control-Alt-Delete»، لكن بيل جيتس هو من أعطاها تلك الشهرة».

اطلب العلم

لا أحد يجرؤ على زعزعة صرح كبير قبل أن يقيس ارتفاعه. ومنذ أكثر من أربعين سنة وعلماء العالم يتحدثون عن نظرية «الانفجار الكبير» الذي بدأ به تشكُّل الكون.

الشك الكبير.. في الانفجار الكبير

أحمد الجندي*

النظرية.. أصبحت من جرّاء تكرارها وتبنيها على مستويات عديدة، خارج مجال النقد والنقض، والكثيرون باتوا يتعاملون معها وكأنها حقيقة «تاريخية».

ويقول ملخص هذه النظرية التي لا مجال للتوسع في عرضها هنا إن انفجاراً حصل قبل 13.7 مليار سنة أدى إلى ظهور الكون، وهو ليس انفجاراً بالمعنى التقليدي، ولكنه ظهور الفضاء والزمن دفعة واحدة نتيجة شرارة تتحدى بضخامتها خيال البشر. واستدل أصحاب هذه النظرية على ذلك من خلال ثلاثة عناصر أساسية هي: تباعد المجرَّات، عمر الضوء الباهت الذي يضيء الكون والذي اعتبروه صدى ضوء الانفجار، ونسبة ذرات الهليوم والهيدروجين في الكون، والتي اعتبرت الذرّات الأم الأولى، في حين أن كل المواد الأخرى تشكّلت لاحقاً..؟

استمدت هذه النظرية صلابتها من «الحقائق» العلمية الثلاث التي ارتكزت عليها، ومن بساطتها النسبية.

ولكن، منذ أشهر معدودة بدأت بعض التشققات تظهر عليها، وهي تكبر وتتسع بسرعة لتهدد بانهيارها جملة وتفصيلاً.

فمنذ أواخر العام 2005م رصد التلسكوب الفضائي هابل، والتلسكوب سبيتزر، والتلسكوب الأوروبي، مجرة تقع على بعد 13 مليار سنة ضوئية من الأرض. أي أنها أصغر عمراً من الانفجار الكبير بـ 700 مليون سنة فقط. ولكن حجمها يبلغ أربعين مرة حجم مجرة درب التبانة، وبالتالي، لا يمكن أبداً أن تكون قد تشكّلت من الانفجار الكبير، فهي أقدم منه.

إلى ذلك بدأ علماء من جامعات أوروبية وأمريكية يشككون في عمر الضوء الكوني ويعددون الأخطاء الحاصلة في احتسابه. الأمر الذي يهدد بسحب الركيزة الثانية من تحت بناء نظرية الانفجار الكبير.

من المرجَّح أن انهيار نظرية تقليدية سيحتاج في حال حصوله إلى بعض الوقت، خاصة وأن عمر هذه النظرية أربعين عاماً أو أكثر. ولكن المثير للاهتمام فيما تم تحقيقه على صعيد البحث والنقض، هو في كشفه عرضاً عن واحدة من أساسيات «العلم».

«العلم» الذي يبدو ظاهرياً قادراً على الإجابة عن أي سؤال، ويروّج لهذه المقدرة «أنصاف المثقفين» و «أنصاف العلماء». في حين أن العلم نفسه يقول عن حاله إنه مجرد بحث دائم وهو بحد ذاته أسئلة أكثر من أجوبة.

* كاتب وباحث من سورية



أنت خيّال،
تجوب بك الغبراء
الجبال والوديان
والأنهار...
حتى حدود البحر.
مقدامة يقظة،
تردأ عنك الأخطار.
أما صديقك المستريح،
فجبل لا تهزه ريح!





عبدالعزيز ابن يوسف ابن جاسر التركي، ولد ونشأ في الأحساء، أحب التصوير الفوتوغرافي منذ الطفولة، عشق وتخصص بتصوير الخيول العربية الأصيلة والمناظر الطبيعية.

عضو هيئة تدريس اللغة الإنجليزية بكلية المعلمين بالأحساء، عضو في عدد من جماعات التصوير الضوئي.

قام بالتغطية الإعلامية لعدد من سباقات القدرة والتحمل وعروض جَمَال الخيل العربي في السعودية وقطر والبحرين والإمارات، شارك في عدة معارض محلية ودولية آخرها المعرض الدولي للصيد والفروسية - أبوظبي - 2005، المعرض الدولي للاستعراضات الجوية - العين - 2006، معرض جمعية أصدقاء الضوء - الرياض - 2006.









المصور عبدالعزيز التركي



السياحة الأخرى!

حبذا لو يترك المسافر في رحلة سياحية مساحة فارغة في حقيبته، كي يتذكر أن أهم ماسيعود به من هذه الرحلة يكمن في حيز فراغ ضمن برنامج الرحلة. فترات مسروقة إذا جاز التعبير، لا تأتي على ذكرها ولاتوصي بها نشرات الدعاية السياحية على اختلاف أنواعها. وكي يتذكر وهو ينتقل من موقع علم إلى موقع علم، ومن مشهد مدهش إلى آخر، ومن متحف إلى متحف، ومن مقهى إلى مطعم، أن عليه أن يقتنص لنفسه «وقتاً مقتطعاً» كي يشاركه أو لا يشاركه به أحد وسوف يذكره بعد سنين كالشيء الحقيقي الوحيد الذي يجسَّد المتعة الفعلية في رحلته.

إن عليه أن يقتنص هذه اللحظات كي ينسحب من السياحة الأولى إلى «السياحة الأخرى». والسياحة الأخرى لها برنامج آخر، غير مكتوب في أي مكان ولايستطيع أي دليل سياحي أن يدل عليه. وقد يكون باختيار وتخطيط، أو يأتي بالصدفة، ولكنه في جميع الأحوال يتصل في وجه من وجوهه، وفي منعطف من منعطفاته، بلحظات الاسترخاء الذي يذهب بها النظر بالنفس إلى أماكن ترتاح لها كي تحلم أو لتتأمل وربما حتى تستكشف ما ترى فيه مايهمها، أو يثير فضولها بالفعل.وذلك خارج «البرنامج اليومي» المعد مسبقاً والحركة المتسارعة والمنهكة التي تفرضها أغلب الأحيان الجولات السياحية المنظمة منها بنوع خاص.

وحقيقة الأمر أن السياحة المعاصرة الشائعة قد روَّجت لممارسات سياحية تكاد تكون عكس الغرض الحقيقي منها. فالبرنامج اليومي سواء أكانت الشركة السياحية قد وضعته للمجموعات السياحية، أو حتى وضعه السائح لنفسه تشبهاً بهذه الشركات، قد جعلت زيارة أكبر عدد من المواقع السياحية في أقصر مدّة ممكنة عنوان الرحلة الناجحة. وكم أن هذه الفكرة مجافية للحقيقة!

ومعها يصبح «مرتجى السائح» والهدف الذي يضعه نصب عينيه في زيارته إلى بلد من البلدان هو تغطية اللائحة الطويلة من المواقع المشهورة واحداً تلو الآخر خلال ساعات أو أيام معدودات. وتنتهي الرحلة والسائح منهك وليس لديه مايحمله عائداً الى بلده وأهله سوى أن يعدِّد بفخر (فارغ في الحقيقة) أسماء المواقع البّراقة التي شاهدها. وكم من منطقة ساحرة ظُلمت، وكم من موقع أثري أُهين، ولم تتعد زيارته الدقائق القليلة التي سمحت الشركة السياحية للسائح تمضيتها فيها، وذلك قبل أن تعود الحافلة تتحرك مسرعة إلى موقع آخر. وكأن الموضوع هو رؤية الموقع أياً كان للعلم فقط، وكأن الموضوع ليس للتأمل والتذوق والحلم بل «فرض واجب»!

إن السياحة هي أولاً إجازة. والإجازة هي خروج من إطار الروتين وتحرر من الإحساس بالارتباط بوقت ومكان وخط سير مرسوم. ولكن هذا النوع من السياحة ليس إلا روتيناً من نوع آخر. من بداية الصباح الباكر وحتى أفول النهار، وأحياناً حتى آخر الليل، هذا هو «دوامك السياحي»، عليك أن تلتزم به وإلا ضاعت فلوسك سدى، وتخلفت عن الركب. أما السياحة الأخرى فتبدأ بالتخلف عن الركب. ثم تنتقل إلى اختيار زاوية للجلوس والاسترخاء والتأمل على غير هدى. ثم بعض الملل. ثم خاطر يخطر ببالك فتتحرك حراً منساباً باتجاهه، وقد يكون أي شيء. العبور إلى شاطئ «غير سياحي»، وربما لقاء صدفة مع شخص لطيف يبادلك بعض الحديث، ويدلك على مواقع غير سياحية لسياحتك، أو ربما يصبح صديق زيارتك القصيرة، وقد يأخذك السير على غير هدى إلى دكان فيه بضاعة لا تخطر على بالك وليست أدوات أو عطور أو ملابس أو حاجات منزلية. أو ربما اكتشاف مكتبة قديمة أو مطعم شعبي أو ساحة يلهو فيها أولاد البلد. أو دون كل هذا. مجرد الاستقرار في مكان ممتع ومريح وترك النفس تسترخي وتستجمع وتنفك عن انقباضات الأيام.

السياحة الأولى معروفة البرامج.. هي نفسها أينما اتجهت. السياحة الأخرى احتمالاتها بلا حدود، وأول «لا حدودها» رحلة إلى الذات يتوق كل واحد منا إليها.

كميل حوا



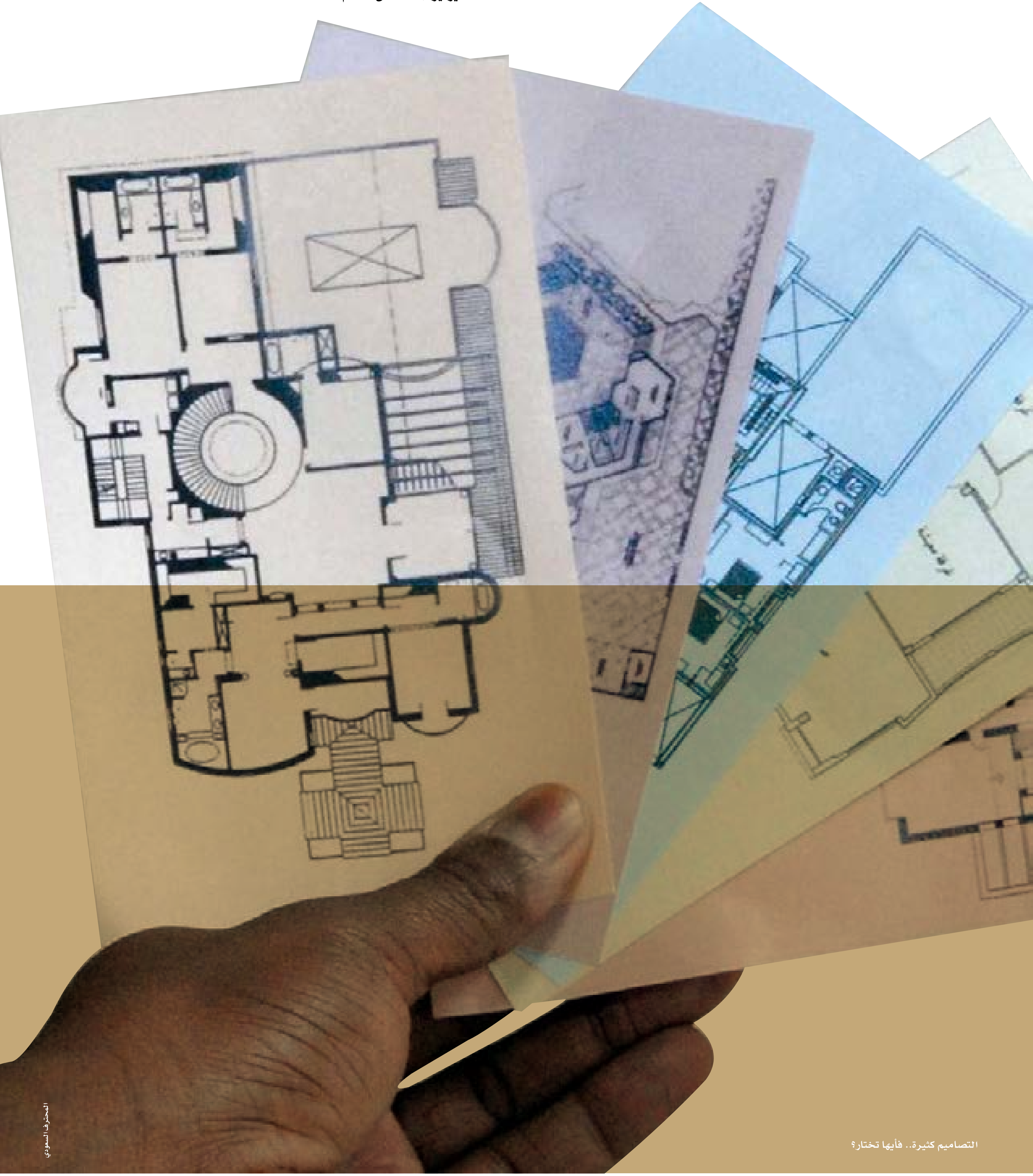
كي يصبح ميسّراً للأسر الشابة

المسكن السعودي المعاصر

ما بين التفكير الأولي ببناء مسكن من جهة، والوصول إلى لحظة الانتقال إليه، يواجه صاحب المشروع سلسلة أمور عليه أن يتخذ قرارات حاسمة بشأنها، وأهم هذه القرارات وأطولها عمراً لجهة التأثير على حياته في مسكنه الخاص هي تلك التي تتعلّق بتصميم المسكن وعناصره بشكل ملائم، بعيداً عن التجريب والتكهن أو محاولات تقليد الآخرين.

الدكتور علي باهمام* يعدِّد هنا أبرز ما يجب على باني المسكن السعودي أن يلتفت إليه ويوليه الاهتمام الذي يستحقه، خلال تصميم البيت وقبل البدء في عمليات التشييد.

* أستاذ العمارة والإسكان في جامعة الملك سعود



التصاميم كثيرة.. فأيها تختار؟

المحترف السعودي

أولت الحكومة السعودية موضوع توافر المسكن أهمية كبيرة في خطط التنمية الخمسية. وقد أسهم الدعم المتواصل الذي قدمته من خلال برامجها المتعددة لقطاع الإسكان (مثل برنامج منح الأراضي، وقروض صندوق التنمية العقارية، وبرنامج الإسكان العام، والبرامج الأخرى لإسكان موظفي بعض القطاعات الحكومية)، خلال السنوات الماضية، في توافر الاحتياج إلى الوحدات السكنية المناسبة وتمكين العديد من الأسر السعودية من التملك.

ونظراً لأن غالبية سكان المملكة من الفئات الشابة فإن معدل تشكُّل الأسر الجديدة سيزداد بشكل كبير. وبالتالي، سيزداد حجم الطلب على المساكن بنسب أكبر في السنوات المقبلة. ولكن مواصفات المسكن السعودي المعاصر، من حيث المساحة والحجم وتقنيات البناء والمواد المستخدمة، تجعل إمكانية الحصول عليه وامتلاكه بعيدة المنال للكثير من الأسر السعودية الشابة؛ لأنها قد تفوق القدرات المالية حسب متوسط دخلها.

لذا تظهر الحاجة إلى توافر مساكن ميسّرة تستطيع الأسر الإنفاق على امتلاكها، بمعدلات لا تؤثر في جوانب الإنفاق الأخرى، ومن دون الحاجة إلى الانتظار الطويل للحصول على فرصة الدعم الحكومي. ويعني التيسير في توافر المساكن تقليص الفجوة بين دخل الأسرة وتكلفة المسكن، والتقريب بين ما ترغب الأسرة في الحصول عليه وما تستطيع أن تمتلكه. ويعد خفض تكاليف المسكن من خلال التصميم المعماري الحلقة الأساسية التي ستساعد في تقليص هذه الفجوة.

إن توافر المسكن (الميسر امتلاكه على الأسرة) ضروري للتنمية بجانبيها الاقتصادي والاجتماعي. فالزيادة في معدلات نمو السكان، وتغيِّر تركيبة وحجم الأسرة السعودية وبعض خصائصها التقليدية (من الأسرة الممتدة أو المركبة إلى الأسرة المفردة أو النواة)، وغيرها من العوامل الاقتصادية والاجتماعية تشير إلى الاهتمام بقضية تيسير الحصول على المسكن.

ولكي يتوافق سعر المسكن الميسّر مع المقدرة المالية للأسر ذات المداخيل المتوسطة والمنخفضة، يجب أن يتوافق تصميمه مع المبادئ التي تعمل على خفض التكلفة. لذا يلزم عند إعداد التصميم العناية الفائقة بترشيد المساحة، والحد من التعقيد المعماري، ولكن مع الحفاظ على الجودة وتوافر الاحتياجات الأساسية للأسرة. ومن هذا المنطلق يلزم العمل على تقليص مساحة الأرض والاستعمال الفعَّال لها، وإلغاء جميع المساحات غير المستغلة في المسكن والاستفادة منها، والأخذ بمبدأ المرونة في تصميم المسكن، وتعدد وظائف فراغاته، وجعل توسيعه وقابلية نموه وإعادة تشكيله ممكنة وسهلة، مع العناية بتطبيق التوحيد القياسي لعناصر المسكن ومكوناته، والعمل على توحيد الأنظمة الهندسية وتكاملها مع بعضها البعض، وتقديم نماذج تصاميم أساسية ومبسَّطة للوحدات السكنية، مع توافر الكثير من البدائل التكميلية التي تلبي الرغبات المختلفة. ولكي يستفيد الراغبون في تصميم وبناء مساكن جديدة عند مناقشة المهندسين المعماريين، أو الرجوع إليها عند الرغبة في شراء أحد المساكن المعروضة في السوق لتقييم مدى توافقه مع



المحترف السعودي

مبدأ التيسير، سيتم استعراض هذه العوامل ومناقشتها بشيء من التفصيل.

الاستعمال الفعَّال لقطعة الأرض السكنية

من أهم العوامل المؤثرة في خفض تكلفة المسكن يمكننا أن نذكر صغر قطعة الأرض والاستعمال الفاعل لها. لذا يلزم العناية بتوقيع المبنى ضمن الأرض بأسلوب يمكِّن من الاستفادة منها بالشكل الأمثل، مع مراعاة وظائف الفراغات الخارجية وتوزيعها. بحيث يتم تحديد المناطق الخارجية في الأفنية وطريقة استخدامها، بوصفها امتداداً وظيفياً خارجياً للمسكن يمكن أن تستفيد منه الأسرة.

> ترشيد مكونات المسكن يخفض المساحة المبنية وبالتالي التكلفة، من دون التأثير على راحة الأسرة

ترشيد المساحة

وكمدخل سليم لتوافر مسكن ميسَّر، لا بد من تخفيض المساحة المبنية للمسكن بالقدر الذي يتوافق مع الاحتياجات المعيشية والوظيفية الحقيقية للأسرة. فالوصول إلى أقل الأبعاد المقبولة، التي تلائم احتياجات أفراد الأسرة، من عناصر المسكن يعد من أهم العوامل المؤثرة في إنتاج تصميم وظيفي ناجح يعمل على خفض تكلفة المسكن وجعله ميسراً. وتظهر ضمن هذا الإطار الحاجة إلى ترشيد مساحة الوحدة السكنية بحيث تكون عناصرها ومساحاتها ذات فاعلية وظيفية قصوى. خصوصاً أن تكلفة البناء تمثل ثلثي التكلفة الكلية لامتلاك المسكن.

الحد من الفراغات المهدرة واستغلالها

يؤدي إهمال العناية بترشيد الفراغات المعمارية، في مرحلة التصميم، إلى ظهور العديد من الفراغات المهدرة وغير المستغلة. فأي زيادة في أبعاد فراغات الوحدة السكنية عن الأبعاد القياسية، بعد تأثيثها بالأثاث الثابت أو المتحرك، المتوافق مع الوظائف المخصصة لها، يعد هدراً وإنتاجاً لفراغات لا تخدم وظائف نفعية، بينما تستهلك، وبشكل مستمر، مبالغ إضافية لصيانتها ونظافتها والعناية بها. فالتصميم الوظيفي الناجح يجب ألاَّ يخلو من كل فراغات غير مستغلة، بالإضافة إلى العناية بخفض نسبة المساحات المخصصة للحركة إلى أقل ما يمكن.



ولكن مراعاة الانسجام التصميمي وتحقيق العلاقات الوظيفية بين عناصر المسكن، قد يؤدي أحياناً إلى ظهور بعض المسطحات التي يتسبب إهمال استغلالها إلى كبر مساحة المسكن ورفع تكلفته. ويسهم تحويل هذه الفراغات غير المستغلة إلى فراغات نفعية ذات وظائف إيجابية في تقليص مساحة المسكن، من خلال الاستغناء عن فراغات أخرى تؤدي نفس الوظيفة، حيث يمكن تحويلها إلى مستودعات، وغرف تغيير الملابس، وغرف للغسيل تحوي غسالات ومجففات الملابس، وخزائن حائطية للكتب، أو لأجهزة الترفيه المنزلي، أو لحفظ الملابس، أو لمعدات الصيانة وأدوات النظافة المنزلية، أو كحنيات جدارية تستخدم كمكاتب للدراسة والمذاكرة، أو كعناصر جمالية ضمن التكوين الفراغي لعناصر المسكن. مما يعمل على خفض تكلفة المسكن ورفع كفاءته التشغيلية، وهما مطلبان أساسيان لتحقيق مبدأ التيسير. فإلغاء الهالك من الفراغات يؤدي إلى ملاءمة المسكن وظيفياً واقتصادياً، ويجعل عملية صيانته ونظافته والعناية به ميسرة وسهلة.

ترشيد عناصر المسكن ومكوناته

اعتاد السعوديون خلال العقود القليلة الماضية، ونتيجة للطفرة الاقتصادية، على بناء مساكن تتميز باتساع مساحاتها وكثرة عناصرها ومكوناتها المتكررة دون الحاجة الفعلية إليها. وارتبط في أذهان العديد منهم أن كبر مساحة المسكن وكثرة عناصره وغرفه يعبِّر عن الأهمية الشخصية والاجتماعية. ونتيجة للمتغيرات الاقتصادية وكرد فعل عليها ظهرت دراسات تشير إلى عدم قدرة الأسر على بناء مثل هذه المساكن الكبيرة أو شرائها خاصة بالنسبة للأسر المتكونة حديثاً.

فلكي تتمكن الأسرة من مزاولة نشاطاتها الحياتية اليومية، يجب أن يتأثر التشكيل الفراغي لعناصر المسكن بالاحتياجات الوظيفية لها. ومن هنا تلزم العناية بترجمة نشاطات الأسرة إلى محددات وظيفية ثم إلى فراغات. ولابد أن يتناسب حجم كل فراغ مع نوعية النشاط الممارس فيه. فمساحة الفراغ وأبعاده (طول × عرض × ارتفاع)، وأسلوب تصميمه، ترتبط بعدد وأبعاد قطع الأثاث المستخدمة، وبطريقة ترتيبها، مع الأخذ بعين الاعتبار عدد المستخدمين وسلوكهم ونمط العلاقات الأسرية وطبيعتها. لذا يلزم إعداد برنامج معماري مساحي يحدد بدقة عناصر المسكن حسب الاحتياج الحقيقي قبل البدء في مرحلة التصميم. ويتم في هذا البرنامج تحديد أبعاد جميع العناصر ومساحاتها بدقة، تقود إلى تجنب ظهور فراغات بأبعاد ومساحات تزيد على الاحتياج الوظيفي.

يتألف المسكن من مكونات محددة تختلف في مساحاتها وفي تعدادها من مجتمع إلى آخر ومن أسرة إلى أخرى وفق الاحتياجات الفعلية المطلوبة. ويسهم ترشيد مكونات المسكن في الحد من تكرار العناصر التي لا مبرر أو حاجة

إليها، وفي خفض المساحة المبنية دون التأثير في الراحة المعيشية للأسرة، أو في حسن الأداء الوظيفي الاقتصادي للمسكن. ويعد موضوع استعمال مكونات محددة، دون غيرها، في المسكن أمراً مهماً ومنطقياً، يهدف أولاً إلى تكوين مسكن ذي أداء وظيفي جيد، وثانياً إلى تخفيض مساحته إلى حدود منطقية مناسبة تسهم في خفض تكلفته الأولية. ويمكن العمل على ترشيد مكونات المسكن وعناصره من خلال مراعاة الأمور التالية:

- تهيئة المطابخ أو غرف المعيشة كأماكن خاصة بالطعام العائلي.
- **اختصار** عدد دورات المياه.
- **اختصار** المداخل المتعددة إلى مدخل واحد.
- **تقليص المساحات** المخصصة للحركة الداخلية الأفقية والرأسية إلى حدها الأدنى.
- **استخدام الأسطح** كامتداد معيشي خارجي، يستفاد منها لعدد من الوظائف.

وفي سبيل توافر أفضل مسكن ميسَّر، تتوافق تكلفته مع مقدرة الأسر المالية، يجب تحديد أصغر مساحة مناسبة للفراغات المعمارية الوظيفية (غرفة، صالة، مطبخ، دورة مياه، ... إلخ)، والعمل على الرفع من كفاءة استعمال تلك الفراغات بتصاميم بسيطة وسهلة التنفيذ.

تعدد وظائف عناصر المسكن وطريقة استخدامها

إن تخصيص وظيفة واحدة لكل غرفة أو فراغ معماري في المساكن المعاصرة يزيد من عدد الغرف، وبالذات تلك التي تستخدم في فترات متباعدة جداً وربما نادراً. مما يعمل على رفع تكلفة تشييدها وتأثيثها، واستمرار الحاجة إلى تنظيفها وصيانتها والعناية بها ودفع التكاليف المصاحبة لذلك بشكل مستمر. ومن منطلق العمل على خفض تكلفة المسكن وجعله ميسراً، يلزم العناية، أثناء مرحلة التصميم المعماري، بتطبيق التعددية الوظيفية لغرف المسكن وفراغاته والتأكيد على مرونة استخدامها لتستوعب نشاطات متعددة. فمبدأ توظيف الفراغ الواحد لأكثر من نشاط، بشكل فاعل يحقق احتياجات الأسرة ومتطلباتها، ويؤدي إلى رفع الكفاءة التشغيلية للفراغ، ويلغي الحاجة إلى إضافة فراغات لا تستعمل إلا نادراً، مما يؤدي، بشكل مباشر، إلى تصغير مساحة المسكن وجعله ميسراً في تنفيذه وتأثيثه والعناية به.

إن بعض المناسبات الاجتماعية، التي تحدث في فترات متباعدة ولمرات قليلة في السنة الواحدة، والتي تتطلب توافر فراغات كبيرة لها في المسكن (كمجالس استقبال الضيوف وغرف الطعام)، يمكن تفاديها بتطبيق أسلوب المرونة الفراغية، فتصميم مجلس الاستقبال وغرفة الطعام بمساحات صغيرة يمكن أن يفي بالحاجة اليومية والمتكررة للأسرة، مع توافر إمكانية فتح الفراغين على بعضهم البعض لاستيعاب وظيفة المناسبات الاجتماعية الكبيرة، مما يخفِّض التكلفة ويمكِّن الأسرة من استخدام فراغات المسكن بشكل أمثل.

مرونة المسكن وسهولة نموه المستقبلي

إن تمكين الأسرة من دفع قدر ما تستطيع لمسكن ابتدائي صغير يمكن أن ينمو ويتسع في المستقبل حسب تغير حاجة الأسرة ومقدرتها، يسهِّل على الأسر ذات الدخل المتوسط والمنخفض عملية امتلاك المسكن. وللاستفادة من هذا المفهوم، ولتحقيق النجاح المنشود في تمكين الأسر من الامتلاك، فيجب أن يتم القبول بوحدات سكنية أساسية صغيرة، يتم فيها توافر الاحتياجات الأساسية للأسرة، وتتمتع في الوقت نفسه بقابلية النمو أفقياً ورأسياً حسب تغير احتياجات الأسرة وزيادة عدد أفرادها.

فالمسكن الميسر يجب أن تتوافر فيه خاصية المرونة لإعادة توظيف الفراغات، وتغيير مساحتها لاستيعاب وظائف جديدة، أو لإضافة عناصر جديدة حسب رغبة الأسرة وما يستجد من متطلباتها. ويمكن توافر المرونة في المسكن الميسر ليتوافق تصميمه مع مراحل تطور الأسرة من خلال الحلول التالية:

- **إعادة توظيف الفراغات**، ويركِّز هذا الحل على إيجاد فراغات داخلية متعددة الوظائف وقابلة للتغيير بسهولة من دون أي عوائق إنشائية، حيث يتم تشكيل الفراغات الداخلية من قِبَل الأسرة باستخدام فواصل وخزائن متحركة أو حوائط سهلة التركيب.
- **تجزئة التنفيذ** لسببين أساسين، أحدهما لتجزئة التكلفة، والآخر لتلبية احتياجات الأسرة المتغيرة في حينها. أما بالنسبة لتجزئة التكلفة فيكون من خلال تجزئة تنفيذ مراحل التشطيب والتكسية أو الإنهاء (التشطيبات) حسب إمكانية الأسرة المادية. فبالإمكان تجزئة تكسية الحوائط الداخلية والخارجية من حجر أو رخام أو سراميك، أو إكسسوارات صحية، ومصابيح الإضاءة... إلخ. إلى مراحل ما بعد الانتقال إلى المسكن. أما بالنسبة إلى أسلوب تجزئة التنفيذ حسب نمو حجم الأسرة فيجب أن يراعى من قبل المهندس المعماري عند تصميم الوحدة، بحيث يتم تنفيذها على مراحل، حيث يبدأ على سبيل المثال بتنفيذ الدور الأرضي في البداية، ثم ينمو المسكن مع نمو الأسرة ببناء أجزاء من الأدوار

المتعددة أو المساحات الخارجية حسب حاجة الأسرة وإمكاناتها. وينتج عن ذلك تفادي المبالغة في التكلفة المبدئية للتنفيذ، وزيادة كلفة التشغيل والصيانة كتكييف الفراغات غير الضرورية أو تنظيفها. وبذلك، يخف العبء المادي عن كاهل الأسرة المتكونة حديثاً.

البساطة والبعد عن التعقيد

تؤدي التصاميم المعمارية المبسَّطة للمسكن إلى سهولة التنفيذ وخفض كميات الفاقد من مواد البناء. وبالتالي، إلى خفض التكاليف دون أن يخل ذلك بالنواحي الجمالية واحتياجات الأسرة. وتتحقق البساطة المعمارية في تصميم المسكن من خلال البعد عن التعقيد في التكوين المعماري لمبنى المسكن. وتنتج البساطة المعمارية من خلال العناصر التالية:

> **البساطة من دون الإخلال بالنواحي الجمالية، من الأركان الأساسية للبيت المعاصر**

- **التكوين العام:** يجب أن تراعى بساطة التكوين العام للمسكن من خلال تشكيله، وخطوطه العامة، وعلاقته بقطعة الأرض وطريقة استغلالها.
- **التوزيع الفراغي:** تنعكس بساطة التصميم على المساقط من خلال تحديد مساحات قياسية للغرف والفراغات بما يناسب الوظائف المخصصة لها. وبناء أشكال هندسية بسيطة كالمستطيلات والخطوط المستقيمة، وتقليص مساحات الحركة إلى حدها الأدنى، وتأثيث الفراغات بأثاث عملي مريح.
- **تشكيل الجدران:** يحقق استخدام الخطوط المستقيمة في تشكيل الجدران مبدأ البساطة والوضوح. كما يساعد على تراكب المستويات المختلفة للمسكن بشكل جيد لوضوح الأسلوب الإنشائي. ويمكن استخدام بعض المنحنيات لتضفي على الفراغات والواجهات العامة للمبنى حيوية وجمالاً مع الحفاظ على البساطة المعمارية في التصميم.
- **تصميم الفتحات:** تتحقق البساطة كلما كانت النوافذ والأبواب وحدات قياسية ذات أبعاد وأشكال بسيطة وثابتة، ويمكن تغيير أشكال خطوط إطارات الفتحات لإضفاء التنوع ضمن فكرة البساطة.
- **تشكيل الواجهات:** تصمم البروزات والتراجعات في كتلة المسكن وواجهاته كجزء أصيل من التكوين، وليس كمجرد إضافات لا معنى لها، مع عدم الإكثار منها.
- **تصميم الأدراج:** إن تبسيط أشكال الأدراج يجعلها سهلة الاستعمال والتنفيذ، ويفضَّل تجنب الأدراج الدائرية لصعوبة استعمالها وارتفاع تكلفة تنفيذها.
- **النظام الإنشائي:** يؤدي وضوح الحلول الإنشائية وخضوعها للتنسيق المديولي إلى جودة التنفيذ وسرعته وإلى خفض التكلفة.
- **تنسيق الحدائق:** كلما كان تصميم الحديقة وتشكيل عناصرها بعيداً عن التعقيد، كلما أدى ذلك إلى سهولة تنفيذها وصيانتها (عند قص النجيل، وإزالة الحشائش، وري النباتات). كما تساعد بساطة أشكال العناصر المائية في الحديقة (مثل المسابح والبرك والنوافير) في خفض تكاليف إنشائها والعناية بها.



المحترف السعودي



Corbis

الاستفادة القصوى من الوقت، اختصاره، السرعة في إنجاز الأعمال، وكيفية القيام بأكبر قدر منها في وقت محدد.. أمور تم التشديد على أهميتها في العصر الحديث، وأبرزت كفضائل ومفاتيح للنجاح. وهي على الأرجح كذلك. غير أن الذين غالوا في الانغماس في الحياة السريعة، ويقيّمون اليوم واقعهم، يبدون أقل رضى من المتوقع.

أمين نجيب يتناول هذه المراجعة انطلاقاً من كتاب جديد ومجموعة أبحاث صدرت مؤخراً حول هذا الشأن.

حنين الحياة السريعة إلى التباطؤ

ارتأت سائحة إنجليزية في مصر أن تزور ساكني القبور في القاهرة. فمنذ أن قرأت تقريراً عنهم، تنتابها مشاعر عديدة ومختلفة وأحياناً متناقضة تتفاوت ما بين شعور بالذنب لا تعرف مصدره وما هيته، والشفقة والأسى على حال هؤلاء الذين ضاقت بهم سبل الحياة ليسكنوا في تلك الأماكن المرعبة خصوصاً الأطفال.

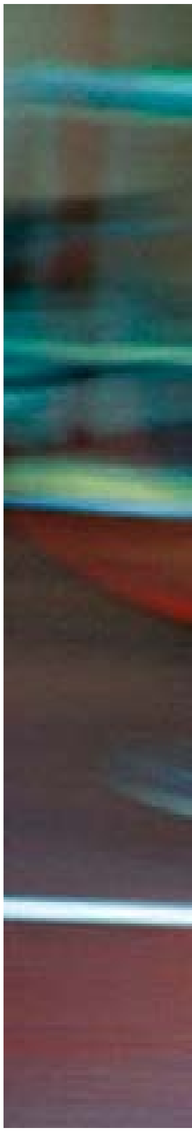
ولما وصلت هناك، كانت النسوة يتجمّعن في الصبحية كعادتهن كل يوم، ويتبادلن الأحاديث ويقهقهن بملء جوارحهن. تقول إنها لم ترَ مثل هذا المشهد في حياتها إطلاقاً، حتى أنها لم تقرأ عنه في القصص الخرافية. مع ذلك شعرت بغيرة كبيرة تدب في كل أوصالها: تمنت أن تكون واحدة منهن، لكنها لا تستطيع. جاءت لترى بؤس الآخرين فكشف هؤلاء بؤسها العميق. قالت في تلك اللحظة «ليس في لندن كلها وربما في إنجلترا امرأة واحدة في هذه اللحظة سعيدة كواحدة من هؤلاء». وعلى رغم ما في هذا القول من مبالغة، فإنه لا يخلو من الدلالات.

مجتمع تحت حصار البحبوحة

فقد أنتجت الحياة المتسارعة في دول العالم المتقدم، مستويات مرتفعة جداً من المعيشة، ورفاهية وبحبوحة لم يشهدها التاريخ إطلاقاً. ولكنها أنتجت أيضاً سلبيات كثيرة يعتقد البعض ومنهم أفنير أوفير في كتابه الجديد الصادر عن مطبعة جامعة أوكسفورد وعنوانه «تحدي البحبوحة»: «إن المجتمع الغربي هو تحت الحصار. لكن عدونا ليس الفقر أو البطالة أو الإرهاب أو أنفلونزا الطيور، إنه أكثر مكراً وأقرب إلى بيوتنا. إنه الثروة التي راكمناها بنجاحاتنا المختلفة، لكن على حساب نوعية الحياة». إزاء ذلك، بدأت تنتشر في معظم دول العالم المتقدم من اليابان مروراً بأمريكا وأوروبا إتجاهات فكرية وحركات ومنظمات وجمعيات تدعو إلى إبطاء سرعة الحياة.

لا وقت للإحساس بالحياة

الشابة لين تومسون توافق مؤلف الكتاب وغيره من الذين يدعون إلى الإقلاع عن السرعة وتقول إنها تخرجت منذ



بضع سنوات في الجامعة بتفوق، وعملت في حقل الإعلان والدعاية. وخلال سنوات أربع حصلت على ثلاث ترقيات حتى وصلت إلى المراتب العليا وأصبحت تتقاضى حوالي 130,000 دولار في السنة. وسكنت في أجمل الشقق وكانت من روّاد أفخم المطاعم. لكن وقتها وأحاديثها واجتماعاتها كانت كلها للعمل. حتى أحلامها وهي نائمة كانت حول العمل. لقد نجحت نجاحاً باهراً، لكنها فجأة انتفضت «ليس عندي وقت للتمتع بهذا النجاح». ومنذ تلك اللحظة تغيرت حياتها بالكامل وطلبت من مسؤولي العمل «التدني» في الوظيفة (Demotion) بدل الترقّي كما يتطلع باقي الناس. وفي أحد الأيام وقد تركت سيارتها وذهبت مشياً إلى العمل ببطء ملحوظ، رأت رجلاً متقدماً في العمر يعرج لإصابته بداء المفاصل فساندته بأن اتكأ عليها إلى أن شعر بالتحسن. في تلك اللحظة قالت أنها لم تشعر بالفرح خلال فترة عملها بأي شيء كما شعرت بهذه المساعدة. يضيف أوفير في كتابه «إن السرعة تصنع النجاح الذي بدوره يصنع البحبوحة التي بدورها تظهر على الدوام توقعات كثيرة فنستغل كل دقيقة من وقتنا لذلك ونصبح مدمنين على ذلك، ونفقد بالتالي متعة الحياة العادية». وقد أصبحت السرعة ذاتية المرجعية. هي الهدف بحد ذاتها وليست وسيلة لهدف آخر. ويرى بعض المفكرين أن هذه السرعة هي مثل سرعة دقات القلب عند الشيخوخة، ليست دليل عافية.

العولمة والتكنولوجيا.. زيادة السرعة

مع انتشار التكنولوجيات المتعددة الاستعمالات مثل الهاتف النقال والكمبيوتر المحمول فإن السرعة في إنجاز الأعمال بدل أن تولد وقتاً حراً قد شغلت الوقت خارج دوام العمل، وحرمت الفرد من كثير من الأشياء الجميلة التي تعطي معنى للحياة مثل العائلة والأصدقاء والجماعة المشتركة. وتصبح السرعة إدماناً وطريقة حياة بحد ذاتها. ويقول جوف سمول في كتاب جديد له إن دوام العمل العادي في الغرب أصبح ما بين 60 و 80 ساعة في الأسبوع وأن أيام السبت أصبحت أيام عمل عادية، وإذا بقي بعض الوقت أيام الآحاد فيكون المرء مجهداً لا يستطيع الحراك. ولأن سوق العولمة المفتوح 24 ساعة بسبب الفارق في الوقت فإن كثيراً من الشركات الأمريكية مثلاً قد حولت دوام العمل على هذا المدار. وقد امتدت مهمات العمل إلى البيت وإلى كل مكان آخر، وكثير من العاملين أصبحوا تحت الطلب (مثل الأطباء) على مدار الساعة. يضيف سمول الذي يدعو في كتابه إلى منحى آخر إزاء سرعة الحياة «لأن حياتي أصبحت سباقاً مع الساعة، أصبحت دائماً في عجلة من أمري ألهث وراء توافر دقيقة من هنا ودقيقة من هناك. فجأة رأيت نفسي بينما كنت أداعب ابني في آخر اليوم أنني أستعجل نهاية المهمة. رباه لقد أصبحت هذه اللحظة مثل لحظات العمل الأخرى». ويضيف «أيقنت عندئذ السبب الحقيقي وراء نسب الطلاق العالية وتفكك العائلات المخيف وتشتت العائلة الواحدة في عدة أمكنة. كما أن مستويات الكآبة والضغط والأمراض العقلية وارتفاع الديون الخاصة، ارتفعت إلى مستويات مخيفة».

وتأثير هذا التسارع في العمل والمدرسة والمطاعم وغيرها كبير على الصحة. ففي اليابان انتشر نوع غريب من المرض اسمه كاروشي (Karoshi) أو الموت بسبب السرعة وكثرة العمل. وفي مقالة في النيويورك تايمز بتاريخ 5 سبتمبر 2004م، يقول جون شوارتز إن كثيراً من الأمراض في الولايات المتحدة من الضغط إلى أمراض القلب والجلطات والسكري وإضعاف جهاز المناعة سببها أمكنة العمل. فهل هذه الظاهرة طبيعية؟ سرعة في كل شيء ومع ذلك سمنة وأمراض متعددة كما أعلاه؟

الدعوة إلى التباطؤ

إزاء هذا النوع من الحياة السريعة ومخاطرها العديدة على الفرد والمجتمع وعلى الصحة، أخذت تبرز دعوات كثيرة في كافة أنحاء العالم المتقدم تدعو إلى مناهضتها. وقد أنشئت جمعيات كثيرة تدعو إلى التباطؤ في التفكير والرياضة والتمارين وإنشاء مطاعم بطيئة وفنادق بطيئة وحتى هندسة معمارية بطيئة.

وقد أنشئت في إيطاليا سنة 1986م «حركة الطعام البطيئة» التي تمثلت رافقها بعض المطاعم البطيئة التي تقدم لروادها طعاماً بطيئاً أي بمعنى يشبه الطعام في البيت حيث إن كل مكونات الطعام طازجة ويتم تجهيزها حسب الطلب. وتدعو هذه المطاعم إلى التلذذ بالأكل على مهل بدل جرفه إلى الأحشاء بسرعة. كما تدعو إلى المشاركة في الخبرة والصناعة والأكل مع الأصدقاء والأقارب. ومنذ ذلك التاريخ، انتشرت هذه الظاهرة من إيطاليا إلى حوالي 100 بلد وأصبح هناك عشرات الآلاف من الأعضاء وفي الولايات المتحدة حوالي 150 مقصفاً من هذا النوع.

وللدلالة على مدى انتشار هذه الظاهرة فقد أخذت تبرز تسميات خاصة بكل بلد حول الموضوع نفسه مستعملين الكلمة الإنجليزية (Slow) التي امتد معناها ليصبح الطريقة الأفضل والأكثر توازناً لمقاربة الأشياء. ففي إيطاليا يستعملون «الأكل البطيء» و«المدن البطيئة». وفي اليابان يستعملون «الحياة البطيئة». وفي هولندا والدانمارك يستعملون «شبكة الحياة البطيئة». وفي أمريكا دعا أحد الأساتذة التربويون إلى «مدارس بطيئة». ويعلق الصحافي كارل هونور بالقول إن هذه الظواهر ليست كظاهرة الهيبي وغيرها التي ظهرت في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، بل إنها أعمق من ذلك بكثير لأنها بدأت تمتد إلى مناح كثيرة من الحياة. فمثلاً المشي بدل ركوب السيارة، إعطاء الأولاد وقتاً أطول، القراءة بدل مشاهدة التلفزيون، اتباع وسائل ترفيه تقليدية مثل الاهتمام بالحديقة أو الخياطة، الانقطاع من وقت لآخر عن التكنولوجيا. كما امتدت هذه الظاهرة إلى الهندسة المعمارية وهندسة الديكور. وتقول مصممة الديكور الداخلي لوري أبرامس إن فلسفتها هي إظهار الرغبة في التباطؤ والتمتع بالحياة العادية والأشياء البسيطة العادية مع الأصدقاء والأقارب.

صورة شخصية

يعيش اليوم عزلة شبة دائمة، لا تخرجه منها إلا المناسبات الكبيرة. إنه محمود سالم الكاتب الصحافي والروائي الرائد في كتابة القصة البوليسية للصغار، وربما كان عن حق أيضاً رائد الرواية البوليسية العربية عموماً كما كتبت ذات مرة الشاعرة المصرية فاطمة ناعوت التي ترسم لنا هنا صورته الشخصية.



محمود سالم مع الشاعرة فاطمة ناعوت

محمود سالم
مع العزلة.. لا مع الاعتزال

يذكر الآلاف ممن عاشوا طفولتهم في الستينيات من القرن الماضي كيف كان الواحد منهم يركض إلى المكتبة للحصول على نسخة من «الألغاز» قبل أن يخطفها الأولاد الآخرون، فيمضي الشهر يتوسَّل لاستعارتها.

و «ألغاز» هو الاسم الذي أطلقة القرّاء الفتية في مصر والوطن العربي على تلك الكتيبات الصغيرة التي تحكي عن مغامرات بوليسية، يقوم بها خمسة أولاد صغار في مكافحة الجريمة من دون إراقة دماءٍ ولا عنف، وبالاعتماد فقط على قوة العقل وفك طلاسم الجريمة ثم تقديم المجرم للعدالة.

استمتع الصغار العرب بكل تلك الشقاوات والمكائد الطفولية التي يدبِّرها خمسة من الأطفال ليوقعوا بلص أو ليشاكسوا الشاويش (الشرطي).

أكثر من مئة مغامرة كتبها محمود سالم قبل أربعة عقود من الزمن وأعادت دار المعارف طبعها أربع عشرة مرة، وفي كل مرة كانت نسختها المائة ألف تنفد من المكتبات فور صدورها.

نشأتة على شواطئ البحار

ولد محمود سالم في 20 مارس من العام 1929م في الإسكندرية. وكعادة أطفال مصر آنذاك، دخل الكتّاب حيث كان الشيخ حسن الأكوع يعلّم تلامذتة القرآن الكريم، وكان هولاء يعيدون على مسامعه ما حفظوه منه وهم يغزلون خيوط الحرير على النول. وكان الأثرياء يتهافتون على إنتاج هؤلاء الصغار لأنه مصنوع من حرير دود القز الثمين.

جاب محمود الكثير من موانئ مصر بسبب عمل أبيه كضابط في البحرية. الأمر الذي أثرى خبراته التأملية والبصرية. وفي هذا الصدد يقول «تربيت على شواطئ البحار بحكم عمل أبي، طفلاً منعزلاً يعيش عالمة الخاص بعيداً عن البيت، أخرج وحيداً وعدتي صنارة لصيد السمك، وفخ لصيد العصافير، وصبر في انتظار السمكة والعصفور، وعصا أربط في نهايتها علماً أبيض تتوسطه دائرة سوداء كعلم القراصنة. طعامي هو البلح المتساقط على تلال شواطئ بحيرة «أدكو» والجُمِّيز والتوت من الأشجار، والطماطم والخيار من الحقول المجاورة لبحيرة قارون».

■ «الوحدة تفتح باب التأمل.. والتأمل يفتح باب الدهشة.. والدهشة تفتح باب الإبداع»

ويضيف: «كانت رحلتي تبدأ عند الفجر. أنزل في مياه البحيرة المثلَّجة لأجرف الجمبري الصغير كَطُعْم لصنارتي. وكثيراً ما اصطدت أسماكاً كبيرة أبطأت حركتها برودة المياه، فاستسلمت للجرافة كالنائمة. وبجواري، في حقيبة من قماش صنعتها أمي، بضع روايات أنهمك في قراءتها في انتظار غمزه السمكة، أو زقزقة العصفور الذي وقع في الفخ، أو صوت بلحة الزغلول الساقطة من نخلة عالية. كنت أعرف مكان سقوطها من بين مئات الأشجار بحكم التدريب المتواصل. كنت أقوم برحلتي هذه حتى أيام الدراسة التي كنت أهرب منها، وأعود بعد الغروب لأنال من أبي توبيخاً اعتدت عليه. أما أمي فكانت تستقبلني باسمة معاتبة، ثم تأخذني للاستحمام، لأقوم أنا بعد ذلك بإعداد طعامي: عصافيري وسمكاتي التي لم أكن أقبل طعاماً آخر غيرها».

إلى الكتابة في السنوات العاصفة

ومن مرحلة الفتوة والشباب يذكر محمود سالم أنه كان أول طالب تطارده المباحث بعدما أضرم النار بمدرج الكيمياء في مدرسة دمياط الثانوية عام 1944م، وذلك في إطار الإضرابات والاضطرابات التي عصفت بمصر آنذاك.

أراد أن يصبح ضابطاً في الجيش فقدَّم أوراقه إلى سلاح الطيران في الكلية الحربية، واجتاز الاختبارات، لكنه سرعان ما تعرض للفصل لأسباب سياسية.

توجه من الكلية الحربية إلى كلية الحقوق، حيث كان من بين زملائه عبدالرؤوف الريدي الذي أصبح لاحقاً سفيراً لمصر في واشنطن، وأسامة الباز مستشار رئيس الجمهورية، وغيرهما... ومن كلية الحقوق، حوّل أوراقه إلى كلية الآداب، ثم إلى الخدمة الاجتماعية. وحين طُلِب إليه إجراء بحث حول مستشفى للأمراض العقلية، هاله ما رأى فيه، وأصابة ذعر دفعه إلى ترك الكلية نهائياً. وانخرط في العمل موظفاً في وزارة الشؤون الاجتماعية، وتعرف هناك على زميلة له ستصبح زوجته عام 1957م.

خاض محمود معركة العدوان الثلاثي عام 1956م كصحافي في مجلة «التحرير». واستمر في العمل في المجلة نفسها كسكرتير تحرير حتى عام 1959م، ثم في قسم الحوادث بجريدة الجمهورية حتى عام 1962م، ثم ترأس تحرير مجلة «الإذاعة والتلفزيون».

القصص البوليسية

وفي الستينيات، راح محمود سالم يكتب سلسلته الشهرية حول المغامرين الخمسة الصغار، وينشرها في مجلة «سمير» وبدءاً من العام 1968م، بدأ بنشرها كأعمال مستقلة. وفي العام 1971م ولأسباب سياسية مرة أخرى، وجد الرجل نفسه خارج وظيفته، فبدأ العمل ككاتب حر.

كان بعض النقاد يأخذون على أبطال سلسلة المغامرين الصغار كونهم جميعاً من المصريين. فأصدر محمود سالم في العام 1974م سلسلة جديدة بلغ عدد أبطالها ثلاثة عشر فتى وفتاة ينتمون إلى معظم الدول العربية، ويصف الكاتب نفسه مهمتهم بأنها كانت «رمزياً السعي إلى الانتصار على إسرائيل». وحول هذا الإنتاج، كتب مرة الروائي التونسي كمال العيادي مخاطباً محمود سالم بقوله: «أنا من جيل كبر في خيرك يا أستاذ. وكل ما كتبت محفوظ في قلبي ومكتبتي، وأعد لأن يكون من أهم ما عند ابنتي ياسمين لتورثه إلى أبنائها من بعدها».

العودة إلى العزلة

حياة العزلة التي عاد إليها محمود سالم في السنوات الأخيرة، لا تعود أبداً إلى انحسار الضوء عنه، بل هي أشبه بعودة إلى رفيقة الطفولة. «فالوحدة تفتح باب التأمل، والتأمل يفتح باب الدهشة، والدهشة تفتح باب الإبداع». ولذا تراه لا يترك عزلته اليوم، إلا في مناسبات كبيرة، كأن يدعوه الكاتب رجاء النقاش للاحتفاء بحصول الطيب صالح على جائزة الرواية العربية من المجلس الأعلى للثقافة بمصر، وهي المناسبة التي التقته فيها القافلة.

والعزلة لا تعني الاعتزال. فقد عاد محمود سالم إلى الكتابة مؤخراً وأنجز ثلاثة «ألغاز» نشرتها بالفعل مجلة «علاء الدين» المصرية. وأما مجموعته القديمة التي بنت أبناء جيلنا، فيقول عنها إن دار «نهضة مصر» تحاول الآن إعادة طبعها، وأنه سيشرع في كتابة الجديد منها، بأبطالها أنفسهم الذين طاردناهم من شارع إلى شارع، ومن مغامرة إلى مغامرة: تختخ، لوزة، نوسة، محب، عاطف والكلب زنجر والشاويش فرقع والمفتش سامي. وكأس الليمون المثلج الذي تحمله لوزة إلى المفتش سامي كرشوة ليحكي لها عن مغامرة جديدة.

في فن الغناء العربي لـون قلّما لفت أنظار النقّاد إليه بالرغم من شيوعه. إنه الغناء الساخر الذي يتضمَّن إحساساً بالفكاهة وخفة الظل، فينتـزع الابتسامات وأحياناً ضحكات المستمعين بدلاً من الآهات الصادرة عن المشاعر الجريحة.

فيمـا يلـي مساهمتان تتنـاولان سيـرة الغناء العربـي الساخر، وحسّ الفكاهـة المميّز لهذا اللـون الفنـي الجميـل، الذي كان دائمـاً على مستـوى الأغنيات الرومانسيـة الكلاسيكية الجادة لناحيـة ارتباطه بالمناخ الاجتماعي والثقافي وحتى التاريخي الذي ظهر وازدهر فيه.

حسّ الفكاهة في الأغنية العربية



1 روح النكتة في الأغنية المصرية

أحمد السماحي*

حين نسرد تاريخ الضحك الغنائي أو كوميديا الفن الساخر لا بد وأن يبرز لنا على الفور اسم بديع خيرى الذي ولد بالقاهرة عام 1893م. ورغم أنه عاش زمن العصامية الفكرية والفنية والسياسية، إلا أنه يرتبط إلى حد كبير بالمسرح الفكاهي والفن الغنائي، وقد أظهر، من خلال أعماله الغزيرة، خفة الظل التي جعلت نجيب الريحاني يغني بصوته الأجش في فيلم (غزل البنات):

عيني بترف
وراسي بتلف
وعقلي فاضله دقيقة ويخف

* كاتب وناقد من مصر

وكذلك تحية كاريوكا التي غنّت في فيلم لعبة الست (يا خارجة من باب الحمام وكل خد عليه خوخة). وهذا دليل عملي على أن الكلمة الضاحكة لا تشترط مطرباً محترفاً حتى تصل إلى هدفها، بل يلزمها فقط قدر ضئيل من الزخرف الموسيقي الذي يضفي عليها رونقاً يستسيغه أبناء الطبقات المختلفة، خاصة في الأحياء الشعبية التي وضعت لبنات هذا الفن عبر المواقف الحياتية اليومية التي يعيشها الصنّاع والتجار والسكان.

ما بين الدور والطقطوقة والموال الشعبي ظلت ملامح الأغنية المصرية طوال القرنين الماضيين تتنوع ما بين السياسي الساخر بسبب موجات الاستعمار، وبين الكوميدي الاجتماعي الذي يرصد حركة الشارع وما يحمله في أزقته الضيقة من مواقف ومفارقات، يهدف من خلالها الشعراء والزجالون إلى الفضفضة والتحايل على ظروف الحياة بالضحك.

بيرم المؤسس

ومع كل طبقة جديدة تظهر، أو ظاهرة فريدة تبدو تحت سماء مصر، كانت الفكاهة حاضرة تسري مع مياه النيل، يتجرعها





الجمهور ضاحكاً..

الشعراء فتتجدد على الفور التربة الشعرية الساخرة، وتفيض إبداعاً يجسِّد آمال وطموحات البسطاء والعامة.

وأبرز تلك المواهب التي كثيراً ما تغنت بها الطبقات الشعبية موهبة بيرم التونسي الذي يعد أمير شعراء العامية بكل لهجاتها من المحيط إلى الخليج، وباعث نهضتها الأصيلة وانتشالها من الابتذال وتعابير التهتك في طقاطيق التدمير الغنائي والمسرح الخليع ورقص الصالات.

كان بيرم التونسي وأبو السعود الإبياري وإسماعيل ياسين وشكوكو أبرز نجومها، أما اليوم فقد سقطت

وساعده في ذلك خديوي مصر عبر الفرمان الذي أصدره عام 1890م بحيث جعل حرفة الآلاتية (الموسيقيين) ضمن طوائف الصناديقية والسروجية والقلافطية والطرشجية والسقائين، وهو الأمر الذي مهّد لبدء نشاط المؤسسات العملاقة في تسجيل ونشر الأغنيات التي أخذت تسمية (الطقاطيق)، والتي تربع على عرش إنتاجها التعبيري الشيخ يونس القاضي، وقد وجد هذا الرجل له عوناً من حناجر المشاهير من أمثال سلطانة الطرب منيرة المهدية (التي قيل إن مجلس الوزراء كان ينعقد في عوامتها) وذلك ضماناً لرواج مثل هذه الأغنيات والتي منها على سبيل المثال:

«أرخي الستارة اللي في ريحنا
أحسن جيرانا تجرحنا
يافرحنين، يامبسوطين
يامزقططين بالقوي يا احنا
دلوقتي أنا بس اللي ارتحت
لا حد فوق ولا حد تحت
يعرفني جيت ولا روحت
ولا حد يقدر يلمحنا»

أما السخرية الضاحكة التي برع فيها التونسي فتبعد تماماً عن مخاطبة الغرائز. إنها سخرية تلجأ إلى الرسم معتمدة على المبالغة، وكثيراً ما تتحقق على مستوى (الهجاء) الشخصي أو (الهجاء) العام الذي يستهدف غرضاً إصلاحياً.

ويعرف بيرم أنه إذا انتقد ساخراً فسيتعرض للشتم ولذلك يقول مؤكداً التزامه:

«من قبل ما أكتب أنا عارف
القول ضايع
والأجر بالتأكيد ذاهب
حسب الشايع
والشتم حايجيني مسوجر
من واد صايع»

ربما لم تجد تلك الكلمات لها طريقاً نحو التلحين والغناء، لكن جراب التونسي حوى فيما بعد العديد من القصائد المغناة والتي بها دخل سيد درويش عالم الشهرة والمجد وجدد من خلالها ملامح الغناء وخرج


حسن فايق وإسماعيل ياسين

بالتخت الموسيقي إلى الشارع الذي أضفى على الطرب روح الدعابة والفكاهة.

الإبياري.. نجم الكوميديا الغنائية من ظهورها حتى اضمحلالها

من بعد بيرم، ظلت الأغنية الفكاهية لسان حال المصريين، خاصة بظهور أبو السعود الإبياري الذي ارتبط ظهور واضمحلال الكوميديا الغنائية بظهور واختفاء كتاباته في هذا المجال.

وقد عرف من بعده كثيرون ارتبطت أسماؤهم بلون الغناء الفكاهي فليس فريد الأطرش ومحمد فوزي وأنور وجدي هم فقط صناع هذه الأفلام في عالم الغناء والتلحين، بل هناك أيضاً محمد الكحلاوي وسعد عبدالوهاب وكارم محمود وعبدالعزيز محمود ومن النساء أحلام ورجاء عبده وشادية وصباح ونعيمة عاكف الذين برعوا في تلك الألوان.

لكن يظل لعبق الكوميديا الغنائية في أربعينيات القرن الماضي مذاق خاص. وفي هذا الإطار يقدِّم لنا الإبياري مونولوج العز الذي يقول فيه إسماعيل ياسين:

«ياعيني ع العز ياعيني ع العز
دى عيشته تلز وحظه يهز
ياعيني ع العز

غرقان في حرير وهدوم كشمير
وخدم وحشم وجواري
أنا صاحي تمام ولاّ دى أحلام
وشرف ولدتي ما أنا دارى»

وربما نشعر هنا بأن الكلمات تحوي بداخلها موسيقى وقافية استطاع عزت الجاهلي أن يصوغ من خلالها لحناً، لكن المؤلف نفسه كتب في مشهد آخر كلاماً لا يمكن أن يخضع لقواعد اللحن ومع ذلك صاغه لحنياً محمود الشريف وغناه شكوكو في اسكتش (ياحدق) وتقول كلماته:

هيص مصمص بص
واترقص على واحدة ونص
مطرح ماترسي دقلها
عيشة أهل العز تلز
هيص واتمتع
دول كتاكيتهم زي الوز
فرنك قطع
وانهار نادي وزي الفل
شمر عمر مخك كل
رزق وجالك.. وهنيالك»

ورغم غرابة المفردات التي استخدمها الشاعر ستجد نفسك مبتسماً وأنت ترددها مع شكوكو الذي غنى أيضاً من ألحان الموسيقار محمد عبدالوهاب «يا جارحة القلب بإزازة لماذا الظلم ده لماذا». ويذهب بنا الإبيارى إلى الريف الذي يتغنى به بقوله:

«يا سلام على جو الريف
يا سلام يا سلام يا سلام
فيه أكل نظيف
مش عايزة كلام
اتغدى فراخ واتعشى حمام
ولاحد يقولي حسابك كام
ياسلام ياسلام»

معارضة الأغنيات الطربية

ولم يتوقف الأمر عند حد الكتابة خصيصاً لمطرب بعينه وتوظيفه درامياً في فيلم أو مسرحية أو أوبريت يقدم في أمسية صيفية لينعش ويشنِّف آذان محبي الطرب الضاحك بل بلغت السخرية مداها إلى درجة معارضة الأغاني الطربية الأصيلة بأخرى أكثر سخرية مثل أغنية أم كلثوم (انتي فاكراني والا

نسياني)، والتي غناها إسماعيل ياسين قائلاً:

انتي فاكراني
والا نسياني
ياللي فالقاني
ياللي كيداني

وفي مقام آخر من تأليف فتحي قورة ولحن محمد فوزي غنى إسماعيل ياسين أغنية (أيظن لنجاة من تأليف نزار قباني وتلحين عبدالوهاب) في معارضة أخرى:

«أيظن أني لعبة بيديه
أيظن أني كورة بين رجليه»

من أم كلثوم إلى شادية

أما سيدة الغناء العربي أم كلثوم رغم ما عرف عن رحلتها الفنية الطويلة من رصانة، فقد كانت تتمتع بخفة دم وقدمت أغنية الفوازير التي تتمتع بروح لا تبعد كثيراً عن أجوائها الكلثومية وتقول بعض كلماتها:

القبلة.. القبلة.. القبلة
القبلة إن كانت للملهوف
اللي على ورد الخد يطوف
ياخدها بدال الواحدة ألوف

محمود شكوكو وكاريكاتير الأغنية الجادة



تخصص المونولوجست الأشهر محمود شكوكو، باستخدام ما يمكن تسميته فن معارضة القصائد الغنائية الجادة بالكاريكاتير الغنائي، وذلك باختيار بيت شهير من قصيدة غنائية رصينة، والاحتفاظ بالشطر الأول من البيت بلغته الفصحى الأصيلة، ثم تكملة البيت بشطر مستعار باللهجة العامية المصرية، وبتشويه كامل للموضوع، كما هو معبر عنه في الشطر الأول من البيت.
فقد أخذ شكوكو مثلاً مطلع إحدى أشهر القصائد الغنائية للمطرب الكبير سلامة حجازي، والذي يقول:

سمحت بإرسال الدموع محاجري

وأكمله بالشكل الساخر التالي:

سمحت بإرسال الدموع محاجري
لما حبيب القلب خد بعضه وجري

وكان شكوكو يحرص لضمان الحد الأعلى من السخرية، على أن تكون القصيدة المغناة، قد حظيت بشهرة واسعة في كل أرجاء الوطن العربي، مثل قصيدة «الأطلال» التي استعار منها البيت الأشهر القائل:

أعطني حريتي، أطلق يديا
إنني أعطيت، ما استبقيت شيًا

فعالجه على طريقته حتى أصبح:

أعطني حريتي، أطلق يديًا
أصلي نازل في المحطة اللي جاية

ولم تنج منه القصيدة الأخيرة الشهيرة لعبدالحليم حافظ (ونزار قباني ومحمد الموجي) قارئة الفنجان، فتناول المقطع الذي مطلعه:

بحياتك يا ولدي امرأة
عيناها، سبحان المعبود

وأجرى عليه التعديل الساخر فأصبح:

بحياتك يا ولدي امرأة
بهواها حتطب يا محمود

وظل محمود شكوكو يمارس هذا الفن الساخر حتى آخر يوم في حياته الفنية.

أما موسيقار الأجيال فقدم أكثر من تابلوه طريف أبرزها من اللون الخفيف (فيك عشرة كوتشينة في البلكونة). ومن بعده فريد الأطرش الذي اتسمت أفلامه الأولى بالعديد من تلك الأغاني، مثل الدويتو الشهير له مع شادية (يسلام على حبي وحبك - وياما جوا الدولاب مظاليم / بيقاسوا وحالتهم جيم).

أما شاديه نفسها فلها باع طويل في ألوان الغناء الطربي الفكاهي الذي عرف عنها في بداية حياتها الفنية نختار بعضا منه (ياواد ريداك / وقلبي معاك / الهاشا باشاتك / والباشا باشاتوك - ياترمومتر ياما بيقاسوا العاشقين / من نظرة فابتسامة / لحرارة أربعين). ولا بد لمتابع مسيرة الفكاهة الغنائية المصرية أن يذكر عبدالعزيز محمود في (ياشبشب الهنا / ياريتني كنت أنا) وصباح: (أروح ماروحشي - والآنسة ماما) ونور الهدى في: (يا أوتوموبيل يا جميل محلاك)، وهدى سلطان: (ياتاكسي الغرام) وفايزة في دويتو مع إسماعيل ياسين: (مالك ياحبيب الروح / مالك، فيرد إسماعيل: راح أموت بالسكتة الحبية).

انهيار الأغنية التي صمدت طويلاً

غير أن جملة التحولات التي طرأت على الحياة الثقافية والاجتماعية في مصر جعلت كتّاب الأغاني يعتدون على الطرب الفكاهي ويوجهون ذائقة الجمهور نحو عصر التراجع والتردي. فطغت سريالية وعبثية أحمد عدوية على المشهد وألقت بالطين على الثوب الغنائي النقي الذي ظل صامداً في وجه حالات التعدي طويلاً.

فنجح (الريس بيره) ببراعة في تجريف الأغنية وجعل الساحة أرضاً بور تنعق فيها الغربان مثل: (السح الدح امبو - قلقشندي دبح كبشة - يامحلا مرقة لحم كبشة). وعلى الرغم من عبثية الكلمات وبعدها تماماً عن الروح المصرية التواقة إلى النكته المفهومة والجملة اللحنية الساخرة الهادفة إلا أنه سرعان ما سرت تلك الألوان القبيحة سريان النار في الهشيم وتفاعل معها الجمهور، ولعل تلك الموجة قد دشنت عصراً جديداً من الأغاني السوقية التي انتشرت في أفلام السينما وعلى خشبات المسرح حتى يومنا هذا.

صلاح جاهين: لون عميق من السخرية

تجدر الإشارة في هذا الموضوع إلى أن دخول الفنان الشامل صلاح جاهين ميدان الشعر الغنائي في النصف الثاني من القرن العشرين، بمواهبه المتعددة، خاصة في فن الكاريكاتير، قد طعم الشعر الغنائي في مصر بلون فيه الكثير من خفة الظل لكن فيه أيضاً ملامح السخرية المريرة حيناً، المبتهجة حيناً آخر، كما هي الحياة تماماً. وقد ظهرت براعة جاهين في هذا اللون، عندما شكل مع الملحن كمال الطويل ثنائياً يزود صوت سعاد حسني بلون من الأغنيات السينمائية والتلفزيونية المتميزة بالملامح المشار إليها. من ذلك، مثلاً، أغنية «يا واد يا تقيل» في الفيلم الشهير «خلي بالك من زوزو»، التي فيها عبارات جديدة على الكلام الغنائي العربي، مثل:

عنده برود أعصاب اسم الله
ولا جرَّاح بريطاني

أو مثل

ما تقولش أمين شرطة اسم الله
والا دبلوماسي

أو أغنية الجو ربيع، في فيلم «أميرة حبي أنا»، التي يقول فيها:

الدنيا ربيع، والجو بديع
قفّلي على كل المواضيع

كما يقول في موقع آخر من الأغنية نفسها:

قلّك فرفشة اليوم
ما تأجلهاش للغد

وقد برزت عبقرية صلاح جاهين في هذا اللون بالذات في أغنيات سعاد حسني في المسلسل التلفزيوني الشهير «هو وهي» خاصة في مقدمة البرنامج الغنائية، التي يتحدث فيها صلاح جاهين في مشاهد ساخرة عبقرية من الحياة اليومية عن الصراع الأزلي بين الرجل والمرأة، كما يبدو في المشاهد الشعبية الساخرة التي صاغتها عبقرية صلاح جاهين في أوبريت «الليلة الكبيرة» التي لحنها سيد مكاوي.



جريدة السفير اللبنانية

2 الفكاهة والسخرية في الأغنية اللبنانية

إلياس سحّاب*

تتميز الأغنية في لبنان، عنها في سائر الأقطار العربية الأخرى، بعلاقة لافتة مع الفكاهة والسخرية، وذلك لأسباب تاريخية تتعلَّق بظروف ولادة الأغنية المحترفة في لبنان في أواخر النصف الأول من القرن العشرين.

فإذا استثنينا الغناء الشعبي القديم، فإن الغناء في المدن اللبنانية الكبرى كان يتلقى ويتداول الغناء العربي الكلاسيكي الوافد من القاهرة.

إضافة إلى ذلك، جاء انتشار الأفلام المصرية الغنائية وغير الغنائية، وظهور إذاعة القاهرة، كأول إذاعة رسمية عربية في عقد الثلاثينيات ليؤدي إلى اعتماد اللهجة المصرية في الغناء اللبناني، من ذلك الزمن المبكِّر.

الاستقلال.. وريادة عمر الزعنّي

بعدما ولدت دولة الاستقلال في لبنان عام 1943م، اتخذ رياض الصلح، أول رئيس وزراء لبناني في عهد الاستقلال، إجراءً مهماً بضرورة تشجيع الشعراء اللبنانيين على كتابة الشعر الغنائي، باللهجة اللبنانية المحلية بدل اللهجة المصرية. وكانت دار الإذاعة اللبنانية الوليدة تأسست في العام 1938م، ميدان تطبيق القرار على يد لجنة من بعض شعراء العامية اللبنانية، كان من أبرز أعضائها الفنان اللبناني الانتقادي المعروف عمر الزعني.

في هذا الإطار التاريخي انطلقت الأغنية اللبنانية المحترفة بين الثلاثينيات والأربعينيات، لكن لا بد من الإشارة إلى أنه قبل ولادة الألوان ذات التعبير الرومانسي والدرامي والكلاسيكي، كان الظهور الأول للغناء باللهجة اللبنانية، محصوراً في عقد الثلاثينيات بالأغنيات الخفيفة التي تدور مواضيعها على النقد الاجتماعي المستند بالضرورة إلى اللون الفكاهي الساخر. وكان من نجوم تلك البدايات الأولى فنان لبناني من آل قرانوح إلى جانب الفنان السوري الانتقادي عبدالله المدرس.

النقد الاجتماعي

لكن من الممكن القول إن دخول عمر الزعني إلى هذا الميدان، شاعراً وملحناً ومؤدياً غنائياً، كان الأساس الصلب لرصيد الفكاهة والسخرية في الأغنية اللبنانية، نمثل على ذلك بنماذج مختلفة من أغنيات عمر الزعني الانتقادية.

النموذج الأول ينتمي إلى النقد الاجتماعي، الذي يسخر من المفارقة بين المستوى المزري لحياة محدودي الدخل في لبنان، والمستوى المرفه لحياة الخيل في إسطبلات الطبقة اللبنانية الميسورة التي كان بعض أفرادها من هواة تربية خيول السباق.

يقول عمر الزعني في أغنيته الشهيرة «لو كنت حصان»:

لو كنت حصان، في بيت سرسق
باكل فستق، باكل بندق
ماكنت بسرق مثل الزعران
لو كنت حصان...

ويقول عمر الزعني في نقد الحياة الزوجية غير المتوازنة بين سلطة الزوج وسلطة الزوجة في بيت الزوجية:

رخاوة الديك
في القن يا شريك
هي بتعمل من الديك فرخة
وهي بتعمل من الفرخة ديك

الضحكة.. قناع المواجهة السياسية

طبعاً، لم تقتصر أغنيات عمر الزعني الفكاهية الساخرة على النقد الاجتماعي، بل تجاوزتها بشكل موسع وجزئي إلى النقد السياسي الحاد والمباشر، في عهدي الانتداب الفرنسي، والاستقلال الوطني، الأمر الذي أدخله السجن في أكثر من مناسبة. ولعل أشهر أغنياته الانتقادية في عهد الانتداب الفرنسي، هي الأغنية التي انتقد فيها السلطة الصُوَرية لرئيس الجمهورية اللبنانية شارل دباس. وقد استعار الزعني في هذه الأغنية المقارنة بين قبطان السفينة (الريّس، باللهجة العامية) ورئيس الجمهورية، كما استعار في اللحن والغناء، باللحن الشعبي الذي يخاطب به البحارة قبطانهم. يقول مطلع أغنية عمر الزعني، الواضح الإسقاطات السياسية:

بدنا بحرية يا ريّس
صافيين النية يا ريّس
بزنود قوية يا ريّس

* كاتب وناقد من لبنان



مشهد من إحدى مسرحيات فيروز الغنائية

ومن المقاطع الشهيرة في الأغنية:

البحر جبال يا ريّس
قطّع الحبال يا ريّس
ما كان عالبال يا ريّس
تتنصّب ريّس يا ريّس

ومع أن الزعني كتب وغنّى كثيراً في مديح العهد الاستقلالي الأول، وزعيمه رئيس الجمهورية بشارة الخوري، فإنه لم يتأخر في النقد اللاذع لسلبيات العهد الاستقلالي الأول، خاصة عندما قرر الرئيس بشارة الخوري مخالفة الدستور، وتجديد ولايته في رئاسة الجمهورية، فغنى له إحدى أشهر أغنياته في النقد السياسي:

جددلو ولا تفزع
خليه قاعد ومربع
بيضل أسلم من غيره
وأضمن للعهد وأنفع

استمراريتها إلى جانب الأنماط الرصينة

ولكن هذا النمط من الفكاهة والسخرية الذي كان يحتل المساحة الأوسع في بدايات الأغنية اللبنانية، ما لبث أن تراجع أمام تدفق نماذج الأغنية اللبنانية الوليدة ذات الأنماط الكلاسيكية، الرومانسية والوصفية والوطنية، فأصبحت هذه النماذج الرصينة تحتل الساحة وتتصاعد، حتى بلغت ذروتها في عقدي الخمسينيات والستينيات. غير أن هذا لم يمنع بعض المغنين والملحنين والشعراء الجادين من استحضار الفكاهة والسخرية في الأغاني، كلما استدعى الموقف ذلك.

من أوائل هؤلاء، الفنان والمخرج السينمائي محمد سلمان، الذي ظهر مغنياً إلى جانب ليلى مراد في فيلمها الشهير «قلبي دليلي» في العام 1947م، حتى أنه كان محمد سلمان يُعتبر مطرباً بارزاً في لبنان قبل ظهور نجم وديع الصافي، وكانت طبيعة سلمان المرحة ومواهبه المحدودة في التلحين والغناء، تدفعه إلى إتقان لون الأغنية الخفيفة المعتمدة على الفكاهة والسخرية.

لكن هذه البدايات الخفيفة المتواضعة لم تمنع اقتحام اللون الفكاهي الساخر، ألحان بعض كبار الملحنين وكبار المطربين، خاصة بعض المواقف التي كانت تحفل بها مسرحيات الأخوين الرحباني. ولعل أشهرها الحوارية الغنائية الشهيرة بين المطرب نصري شمس الدين والمطربة فيروز، في المسرحية التي كان نصري شمس الدين يؤدي فيها دور جد فيروز (أبو ديب)، وكان يهوى الصيد، لكنه مثل كثير من الصيادين يحب المبالغة في الحديث عن غزواته كلما عاد من رحلة صيد، حتى ادعى لحفيدته أنه اصطاد تمساحاً، وهو في الغابة، فاضطرت حفيدته فيروز إلى تذكيره بأن الغابة ليست نهر الأمازون.

فيلمون وهبي.. موزِّع الفكاهة في كل اتجاه

الغريب أن فيلمون وهبي، الملحن الكبير، الذي زوَّد فيروز وصباح بعدد وافر من أعظم أغنياتهما في عصر النهضة الموسيقية الغنائية اللبنانية، قد لجأ إلى اللون الفكاهي الساخر، عندما تعاون مع وديع الصافي، فكانت حصيلة هذا التعاون أغنيتين من لون الدعابة الساخرة، تقول أولاهما:

بترحلك مشوار
قلتلها يا ريت
قالت لكن أوعى تغار
حوالي العشاق كثار
قلتلها بطلت، خليني بالبيت

وقد اشتهرت هذه الأغنية كثيراً في دول الخليج العربي، عندما نُفذت منها نسخة جميلة في الكويت.

أما الثانية فتقول كلماتها:

حلوة وكذابي، (أي كذابة)
يا أغلى حبابي
والأكذب منك
حضرة جنابي

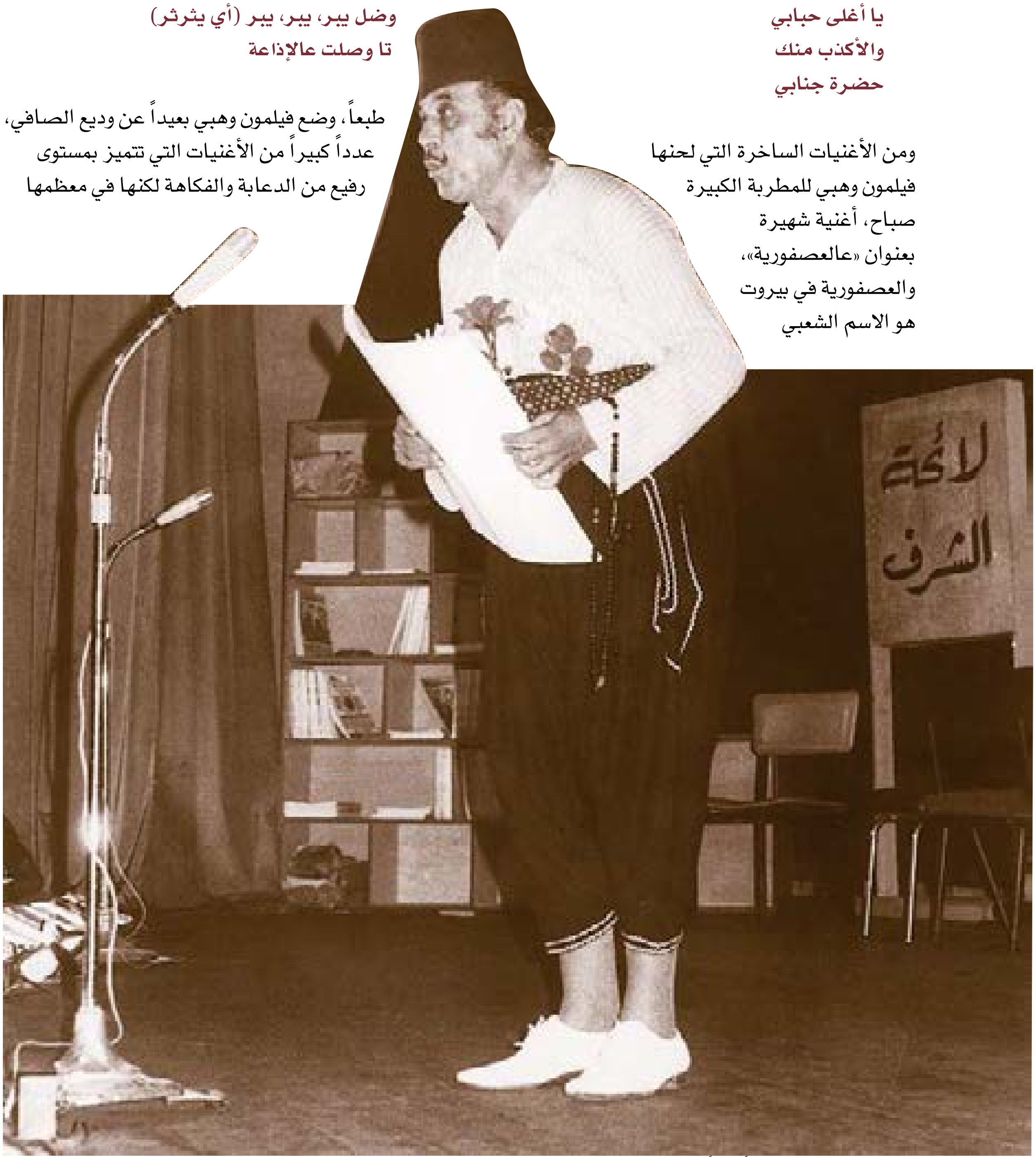
ومن الأغنيات الساخرة التي لحنها فيلمون وهبي للمطربة الكبيرة صباح، أغنية شهيرة بعنوان «عالعصفورية»، والعصفورية في بيروت هو الاسم الشعبي لمستشفى الأمراض العقلية، تقول صباح واصفة تخلّي الحبيب عنها:

عالعصفورية، عالعصفورية
وصلني بإيدو، وما طل عليِّ

كما عالجت أخرى لصباح (من ألحان فيلمون وهبي) عتاب المحبوبة لإفشاء المحبوب سر العلاقة بينهما، بدل الحفاظ على سريتها.

قلتلو بحبك بالسر
أوعى تطلّع إشاعة
صار يقر، يقر، يقر (أي يثرثر)
وضل يبر، يبر، يبر (أي يثرثر)
تا وصلت عالإذاعة

طبعاً، وضع فيلمون وهبي بعيداً عن وديع الصافي، عدداً كبيراً من الأغنيات التي تتميز بمستوى رفيع من الدعابة والفكاهة لكنها في معظمها



فيلمون وهبي.. نجم الأغنية الجادة والساخرة تأليفاً ولحناً

متداولة في الجلسات الخاصة، دون تسجيل رسمي، وكانت في عدد وافر منها من كلمات فيلمون وهبي نفسه. وقد تراوحت هذه الأغنيات الفكاهية الساخرة لفيلمون وهبي، بين اللونين السياسي والغزلي.

أما أغنيات النقد السياسي فتعمَّد فيلمون في صياغة كلماتها الإقذاع في الكلام تعبيراً عن غضبه على المسؤولين عن الحرب الأهلية اللبنانية.

الذروة مع زياد الرحباني

ولا شك بأن ذروة السخرية في الفن اللبناني الحديث، قد تبلورت مع الفنان المتعدد المواهب زياد الرحباني، في كتابة النص المسرحي كما في التمثيل، وفي كتابة كلمات الأغاني وتلحينها. ولعل اللون الفكاهي الساخر قد تحول مع زياد الرحباني إلى فن شامل يعالج شتى المواضيع، من النقد الاجتماعي إلى النقد السياسي، حتى يصل إلى الغزل.

ومن روائع أغنياته في السخرية والفكاهة، واحدة ينتقد فيها الارتفاع الجنوني في الأسعار، عند بداية انهيار العملة الوطنية اللبنانية، والتي يقول فيها:

شو عدا ما بدا
ما بتفرق مع حدا
صرنا بدنا نبيع
ذهب المناجم
وألماس الخواتم
تندفع في المطاعم
فاتورة الغدا

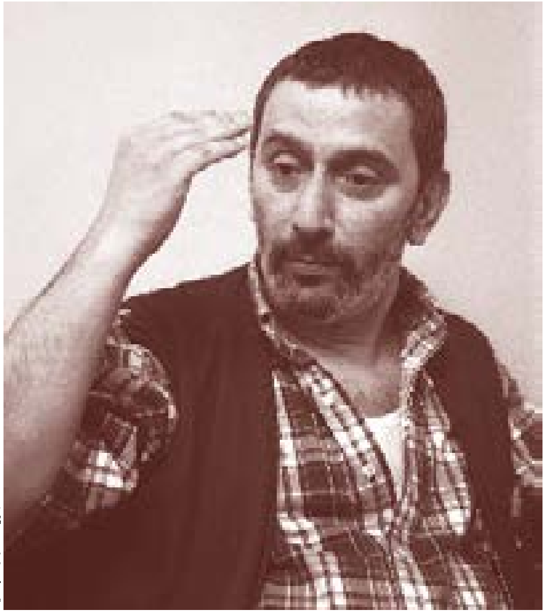
في أغنية ساخرة أخرى يصف الرحباني نفسه الارتفاع اليومي لأسعار الخضار والفاكهة والتناقض بين السعر المنخفض المسجل في الجريدة والسعر المرتفع في الدكان:

الخسّة اللي زارعها بإيدي
وسعرا مقيّد بالجريدة
حطّولا أسعار جديدي
وكل لحظة في سعر جديد
عجّل كُلْها يا رضا

وهو يدعو رضا للإسراع في أكل الخسّ قبل أن يرتفع سعره من جديد. وفي نقده لشاب فاشل في الحب، يقول الرحباني في إحدى أغنياته:

من مَرَة لمَرَة (من امرأة إلى أخرى)
عمترجع لورا
أولاد الحارة كلهم أبداً
عرفوا حبّوا، من عداك


جريدة السفير اللبنانية
عمر الزعني.. رائد الغناء الساخر في لبنان


جريدة النهار اللبنانية
زياد الرحباني.. موهبة لامعة في وقتنا الحاضر

غير أن إبداع زياد الرحباني في هذا المجال لم يحجب الأغنيات الخفيفة المعتمدة أساساً على الفكاهة والسخرية. وكانت آخر نجمات هذا اللون في لبنان الفنانة الكوميدية الشهيرة فريال كريم، التي كانت تعالج في أغنياتها الفكاهية الظريفة مواضيع السخرية من الشباب المنحرف، أو الزوج ضعيف الشخصية.

الملاحظة التي لا بد من الإشارة إليها، أن هذا اللون كان يزدهر في خط موازٍ لازدهار الأغنية الكلاسيكية، فيما بين أربعينيات وثمانينيات القرن العشرين. لكن المرحلة الجديدة في الغناء الاستعراضي التلفزيوني الخفيف ما زالت إلى الآن على الأقل مفتقرة إلى هذا اللون، وهو أمر يدل على فقر الحصيلة الثقافية التي تحرك كتّاب وملحني أغنيات الموجة الجديدة.



ثلاثة شعراء وثلاثة ذئاب

تختلف العلاقة مع الطبيعة وعالم الحيوان من إنسان إلى آخر. وديوان الشعر العربي حافل بالأمثلة والصور التي تعبِّر عن هذا التلون الكبير.
صلاح عبدالستار الشهاوي* يحدثنا هنا عن ثلاثة شعراء حفظوا لنا في شعرهم حكايات لقاء كل واحدٍ منهم بذئب، وكان لكل واحد منهم موقف مختلف عن الآخر.

الفرزدق يُطعم الذئب

كانت نشأة الفرزدق، المتوفى عام 114هـ، بين البصرة والبادية المجاورة لها. ويروى أنه لقي ذئباً جائعاً ذات ليلة في صحراء الكوفة، فعطف عليه وقاسمه زاده. وفي هذه الحادثة يقول الشاعر:

وأطْلَسَ عسالٍ، وما كان صاحباً
دَعَوْتُ بناري موهناً فَأتاني

(أطلس: أغبر، عسل في سيره: اضطرب)

فلما دنا قلت «أُدنُ، دونَك، إنني
وإياك في زادي لمُشْتركانِ
فَبِتُّ أُسَوِّي الزادَ بيني وبينه
على ضوء نارٍ، مرةً، ودخانِ
وقلت له لما تكشَّر ضاحكاً
وقائِمُ سيفي في يدي بمكانِ

(أي أن الشاعر بقي على حذره من الذئب، وظل ممسكاً بسيفه تحسباً)

تعشَّ فإن عاهَدْتني لا تَخُونُني
نكنْ مثلَ من -يا ذئبُ- يصطحبان

* كاتب من مصر

وأنـت امــرؤٌ -يـاذئـبُ- والـغـدرُ كنتما
أُخَـيَّـيْـنِ، كـانـا أُرْضِــعــا بـلِـبـانِ

(الغدر من طبيعة الذئاب، وهما كالأخوين اللذين رضعا من صدر واحد)

ولـو غَـيْـرَنـا نَـبَّـهـتَ تـلـتـمـسُ الـقِـرَى
رَمَـــاكَ بِـسَـهْـمٍ أو شَـبـاةِ سِـنـانِ

(القرى الطعام؛ شباة: طرف)

وكــلُّ رفـيـقَـيْ كــلِّ رَحْــلٍ وإنْ هُـمـا
تَـعَـاطـى الـقَـنـا قَـوْمـاهـمـا، أَخَـــوانِ

(والمعنى أن كل رفيقين في طريق يتآخيان، ولو كان بينهما قتال).

والبحتري يقتله

أما الصورة الثانية لعلاقة الشاعر بالذئب، فتختلف تماماً. يغيب عنها العطف لتحل محلها غريزة البقاء، ونجدها عند البحتري. فهذا الشاعر الذي ولد في منبج ببلاد الشام عام 206هـ وتنقل بين عشائر قبيلته طي، وتتلمذ في الشعر على يد شاعر طائي آخر هو أبو تمام، فقد كان رقيق الأسلوب وبديع الخيال.

لقي ذئب أصابه الجوع بالهزال والتقوّس، وكان شاعرنا نفسه جائعاً أيضاً، فلم يجد بداً من قتله خوفاً على نفسه، ثم شواه، وأكل منه ما يسد جوعه. وفي ذلك يقول:

لــه ذَنَـــبٌ مــثـلُ الــرِّشـــاءِ يــجــرُّهُ
وَمَـتْـنٌ كَـمَـتْـنِ الـقـوسِ أَعــوجُ مُـنْـأَدُ

(الرشاء: الحبل، المتن: الظهر، منأد: معوج)

طَـواه الـطَّـوى حتـى استـمـرَّ مـريـرُهُ
فَـمَـا فـيـه إلاّ الـعظْـمُ والــروحُ والـجِلْـدُ
يقضقضُ عُـصْـلاً فـي أسـرَّتـهـا الـردى
كَـقَـضْـقـضـة الـمـقـرورِ أرعَـــدَهُ الـبـردُ

(يقضقض عصلاً: يصوت بأنياب معوجة، أسرتها: أوساطها، المقرور: البارد)

سُـمـال وبـي مـن شـدة الـجـوع مـا بـه
بـبـيـداء لـم تُـعـرَف بـهـا عيشـةٌ رَغْـدُ
كـلانـا بـهـا ذئـب يُـحــدِّثُ نـفـسَـه
بِـصَـاحِـبِـه، والـجَـدّ يُـتْـعِـسُـهُ الـجَـدُّ

(أي كلانا يطمع في قتل الآخر)

عَـوَى ثـمَّ أَقْـعـى فـارتَـجَـزْتُ فَـهِـجْـتُـهُ
فَـأَقـبَـلَ مِـثْـلُ الـبـرقِ يـتـبـعُـهُ الـرَّعْـدُ
فـأوجـرتُـهُ خَـرْقـاءَ تـحـسَـبُ ريشَـها
عـلـى كـوكـبٍ يَـنْـقـضُّ والـلـيـلُ مُـسْـوَدُّ

(أوجرتُهُ خَرْقاء: طعنته بسنان)

.. فـخـرَّ وقـد أوردتُـــهُ مَـنْـهَـلَ الـرَّدى
عـلـى ظَـمَـأ، لـو أَنَّـه عَـذْبُ الـــورْدُ
وَقُـمـتُ فجـمَّـعْـتُ الحـصـى فاشـتَـوَيـتُـهُ
عـلـيـه، ولـلـرَّمـضـاء مـن تَـحْـتِـه وَقْـدُ
وَنِـلْـتُ خـسـيـسـاً مـنـه ثـمَّ تـركْـتُـهُ
وَأَقْـلـعـتُ عـنـهُ وهْـو مُـنْـعـفِـرٌ فَـرْدُ

النجاشي وصورة المجتمع

أما قيس بن عمرو بن مالك الملقّب بالنجاشي، والذي عاش فترة من حياته في الجاهلية، وأخرى في الإسلام، فيذكر في شعره أنه رأى حوض ماء في الخلوات وذئباً يعوي حوله من شدة العطش. فيصفه بأنه شبيه الإنسان الذي خلعه قومه وطردوه من عالمهم، ويحكي كيف أنه دخل في حوار مع الذئب، وعرض عليه صداقته، ولكن الذئب يرفض هذه الصداقة لأنها مخالفة للطبيعة، ولكنه يرجوه أن يمكّنه من الماء. فيتأثر الشاعر ويستجيب للذئب، ويفسح له المجال ليشرب. ومن ثم ينادي الذئب بقية الذئاب، فتحضر لتشرب بدورها فيما ينصرف الشاعر إلى حال سبيله متغنياً بما رأى. فالماء هنا هو الحية، والذئاب هي المجتمع. وفي هذا يقول:

ومــاءٍ كـلـون الـغِـسـل قـد عـاد آجِـنـاً
قـلـيـل بـه الأصـــوات فـي بـلـدٍ مَـحْـلِ
وجـــدت عـلـيـه الــذئـب يـعـوي كـأنـه
خـلـيـع خـلا مـن كـل مـالٍ ومــن أهـلِ
فـقـلـت لـه: يـا ذئـب هـل لـك فـي فـتـى
يـواسـي بـلا مــن عـلـيـك ولا بـخـل؟
فــقـــال: هـــداك الله لـلـرشـد إنـمـا
دعـــوت كـمـا لـم يـأتـه سَـبْـع قـبـلـي
فـلـســت بـآتـيــه ولا أسـتـطـيـعـه
ولاك اسقـنـي إن كـان مـاؤك ذا فضـل
فقـلـت: عليـك الـحَـوضُ.. إنـي تركـتـه
وفـي صفـوه فضـل القـلـوص مـن السَّجْـل
فـطـرَّب يـسـتـدعـي ذئـابـاً كـثـيـرة
وعـدَّيـت كُـلُّ مــن هــواه عـلـى شـغـلِ



حوريـــة الضباب

أتيتِ لأنسى جميع النساءْ وأعرف أنكِ
أنتِ النساء

أتيتِ تقولين: أهوى الضباب..
تمنيتُ **أني** شتاء الضبابْ

وأني برودة ليـل (النماصْ)
وأني الزهور على (الزيزفونْ)
وأني أحيط بسر المساء

وأن بعينيَّ منكِ ضيـــاءْ!

ديوان الأمس ديوان اليوم

شعر: احمد عبدالله التيهاني



أَتيتِ وكيفَ ؟ ..

ألا تذكرين؟

أتيتِ بشهوةِ بنتِ الحروف تذيبين ذاتك

في الأسئلهْ

تذوبين في لحظة من خيــالْ

وتمضينَ ... تمضين صوب الجَمالْ

برغم مساءاتكِ المثقلهْ

بأمسِ انكساراتِ بوح البناتْ

ووأدِ الحيــاةِ بوادي الحيــاةْ

احمد ماطر



مـرّة أخـرى، الأدب يسبق العلم، فيضع في ميـزان الأخلاق احتمالات التطبيقات العلمية قبل دخولها حيّز التطبيق فعلاً.
«الوديعة»[1] رواية أمريكية جديدة تطرح سؤالاً أخلاقياً كبيراً بات له ما يبرِّر طرحه بتطور التصميم الجيني ومتفرعات علم الهندسة الوراثيـة.. هـذا العلم الذي قـد يسقط في بعض تطبيقاته إلى التطلع إلى الإنسان كمجرد مستودع لقطع غيار بشرية يحتاجها إنسان «أفضل» منه!!
فاطمـة الجفـري تعرض قراءتها لهـذه الروايـة فتعرفنـا بأبطالهـا وبالقضيـة المطروحة، إضافة إلـى ترجمتها لفصل مختار بدقة من مرحلة حاسمة من مراحل الرواية.

«الوديـعة»

أولى الشقيقتين إنسانة، أما الثانية..؟

يُكتب على البعض أن يعيش في الظل، فإن سُلّطت عليه الأضواء، ظن البقية منا أن جماله ظهر وتألق بسبب هذه الأضواء، بينما هو موجود بضوء ومن دون ضوء، والخسارة كانت لأولئك الذين لم يقتربوا، ولذلك لم يروا.

آنا فيتزجرالد، الفتاة ذات الثلاثة عشر ربيعاً، بطلة رواية «الوديعة» لمؤلفتها جودي بيكولت، كانت من ساكني الظل. تخبرنا آنا أنها أتت إلى هذه الدنيا لسبب محدَّد، ووظيفة أكثر تحديداً.

أتت آنا ليكون جسمها، المصمم جينياً بعناية، مصدراً لكل ما يحتاجه جسم أختها الكبرى كيت، المصاب بنوع نادر ومميت من سرطان الدم. وتبدأ الحكاية، عندما تقرر آنا مقاضاة والديها للحصول على حقها في التحكم بجسمها طبياً، ذلك أن والديها هما من يتخذان القرارات الطبية المتعلقة بها، كونها لم تبلغ السن القانونية بعد لتكون مسؤولة عن قراراتها. وفي حال حكمت المحكمة لصالح آنا، ستمتنع الفتاة عن التبرع بكليتها لأختها كيت، المصابة بالفشل الكلوي، والمهدَّدة بالموت في أية لحظة إن لم تجد متبرعاً مناسباً لجسمها الهش.

«والدي، الفلكي المتخفي في ثياب إطفائي، حاول ذات مرة أن يشرح لي معنى الثقوب السوداء، ومدى قوتها التي تجذب كل شيء، حتى الضوء، إلى مركزها. لحظات كهذه، تحمل قوةً جاذبة كتلك التي تحملها الثقوب السوداء.. تمتصك في النهاية، أياً كان ما تشبثت به للنجاة.» *آنا فيتزجرالد*

1 – اسم الرواية بالإنجليزية هو «My Sister's Keeper» و ترجمته الحرفية هي «حافظة أختي».



Pablo Picasso. Portrait of Paul Picasso as a Child. 1923. Oil on canvas. Collection of Paul Picasso, Paris, France.

جودي بيكولت، الروائية التي تنسج العائلة بكل قضاياها خيوط رواياتها، حاكت نسيج عائلة الفيتزجرالد بكل رقة واتقان، على لسان الشخصيات الرئيسة في رواياتها، آنا وأسرتها المكوَّنة من والديها براين وسارة، والأخ الأكبر جس، بالإضافة إلى المحامي الذي وكلته آنا لرفع قضيتها كامبيل ألكساندر، والوصية جوليا رومانو التي عينتها المحكمة لترعى مصلحة آنا خلال القضية.

حياة آنا وأسرتها، كانت تتمحور حول كيت ومرضها، ولهذا تحديداً كانت كيت هي الوحيدة من أسرتها التي أغفلت الكاتبة ضمها إلى من يروون الحكاية، في إشارة واضحة إلى أن الرواية هي عن آنا، وليست عن كيت.

«هناك رف كامل مُكَرّس للصور التي تحكي تاريخ أسرتنا في غرفة المعيشة... هناك صور لي أيضاً، ولكن ليست كثيرة. أنمو من طفلة رضيعة إلى فتاة في العاشرة من عمرها في قفزة واحدة... هذا ليس خطأ أحد، وليس شيئاً مهماً على أية حال، ولكنه بالرغم من ذلك يثير الاكتئاب بعض الشيء. تحكي الصورة عن ملتقطها: كنتِ سعيدة، وأردتُ أن ألتقط هذه اللحظة. تقول الصورة بدلاً عن مصورها: كنت مهمةً جداً بالنسبة لي، لدرجة أنني تركت كل شيء في يدي، وأتيت لأشاهدك». *آنا فيتزجرالد*

تجري معظم أحداث الرواية في أيام معدودة، تختزل شخصيات الرواية في طياتها. تحكي سارة ذكرياتها، وهي الأم التي لم تر في آنا ساعة ولادتها سوى روعة وجمال الحبل السري الذي سيحفظه الأطباء لتتزوَّد به كيت. ونرى في هذه الذكريات كيف تعلَّمت الأم أن تهب آنا بقية من حبٍ أفلت من دوامة اهتمامها بكيت.

وبجانب سارة يحكي براين، رجل الإطفاء الذي يرى في عمله أن أهمية سلامة الإطفائي المنقذ تتجاوز أهمية سلامة الضحية. يهوى براين الأب علم الفلك ومراقبة النجوم، ويرى فيها من دون وعي، ملجأ ما إلى عالم أكبر لا يمتصه كليةً دون رحمة، كما يمتصه عالم أسرته الصغيرة.

أما جس، المراهق في الثامنة عشرة من عمره ، فيشي ولعه بإشعال الحرائق بحبه لوالده رغم التناقض بين مهمة الوالد وتسلية الابن، فالظروف ذاتها التي صقلت براين كرجل إطفاء يعيش حقاً لا ادعاءً حلمه بإنقاذ الآخرين، دفعت جس للعب بالنيران، كوسيلة يستطيع فيها أن يؤكد ذاته، وأن يحمي أمانه الهش من الاحتراق.

«لم آت لرؤية كيت لأن رؤيتها تجعلني أشعر بتحسن. أتيت لأنني من دونها، من الصعب علي أن أتذكر من أكون». *آنا فيتزجرالد*

قريباً من الفيتزجرالد، نرى جوليا رومانو، الوصية على آنا خلال أيام المحاكمة، وهي تكتشف أن المحامي في القضية الجديدة هو حب حياتها الذي فتحت له عالمها المغلق في سنوات دراستها الثانوية، فقط ليدير لها ظهره ويبتعد عن عالمها تماماً ومن دون إبداء أسباب، وإن ظلت أن أسبابه واضحة لا تحتاج إلى شرح. ونتعرف على إيزابيل رومانو، توأم جوليا المتطابق، مصممة المجوهرات غريبة الأطوار، مثلية الميول.. والتي تختلف تماماً عن جوليا في كل سمة من سمات شخصيتها وطبيعة حياتها. ويرى القارئ الخطوط الدقيقة التي رسمت بها بيكولت التقارب بين التوأم جوليا وإيزابيل، وبين آنا وكيت. فرغم أن جوليا وإيزابيل نشأتا من بويضة واحدة، إلا أن اختلافهما لم يمنح مساحةً لأي تشابه بينهما، وإن كان تطابقاً في الشكل، بينما نجد اختلاف آنا وكيت لم يتجاوز السطح، أو هو كما وصفته آنا: **«أنا وكيت توأمان سياميان، غير أنك لا تستطيع أن ترى موضع ارتباطنا، مما يجعل انفصالنا عن بعضنا أصعب»**. ربما، لأن جوليا وإيزابيل عاشا حرية صنع القرار، بينما انتظمت كيت وآنا في عقد واحد، دون خيار.

«إنها تمطر... اسأل أي طفل أنهى صفه الرابع الابتدائي، وسيخبرك: الماء لا يتوقف عن الحركة. يهطل المطر، ويجري نزولاً من على سفوح الجبال ليصب في مجرى النهر. ومن النهر، يجد الماء طريقه إلى المحيط، حيث يتبخر، ليتحول إلى سحاب. وعندها، مثل كل شي آخر، يبدأ الأمر من جديد». *آنا فيتزجرالد*

تمضي أيام المحاكمة، وتقاوم آنا بكل قوة طلب كامبيل صعودها إلى منصة الشهادة، ولكنها تقرر في النهاية، عند سماعها لتقييم وصيتها جوليا، أن تبوح بالحقيقة التي تؤرقها وتكشف الستار عن نسيج إنساني صادق ومؤثر..

وتدفع القاضي إلى الحكم لصالحها. ولكن الرواية لا تنتهي في قاعة المحكمة، ومفاجآت بيكولت لا تنتهي أيضاً هنا، ففي الصفحات العشر المتبقية على نهاية الرواية، تفسح الروائية المجال لمفاجأة أخيرة، تعتبرها الوسيلة الوحيدة التي تنقذ عائلة الفيتزجرالد من الدائرة الذاتية المدمرة، والتي دار فيها أفراد العائلة لسنوات وسنوات.. دون أن يستطيع أحد منهم الخروج منها، وإن حاول.

صفحات الرواية مليئة بالأمل الهادئ، وانكساره على حد سواء، وهي سمة من سمات روايات بيكولت، التي اعتادت أن تعالج في رواياتها قضايا الأسرة بطريقة شاعرية إن جاز لنا التعبير.

إنها رواية ناجحة في إجبار القارئ على التسليم بوجود اللون الرمادي، بدلاً من التمييز السهل بين الأبيض والأسود. وعلى مدار الرواية، يحاول القارئ أن يجد من يلومه، ويعلّق حمله العاطفي عليه، ولكن من دون فائدة. فلكل شخصية من شخصيات الرواية زاوية تنظر من خلالها إلى الأمور، وقد تتشوش الرؤية في بعض المواقف، إلا أن ما يشوشها هو الحب، والنوايا الطيبة الخالصة.. لا شيء آخر. الناحية الأخلاقية في قضية الأطفال المصممين جينياً شغلت المجتمعات الغربية في السنوات الماضية، وما زالت، في ظل الإمكانات والاحتمالات التي يطرحها تطور كهذا. فهل يجوز للإنسان، والداً كان أم عالماً في مختبر، أن يتحكم بصفات مولود قادم، وبمصيره، مهما كان الدافع؟ تناول بيكولت لقضية مثيرة للجدل الأخلاقي والعاطفي الشخصي مثل هذه القضية، أتى ليطرح الأسئلة، لا ليعطي إجاباتها، وليترك القارئ مع أسئلته حتى بعد انتهاء الرواية بمفاجأتها التي ابتعدت عن الطرح النظري الفلسفي، لتلمس مشاعر غاية في العمق والرقة بدون صخب أو مبالغة.



جودي بيكولت

ولدت في لونج آيسلاند في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1967م. درست الكتابة الإبداعية في جامعة برينستون، ونُشرت لها قصتان قصيرتان في مجلة (سفنتين) بينما كانت طالبة.

تنقلت جودي بين عدة وظائف مكتبية قبل التحاقها بجامعة هارفارد لتحصل على ماجستير في التربية. وكتبت بعد ذلك أولى رواياتها «أغنية الحوت الأحدب». وتتالت رواياتها ليبلغ عددها ثلاث عشرة رواية، كان آخرها رواية «الدائرة التاسعة».

تصدَّرت رواياتها قائمة مبيعات «نيويورك تايمز»، وحصلت على جوائز عدة منها جائزة «نيو انجلاند» لأفضل الكتب مبيعاً عام 2003م.

تعيش جودي حالياً في نيوهامشير مع زوجها وأولادها الثلاثة.

مقتطفات

من رواية الوديعة «آنّـــا»..

اعتدت أن أدعي أن أسرة الفيتزجرالد قد استضافتني حتى أجد أسرتي الحقيقية.. ولم أكن مبالغة كثيراً في ذلك، فشقيقتي كيت نسخة أنثوية من والدي، بينما يمثل جس النسخة الذكرية لوالدتي، وأظل أنا.. مجموعة من الجينات المختارة بعناية في المختبر، من دون هوية. أتلفّت حولي وأراقب الأسر المجتمعة حول الطاولات عندما أجلس في كافتيريا المستشفى. ويروق لي أن أفكر أن أسرتي الحقيقية تجلس على بعد طاولة مني. بالتأكيد سيبكي والداي فرحاً لأنهما عثرا علي أخيراً بعد ضياع، وسيحملاني إلى قلعتنا في موناكو أو رومانيا، لتقوم على خدمتي هناك خادمة لها رائحة ملاءات السرير النظيفة. وعندما أود تسلق الجبل، سيرافقني كلبي، ولن أتحدث إلا عبر خطي التليفوني الخاص.

المشكلة، أن أول من سأفكر في الاتصال بها لأتباهى بثروتي الجديدة، هي كيت.

على كيت أن تستسلم لجلسات الغسيل الكلوي لمدة ثلاثة أيام في الأسبوع، كل منها تستمر لمدة ساعتين. ودم كيت -هو دمي إن أردت الدقة- يغادر جسمها عبر الإبرة لينقى، ثم يعود إلى جسمها عبر إبرة أخرى. تقول كيت إن هذه العملية ليست مؤلمة، بل مملة في أغلب الأحيان. ولهذا غالباً ما تحضر معها كتاباً أو مشغِّل الأقراص المدمجة. أحياناً، نلعب سوية. تطلب مني أن أذهب إلى قاعة الانتظار، وأحكي لها عن أول شاب وسيم أصادفه هناك، أو أن أتسلل إلى غرفة البواب الذي يتصفح الإنترنت، وأعرف أية صورة عارية يحملها جهازه وقتها. عندما تكون كيت مقيدة إلى سرير المستشفى ، أغدو لها عيناً وأذناً.

اليوم، كانت كيت تقرأ مجلة «ألور» المختصة بالأزياء والموضة. وكنت أتساءل إن كانت تعي أنها تتحسس نحور عارضات الأزياء العارية على صفحات المجلة، وتقارنها بصدرها الذي تخترقه الأنابيب. فجأة، ومن بدون مقدمات، لوحت والدتي بمطوية عنوانها «أنت وكليتك الجديدة» وهي تقول: «هذا مثير للاهتمام! هل تعلمان أنهم لا ينزعون الكلية القديمة؟! هم فقط يزرعون الكلية الجديدة بجانبها». قالت كيت: «هذا ليس مثيراً للاهتمام.. هذا مخيف! تخيلي أن الطبيب الشرعي يشق جسمي ليرى أن لدي ثلاث كلى بدلاً من اثنتين». فأجابتها والدتي: «أعتقد أن سبب زرع الكلية من الأساس هو ألا يمسك مشرط الطبيب الشرعي عما قريب».

هذه الكلية الخيالية التي تتحدث عنها والدتي، تسكن حالياً في جسمي.

وأنا، أيضاً، قرأت تلك المطوية.

التبرع بالكلى يعتبر جراحة آمنة، ولكن إن سألتني عن رأيي فسأخبرك أنني متأكدة من أن كاتب المطوية كان يقارنها بعمليات أخرى عندما وصفها بالآمنة، كزرع قلب أو رئة، أو حتى إزالة ورم خبيث في الدماغ. الجراحة الآمنة هي تلك التي تذهب فيها إلى عيادة الطبيب، وتظل محتفظاً بوعيك طيلة مدة العملية التي تنتهي في خمس دقائق، كأن تزيل بثرة ما عن بشرتك، أو تسوس في أسنانك. أما إن كنت تخوض غمار التبرع بكليتك، فعليك أن تقضي ليلة كاملة قبل العملية صائماً عن الطعام والشراب، عدا المسهلات التي تضطر إلى تناولها، والتخدير الكامل الذي تقتضيه العملية، مما قد يعرضك إلى جلطة أو نوبة قلبية، أو حتى مشكلات في الرئة. العملية التي تستغرق أربع ساعات ليست أيضاً شيئاً سهلاً، فاحتمال موتك على طاولة العمليات قائم بنسبة واحد من ثلاثة آلاف. إن لم تفعلها وتمت، عليك أن تظل في المستشفى لمدة أربعة أيام قد تطول إلى سبعة، عدا تلك الأسابيع الإضافية التي تحتاجها لتشفى تماماً. هذا لا يتضمن التأثيرات الجانبية على المدى الطويل: زيادة احتمال إصابتك بضغط الدم العالي. المغامرة بالإصابة بتعقيدات أثناء الحمل. وتوصية الأطباء بعدم مشاركتك في أي نشاط قد يعرض كليتك الوحيدة للخطر.

ثم، مرة أخرى ، عندما تحتاج إلى عملية لإزالة البثور أو التسوس، فإن الشخص الوحيد الذي يستفيد من هذه العملية على المدى البعيد هو أنت. لا أحد سواك.

ثمة طرق على باب الغرفة، ثم أطل فيرن ستاكهاوس من فرجة الباب. فيرن يعمل ملازماً في الشرطة

المحلية، وبالتالي هو عضو في جماعة الخدمة العامة كوالدي. اعتاد فيرن على زيارتنا في المنزل بين كل فترة وأخرى لإلقاء التحية، وللتهنئة بالأعياد. مؤخراً، زارنا ليعيد جس إلى المنزل بعد مشاجرة كادت أن تلقي به في السجن لولا تدخله كشرطي. عندما تكون جزءاً من أسرة ابنتها تموت، يتساهل الناس معك، وكأن ما تمر به يغنيك.

وقف فيرن متردداً أمام الباب، لا يدري إن كان من الصواب أن يدخل إلى الغرفة. قال محرجاً لوالدتي: «مساء الخير يا سارة»، فوقفت والدتي متفاجئة وأجابت: «فيرن! ما الذي تفعله هنا في المستشفى؟ هل كل شيء على ما يرام؟» تقدم خطوات باتجاهها، وأجاب: «أوه.. نعم. أنا هنا في مهمة عمل». سألته: «هل أتيت لتوصل أوراق دعوى قضائية لمريض؟!» فمد يده جواباً عن سؤالها بأوراق الدعوى القضائية التي تسأل عنها قائلا بأسىً: «أنا فعلاً آسف يا سارة».

غادر دمي جسمي، كما يغادر دم كيت جسمها. لم أستطع أن أتحرك وإن أردت ذلك.

سألت والدتي بصوت خافت: «ما هذا..؟ فيرن، هل ادعى أحدٌ علي؟» أجابها: «أنا لم أقرأ محتوى الأوراق. اسمك كان مكتوباً في قائمتي ولذلك أوصلتهم إليك. إن.. إن كان هناك أي شيء ..» ولم يكمل جملته، خرج من الغرفة، واضعاً قبعته بين يديه.

سألت كيت وهي ترى والدتي تفض الأوراق المغلفة: «ماذا يحدث يا أمي؟»، فأجابتها والدتي: «ليس لدي أية فكرة». ولكني كنت قريبة منها كفاية لأقرأ الأوراق من وراء كتفها.

ياللهول. أشعر بأن خَدَيَّ يحترقان، وبخفقات قلبي تتسارع. أشعر بذات المشاعر التي شعرت بها عندما أرسل مدير مدرستي مذكرة تأديبية إلى والدي لأني رسمت كاريكاتيراً ساخراً لمعلمتي الآنسة توهي في كتاب الرياضيات. لا. شعوري أسوأ من هذا بمليون مرة.

تطالب المدعية بالحصول على حقها في اتخاذ القرارات الطبية مستقبلاً.

تطالب المدعية بعدم إجبارها على الخضوع لأي علاج طبي ليس في مصلحتها وليس فيه فائدة مباشرة لها.

تطالب المدعية بعدم وضعها تحت أي علاج طبي لمصلحة أختها كيت.

رفعت والدتي وجهها عن الأوراق، ونظرت إلي. همست قائلة: «آنا.. ما هذا الهراء؟».

شعرت وقتها أن لكمةً سددت إلي. الآن، عندما حدث ما كنت أسعى إليه، ماذا بإمكاني أن أقول لها؟ خطت والدتي خطوة باتجاهي وهي تقول: «آنا!» ومن ورائها، صرخت كيت: «أمي.. أشعر بالألم. استدعي الممرضة».

استدارت والدتي تجاه كيت المتكومة على السرير، وشعرها يغطي وجهها. من بين خصلات الشعر، أرى عينيها تنظران إلي، ولكني لست متأكدة. تأوهت كيت مرة أخرى وهي تقول: «أمي.. أرجوك». وللحظة، وجدت والدتي ممزقة بيننا. تنظر إلي ثم تنظر إلى كيت، ثم تعود لتنظر إلي.

أختي يمزقها الألم، وأنا يغمرني الارتياح. أي أختٍ أكون؟

آخر ما أراه وأنا أفر من الغرفة هو يد والدتي التي تمتد لتضغط على زر استدعاء الممرضة مرةً بعد مرة، وكأنما هذا الزر هو زناد قنبلة ما.

لا أستطيع الاختباء في الكافتيريا أو في صالة الانتظار، أو في أي مكانٍ آخر يستطيعون التنبؤ بوجودي فيه. لهذا، وجدت نفسي أصعد إلى عنبر الولادة في الدور السادس من المستشفى. لا يوجد سوى هاتف واحد في الممر، والرجل الذي يتحدث عبره يبتسم ابتسامة واسعة تكاد تتشقق لها ملامحه، ويقول لمن يحادثه: «بلغ وزن طفلتي ستة باوندات وإحدى عشر أونصة. ليس هناك من هي أجمل منها».

هل فعل والداي هذا عندما ولدت؟ هل علق والدي الزينات احتفالاً بمولدي؟ هل قبلت والدتي جبيني، ورفضت أن تسمح للممرضات بأخذي؟ أم أنها تخلت عني لهن دون اعتراض، ما دام الطبيب قد انتزع مني الحبل السري الذي كانت تسعى إليه، وانتهى الأمر؟

أنهى الأب الجديد المكالمة أخيراً، ضاحكاً من دون أي سبب. قلت له: «مبروك». بينما في الحقيقة كنت أريد أن أطلب منه أن يحتضن طفلته بقوة بين ذراعيه، ويضع لها على طرف مهدها القمر، ويعلق اسمها بين النجوم، كي لا تضطر مطلقاً في يوم من الأيام، إلى أن تفعل به ما فعلته بوالديّ.

قول آخر

وللكرتون كلمة .. عربية

عبدالله الشرهان*

خفة الظل وجذب الانتباه والتشويق أهم ما يميِّز الرسوم الكرتونية أو الكرتون، الأمر الذي يجعله المفضل في إثارة حواس الصغار والكبار على حد سواء، ففي الوقت الذي كانت تعجز فيه وسائل الإعلام الأخرى عن إيصال رسالة ما إلى الصغار، كان الكرتون هو الجسر المثير الذي مهَّد لتدفق مختلف الرسائل إلى عقول الأطفال واليافعين، وحتى الكبار، بكل يسر ومن دون أي تعقيدات.. بل وفتح المجال لمخيلة المؤلفين أمام نمط جديد من المؤثرات الكرتونية التي لم تكن مألوفة من قبل، وبفضلها أُدخلت البهجة والمرح إلى وسائل إعلام الصغار. من هنا، اكتسب الكرتون شعبيته وأهميته، فأسهم في نشر الكثير من الأفكار والأهداف على شكل قصص مصورة وأفلام ومسلسلات مثيرة. وبفضله امتلأت خزائن كثيرة، ليس فقط من ريع شباك التذاكر، ولكن أيضاً جرَّاء مبيعات التجزئة التي رافقت ظهور أبطال هذه القصص.

هذا التدفق الهائل من الكرتون حمل في طياته مختلف المدارس والأفكار الإيجابية والسلبية. وللأسف، حتى الجيد منه لم يخل من تأثير ثقافة منتجه. ولذلك أصبحت الحاجة ملحة أكثر من قبل لتكون لنا كمسلمين وعرب كلمة في هذا المجال، فعلى عكس وسائل الإعلام الأخرى، يكمن سحر الكرتون في سهولة نشره وتقبله والتأثير به بين مختلف الشعوب، سواء المنتجة منها أو المتلقية. فبالإضافة إلى إيصال الأفكار والأخلاق النبيلة التي نريدها لصغارنا من دون تشويه أو تحريف، سنتمكن حتى من التأثير على الآخرين وذلك بتعرفهم إلى سماحة ديننا وثقافات شعوبنا ولقطات من أسلوب حياتنا بطريقة مشوِّقة ومثيرة لم يعهدوها من قبل عنا. وليست هذه سوى مقتطفات مما يمكن أن تجنيه صناعة كرتون محلي بمعايير عالمية.

إن المفهوم السائد عن الكرتون (الكرتون للأطفال والأطفال للكرتون) أثر سلباً على التفكير في الخوض في رسم أو صناعة الكرتون. إذ لا يزال الوزن الوظيفي لمجالات الكرتون هشاً في عقول المجتمعات المحلية، ومعظم الجهود المبذولة تبقى فردية وتخرج باستحياء وتندرج تحت إطار الهواية وتخشى مخاطر وعواقب الاحتراف.

قد يكون وزن الكرتون بشيء من المرونة أكثر إنصافاً من تهميشه كلياً. فمن الكرتون ما لا يغني ولا يسمن. وهناك ما هو صاحب رسالة أصيلة وأهداف نبيلة. فثقل كل من يخوض هذا المجال تحدده أهدافه التي وضعها من البداية. فإذا كان مؤمناً بها بما يكفي للخوض في غمار التجربة، فلن يهمه إن لم ينصفه مجتمعه ومن حوله لأن رسالته أهم من ذلك، ولأن التاريخ سيقف في صفه في النهاية.

إلا أن الأمر ليس سهلاً كما يبدو، فالتكاليف العالية لإنتاج الكرتون وندرة المهارات المحلية كانت من أبرز العوائق التي واجهت إنتاج الكرتون محلياً، ولذلك نجد أن معظم الاتجاه السائد هو الإنتاج والإشراف على العمل في الدول الأخرى. كما أثر إغراء انخفاض التكاليف في بعض الاستوديوهات على جودة الأعمال المنتجة وبالتالي عدم انتشار الرسالة التي تم إنتاج العمل من أجلها. وفي ظل عدم وجود استراتيجية واضحة للتسويق أو لتغطية التكاليف.. ذهبت معظمها أدراج الرياح، واكتفت بانتشار محدود لا يتجاوز في كثير من الأحيان تواجد خجول على أرفف محلات معدودة.

من ناحية أخرى ، أسهمت العولمة وزيادة الإنتاج العالمي من القصص المصورة والأفلام الكرتونية إلى الرقي بالمعايير إلى مستويات أصبح من الصعب مجاراتها، أو مجرد التفكير بنيل حصة من السوق معها باستثمارات محدودة. لأن الأطفال ليسوا سذجاً كما كنا نعتقد، وأصبح بمقدورهم الآن بكل سهولة المقارنة والتعرف والانصراف عن أي إنتاج متواضع أو غير جذَّاب.

التخطيط الذكي وتبني استراتيجيات واضحة المعالم تتضمَّن مطابقة معايير الصناعة والإبداع في تشكيل عناصر الجذب والتشويق المطلوبة والتسويق المستمر، واستثمار منظومة هذا النجاح في اقتحام محلات التجزئة من شأنه أن يغطي تكاليف العمل أو أكثر.. وفي الوقت نفسه تشكيل وإيصال «الرسالة» التي نريدها لأبنائنا ولشعوب العالم بأنفسنا. فمن لها؟

* رسَّام كارتون من الإمارات

الملف

الفريسة

في كل لحظة منذ فجر الحياة على الأرض وحتى اليوم، وإلى أن تزول، هناك ملايين الحشرات والحيوانات تتساقط فريسة لحشرات وحيوانات لاحمة، تعتمد عليها غذاءً ضرورياً للبقاء. وكل حشرة أو حيوان يبحث في هذه اللحظة عن الغذاء، يعرف بطبيعته أنه قد يكون لاحقاً وجبة العشاء لغيره.

في هذا الملف يأخذنا رجب سعد السيد * في إطلالة على عالم الافتراس في الطبيعة حيث السعي إلى البقاء يتحدد وفق قانون الأقوى. ويعرّج بنا فريق القافلة على الشق الإنساني من هذا العالم، حيث لا مكان للرحمة بين حاجة الإنسان إلى الفريسة وخوفه الدائم من أن يتحول بدوره إلى فريسة.

* مدير عام المعهد القومي لعلوم البحار والمصائد بمصر



Corbis



Corbis

إطلالة على عالم الافتراس

من السهل، إن سُئلْتَ عن معنى الافتراس، أن تجيب بالتعريف الموسوعي للكلمة، الذي يفيد بأن الافتراس يعني استهلاكَ فريسة حيَّة، ويتضمَّن فائدة للمفترس، وأذىً للضحية؛ ولا يدوم زمنُهُ طويلاً، فالمواجهة بين المفترس والطريدة لا تطول. والاعتياديُّ أن يكون المفترس حيواناً، ولكنه قد يكون نباتاً من الأنواع اللاحمة، يقتنص حشرات صغيرة ليتغذى بها. وأغلب المفترسين -بطبيعة الحال- لاحمون، وبعضهم يجمع بين الأنواع الحيوانية والنباتية في قائمة طعامه، وفي بعض الحالات، لا يتضمن الافتراس قتل الضحية قبل استهلاكها، فثمة مفترسون مهيَّأون لابتلاع الفريسة حيَّةً، ولا يشترط أن يستهلك المفترس كامل جسم الفريسة، ولكن جزءاً منها.

فإذا رغبت في التوقف عند هذا الحد، فلا حرج. ولكنك لن تملك أن تكتفي، أمام ما تثيره كلمات (افتراس)، و(مفترس)، و(فريسة) من أفكار، وما ترتبط به من مسائل وقضايا علمية، واقتصادية، وأحياناً اجتماعية، وربما سياسية، أيضاً. فأنت لا تملك أن تمنع حديثاً عن الافتراس من أن يلقي ظلالاً على علاقات دولية؛ وهل تخلو الساحة الكونية من دولة (مفترسة) تتربص بأخرى؟. وبينما نجد عالِماً فلكيَّاً يرى في ابتلاع الثقوب السوداء للنجوم المستقرة سلوكاً افتراسياً، يطالعنا كاتبٌ بتصورٍ يقولُ إن الافتراس هو ميلٌ فطريٌ من بعض الكائنات الحية لأخذ جزيئات غذاء أعدَّتها كائنات أخرى، بدلاً من أن تقوم هي بإعدادها لنفسها، فالطعام الجاهز يوفِّر الوقت والطاقة!

فعلٌ مثير للشجون.. أكثر تعقيداً مما يبدو

قد تثير سيرة الافتراس شجون البعض.. ألا يمكن أن تستدعي أمامك وجوهاً بعينها، تعرفها في دائرة اجتماعية أو أخرى، حين يكون الحديث عن ذلك العصفور، من نوع (الحلمة الزرقاء)، الذي اعتاد إطلاق أصوات تحذير عند ظهور مفترس من الجوارح فوق موقع تجمُّع من أقرانه؟. لقد كان المعتقد أن هذا النوع من العصافير يمثل نموذجاً للإيثار، فثمة فردٌ يعلن عن نفسه في مواجهة المفترس المغير، تمكيناً لأفراد عشيرته من الفرار والنجاة، غير أن الدراسات السلوكية أثبتت عكس الصورة، فالعصفور الفرد صاحب صفارة الإنذار هو الوحيد بين أقربائه الذي يحيط بظروف إغارة الطائر الجارح، ويعرف موقعه تحديداً، وتتيح له هذه المعلومات أفضل فرصة لأن يستغل حالة الاضطراب التي يوقعها إنذاره بأفراد العشيرة، ليكون هو أول الناجين، غير عابئ بما تسفر عنه الإغارة من خسائر بين الأهل. الأكثر من ذلك، أن الفرد من هذه العصافير قد يطلق، عن قصد، إنذاراً زائفاً ليلقي الرعب في قلوب مجموعة العصافير، فتفر جزعةً، مخلِّفةً طعاماً كان مطلق الإنذار الزائف يشتهيه، ويريد الحصول عليه، دون حاجة لمصارعة رفاقه من أجله!.


Corbis
الحرباء وتطور وسائل الدفاع


Corbis
الشهية أكبر من حجم الفريسة


Corbis
الأعلى أقوى

وإذا دخلت إلى مجال الافتراس من دائرة الجدل العلمي حول اعتبارِ نفرٍ من العلماء أن الكائنات المتطفِّلة مفترسة، ستجد نفسك مشدوداً لمراجعة نماذج اجتماعية شائعة بكل مكان وزمان، وأنت توافق على قول الباحث الكندي الدكتور «دانيال بروكس» إن الطفيل لا يسعى إلى قتل عائله عامداً متعمداً، فمن مصلحته أن يبقى العائل صحيحاً معافىً!؛ فالقُرادُ -على سبيل المثال- يستحب العيش في آذان نوع من الفراشات، ولكنه لا يحتل من الفراشة سوى أذن واحدة، تاركاً الأخرى سليمةً فعَّالةً، فالفراشة تتحسس طريقها باستقبال وتفسير موجات فوق صوتية، تصل إلى أذنيها من الوسط المحيط بها، فإن هي فقدت صلاحية الأذنين معاً، إذا سدهما القراد، صارت صمَّاء عمياء، وتخبطت في طريقها، وكانت فريسة سهلة لكائن آخر يعتبرها غذاءه المفضَّل، هو الخفَّـاش؛ فرأى القراد أن يكتفي بأذن واحدة، مأوىً له، لتبقى الأخرى عاملةً!. وقد يبدو القراد، بهذا السلوك، رحيماً بالفراشة؛ والحقيقة أنه -بالدرجة الأولى- يصون وجوده هو، فإن الخفاش إذا اقتنص الفراشة، لن يبتلعها وحدها!

عنف صرف، ولكنه ليس شراً صرفاً

إن شرائط التلفاز تخدعنا وتسطِّحُ لنا الأمور حين تدخل علينا حجرات معيشتنا لتعرض مشاهد متكررة ثابتة للحياة البرية، لا تخلو من أسد يمزِّق غزالة أنهكتها المطاردة، أو أنثى الجراد المتعبِّد تلتهم رأس ذكرها وأبا أبنائها، أو ثعبان يبتلع فأراً مذعوراً؛ فلا يترسَّخ بأذهاننا غير أن الافتراس عنف خالص، وشر صرف.

أمَّا عن أنه عنفٌ، فهو عنف. وهل هناك ما هو أعنف من إزهاق روح كائن حي؟. غير أننا لا ينبغي أن نجتزئ الصورة؛ فالافتراس نظام؛ والمفترسون موزعون في مراتب بشبكة متناسقة، فيها المفترس الكبير، والمفترس من الطبقة الوسطى، ومفترسون صغار.. فالحشرات فرائس للطيور الصغيرة، التي هي -بدورها- فرائس للثعابين، التي تقتنصها الطيور. والمفترس الذي يحتل قمة النسق الافتراسي، أي قمة السلسلة الغذائية، والذي لا مفترس بعده، يسمى بالمفترس الأعلى، أو المفترس (ألفا)، أو (السوبر)؛ ومن أمثلته: القرش الأبيض العظيم، والنمر، والدُبُّ، والتمساح. ولا مفترس لهذه الفئة من المفترسين إلاَّ في حالة فقدانها لقدراتها القتالية، مرضاً، أو تقدماً بالسن، أو إذا طال تعرضُها للجوع الشديد؛ فتقع فريسة لأنواع أخرى، أو لأفراد من نوعها نفسه.

وللمفترسين الكبار مكانة خاصة في الثقافة الإنسانية؛ وثمة عائلات عريقة تحمل أسماء حيوانات مفترسة، كالأسد والنمر والصقر، مهما اختلفت اللغات؛ وكان النسر رمزاً للامبراطورية الرومانية، وتضعه دولٌ كثيرة معاصرة على أعلامها؛ أما الأسد فكان رمزاً للآشوريين، وهو في الحضارة الحديثة رمز لبريطانيا وهولندا، وارتبط الدب بالروس.

ولهؤلاء المفترسين الكبار تأثير هائل على التوازن بين الكائنات الحية التي تعيش في نظام بيئي بعينه، ويتضح هذا التأثير بشدة في حالات إدخال مفترس كبير إلى نظام بيئي لم يكن ينتمي إليه، أو عند إقصائه عن موئله الطبيعي. وبعض أنواع المفترسين من الفئة (ألفا) هم عُمُدُ الأنظمة البيئية التي يعيشون بها، بمعنى أن تبوُّءهم قمة السلسلة الغذائية هو الذي ينظِّم وجود أنواع الفرائس بهذه الأنظمة؛ فالذئب الرمادي، مثلاً، مفترسٌ أعلى (عمدةٌ)، لأنه يحفظ التوازن العددي للفرائس من أنواع الغزلان والأرانب البرية وكلاب الماء؛ أما القرش الأبيض العظيم، فلا يُعَدُّ عمدةً، بالرغم من أنه «مفترس ألفا»، إذ لا يمكنه التحكم في تعداد تجمعات أنواع الفرائس التي تعيش معه بالنظام البيئي.





بين المفترس المتخصص وخلافه

وفي الشبكة الكونية للافتراس، تجد المفترسين الاختصاصيين، الذين لا يصطادون غير نوع محدد من الفرائس، والمفترسين العموميين، الذين لا يفلتون أية فرصة لقتل أي حيوان يصلح كطعام. والحقيقة هي أن الاختصاصيين من المفترسين مجبرون على التخصص، فهم غير مهيَّئين إلاَّ للتعامل مع النوع من الضحايا محل تخصصهم؛ وبالمقابل، فإن الضحية تكون مزوَّدة بما يعينها على الهرب من المفترس المتفرغ لها دون غيرها. وهكذا، يتحدد مدى نجاح المفترس، أو نجاح الفريسة، بمهارة كل منهما في استخدام أدواته، وتلك -على وجه العموم- آليةٌ من آليات تحقيق الاتزان؛ ولولاها لأفنى المفترس النوع المفضَّل لديه، ويترتب على ذلك فناؤه هو، أيضاً. أو تتفوق الضحية على مفترسها المتخصص بها، فيعجز عن اقتناصها، فيموت سغباً، فتتزايد أعداد أفراد نوع الفريسة، فيختل الاتزان بالنظام البيئي الذي تستوطنه.

الجوع هو الدافع والتوازن هو النتيجة

الافتراس، إذن، ليس مجرد رغبة عمياء في قتل كائنات حية أخرى، فالجوع هو الدافع الرئيس له. وإذا انتفى عامل الجوع، انتفت حاجة معظم الحيوانات المفترسة لمداهمة الفرائس، على الأقل من باب أن في ذلك اقتصاداً في طاقتها. وقد لوحظ أن بعض الحيوانات، المعدودة من المفترسات، والتي تعيش مرفَّهةً في الحبس، أو مستأنسة أليفةً بالبيت أو بالمزرعة، تصبح -بمرور الوقت- قادرة على التفريق بين الحيوانات التي استقرت بالأذهان كفرائس، وتشاركها الحياة الرغدة في كنف الإنسان، وشبيهاتها التي تعيش خارج المنزل أو بالبرية. وتتراوح هذه العلاقة المنزلية من مجرد (التعايش السلمي)، إلى درجة الصحبة والتقارب. وأوضح مثال لذلك، الهدنة التي تنشأ بين القط المنزلي والفئران الأليفة، التي يربيها الأبناء ببيوت بعض العائلات، حيث يتناسى القط، أو يتجاهل غريزته، ربما تحت تأثير (السيد)، صاحب البيت، الذي يظهر للجميع أن أي مساس بالتوافق والسلام داخل المنزل لن يكون مقبولاً!.

لقد تبين لنا، في الإشارات السابقة ضرورة الافتراس لحفظ توازن الأنواع وصحة الأنظمة البيئية، أن هذا السلوك العنيف ليس شرَّاً خالصاً، ففيه منافع عظيمة. إن ربات البيوت في بعض أقاليم أمريكا الوسطى، يرحبن بنوع من العناكب، يقال له (عنكبوت الموز)، في بيوتهن، إذ يخلِّصهن من الصراصير وغيرها من الحشرات المنزلية المزعجة. والأمثلة كثيرة، غير أننا ننتقي منها المحسوس والملموس لنا، والمتصل بشؤون حياتنا. فعندما سئل الدكتور كيفين كاتلي، المتخصص بالتنوع الأحيائي في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي، أن يضع تصوراً لحال الأرض إذا تخلَّصت من كل أفراد العناكب، التي تنتمي للأربعين ألف نوع المعروفة منها، كانت إجابته أشبه



القط والفأر.. الافتراس المألوف



العنكبوت وتطوير أدوات الافتراس

بالكابوس، إذ قال: خلال ستة أشهر، سيُقْضَى على معظم محاصيلنا الزراعية، وأشجارنا، ومراعينا؛ إذ ستتكفَّلُ حشودُ الحشرات آكلة النباتات باجتثاث كل نباتات الأرض من جذورها، في غياب أعدائها الطبيعيين: العناكب!؛ وبالوقت ذاته، ستعيث الحشرات الناقلة للأمراض في الأرض فساداً، إذ سيغيبُ واحدٌ من أهم رادعيها ومفترسيها: العنكبوت.

وفي البحر كما في البر

كذلك، فإن وجود المفترسين بالبيئة البحرية أمرٌ ضروري لصحتها واستقرارها، كما تقول دراسةٌ أجراها باحثون في جامعة ولاية أوريجون الأمريكية على النظام البيئي للشعاب المرجانية في جزر الباهاماس، حيث عزلوا مساحات من هذه الشعاب، وأبعدوا منها أنواعاً محددة من الأسماك، ومعها منافسيها أو مفترساتها، ليروا تأثير ذلك على صحة النظام البيئي. وانتهت الدراسة إلى أن مختلف أنواع الأسماك يرتبط بعضها ببعض في شبكة الغذاء البحرية، وأن اختفاء أي نوع منها يؤدي إلى انهيار كل تجمعات الكائنات البحرية؛ وينطبق ذلك -بصفة خاصة- على حالة إبعاد الأنواع المفترسة، فهي عماد التوازن للأنظمة البيئية البحرية وأساس صحتها. وهذه مسألة وثيقة الصلة بمشكلة عالمية يعانيها عدد من المسامك الاقتصادية، حيث إن العديد من أنواع الأسماك التي



السمك الصغير بين أنياب الكبير

تستهدفها نشاطات الصيد المكثَّفَة بهذه المسامك هي من الأسماك المفترسة. وقد أثبتت هذه الدراسة أنه، من دون المفترسات تتزايد تجمعات الأنواع من الأسماك الفرائس إلى أحجام لا يستطيع النظام البيئي إعالتها؛ فإذا جاءت هذه التجمعات المتضخمة، مرضت، وينتهي الأمر إلى حالة من الانهيار تطرأ على تجمعات الأنواع الفرائس، فتتزعزع أوضاع واقتصاديات المسامك.

الحسابات الرياضية في خضم العلاقة الوحشية

للافتراس أصول وقواعد تتحددُ وِفقَ نماذج حاسوبية رياضية، حسب البحث الذي يقدمه لنا الدكتور شيجيو ياشي، من مركز البحوث الإيكولوجية بجامعة طوكيو، الذي أعدَّ نموذجاً رياضياً لدراسة سلوكيات الافتراس عند الحيوانات المطاردة، مثل الفهد، وكيف تعظِّمُ من فرص نجاح مطارداتها بتحديد اللحظة المناسبة للهجوم والانقضاض على الفريسة. وكان الباحث قد بدأ بملاحظة أن المفترس يقابل، في كل يوم، أنواعاً مختلفة الأحجام والسرعات والسلوكيات من الفرائس، فكيف يتعامل مع هذه العوامل المتباينة؟؛ هل يتَّبِعَ الأسلوب ذاته مع كل فريسة، أم أنَّ لكلٍ طريقة في الرصد والمطاردة والقنص؟.

وبالاستعانة بذلك النموذج الرياضي، تبين للدكتور ياشي أن لدى الحيوان المفترس أحكاماً تنظِّم كل خطوة من خطوات صيد الفريسة، وتملي عليه القرار الذي يتخذه بشأنها؛ فهو يوازن بين مزايا التسلل والاقتراب المحاذر إلى أدنى مسافة من الفريسة، بما يتضمنه ذلك من احتمال أن تكتشفه الفريسة، ومزايا استخدام عنصر المفاجأة بالمداهمة؛ فإذا استشعر تزايد احتمال أن تلحظ الفريسة وجوده، سارع بالهجوم قبل أن تشرع في الفرار. وأوضح النموذج الرياضي لسلوكيات الافتراس أن المفترس، وقد اتخذ قراره بمطاردة الفريسة، لا يأبه إن طالت أو قصرت مدة المطاردة؛ ولا يتراجع؛ وذلك يجعله لا (يفكر) كثيراً أثناء عملية القنص. وقد انطبق نموذج الدكتور شيجيو ياشي الرياضي على أسلوب الافتراس عند (العنكبوت النطَّاط)، الذي يستخدم عنصر المفاجأة عند افتراس الذبابة المنزلية، ويبدأ بمهاجمتها من مسافة بعيدة، بينما لا يجد نفسه بحاجة لذلك في حالة افتراسه ليرقة الذبابة ذاتها، فيقترب منها وكأنه (يدرك) أن فرص إفلاتها –بصفتها دودة بطيئة الحركة– منعدمة.

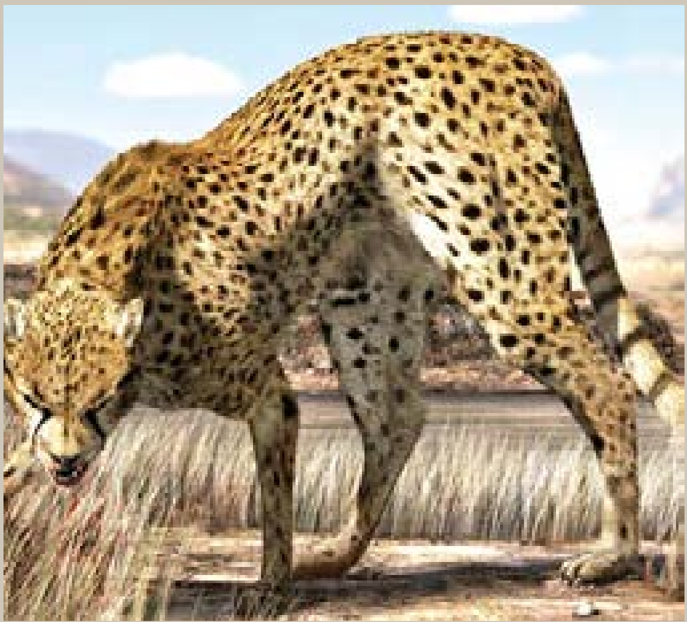
كما أن ثمة تقارباً بين ما يرسمه نموذج ياشي واستراتيجية الافتراس عند النمر الأرقط، الذي يقترب من الفريسة بقدر ما يستطيع قبل أن يبدأ اندفاعته الأخيرة، وهو على مسافة خمسة أمتار منها، ولا يستمر في مطاردتها لأكثر من خمسين متراً، فإذا أحسَّ بأنه يوشك أن يفقدها،



Corbis



image bank



Flickr

التربص، السرعة، الانقضاض.. لكل مخلوق منهجه الخاص

تزايدت سرعته بشكل ملحوظ، ولكن هذه السرعة لا تكون ملحوظة ومؤثرة إلا في المدى القصير، تماماً كعدَّاء المسافات القصيرة. ويندر أن يقفز النمر الأرقط على فريسته من فوق شجرة، تحسُّباً لاحتمال أن يُجرح. وهو مفترس ليلي، ويندر أن ينجح في الافتراس نهاراً؛ وتقوم (سياسته الافتراسية) على تفادي منافسة المفترسين الكبار، وفي مقدمتهم السبع، وذلك بتمديد قائمة طعامه وتنويعها، فلا تقتصر على فرائس من أنواع قليلة. وتشتمل تلك القائمة على 92 نوعاً من الفرائس، معظمها لا يقربه غيره من عتاة المفترسين في البرية.

مسألة فيها «بعد نظر»

ويرى مختصون بعلم نفس الحيوان أن لدى الكائن المفترس «بعد نظر!»؛ وهم يعنون بذلك تلك القدرة الغامضة، الكامنة بالحيوان، على إيجاد الحل الصحيح للمواقف، حيث لا مجال للاعتماد على الغريزة، ولا الخبرة، أو المحاولة والخطأ، أو التقليد. ومن أمثلة الحيوانات المفترسة التي تتصرف اعتماداً على بعد نظرها، النسر الملتحي، وهو طائر مفترس، يمكنه رفع سلحفاة عالياً في الجو، ثم يسقطها على الحجارة، فتتشقق دَرَقَةُ الفريسة، فيسهل عليه الوصول إلى لحمها !. أما (عنكبوت ماستوفورا)، الذي يستوطن المناطق الاستوائية، فيصطاد فرائسه من الحشرات الليلية الطائرة مستخدماً كرات لاصقة موزعة على خيوط يمسكها بأرجله؛ وعندما تطير حشرة داخل نطاق الصيد، يقذف العنكبوت كرةً على الخيوط عند الحشرة، فتلتصق بها في الحال. وعندما يجدُ أحد أنواع الطائر المعروف باسم (نقَّار الخشب)، ويعيش في جزر الجالاباجوس، يرقة خنفساء تحت لحاء شجرة، يسرع فيقطع شوكة من نبات الصبَّار، ويمسكها بمنقاره، ويدخلها إلى مخبأ اليرقة، ويأخذ في تحريكها بشدة ليثقب جسم اليرقة، أو ليرغمها على مغادرة المخبأ، وينجح سعي النقَّار الماهر بعيد النظر، ويفوز باليرقة.

سلوكيات مختلفة باختلاف الأمزجة والأنواع

وتجد بين المفترسين خبراء في اقتصاديات الطاقة، لا يفرطون في إجهاد أنفسهم للإيقاع بالفريسة، بل يعملون بهدوء، وعلى مهل، ومن بين هؤلاء أنثى نوع من الأفاعي السامة بالشمال الأمريكي، تنشط ليلاً، وتبدأ في تمشيط جحور القوارض والأنفاق التي تحفرها تحت جذور الشجر. وهي تقوم بهذا العمل فيما يشبه التكاسل، فلا تجهد نفسها بالزحف السريع، وتكتفي ببَعْضٍ ما تجده بمتناول نابيها من الفئران والضفادع والسحالي والطيور الصغيرة؛ فإذا أفلتت منها فريسة

لا تطاردها. كما أنها -في سلوكها الافتراسي عموماً- لا تنطلق لمطاردة فريسة قررت أن تقتنصها، بل تبقى ساكنة لدقيقة أو دقيقتين، ثم تزحف متمهلةً، تقتفي أثر الفريسة، وقد انخفض رأسها، وتبدو وكأنها تقبِّل الأرض بلسانها ذي الشعبتين. وعندما تصل إلى المكان الذي تعرف أن الفريسة قصدته، تُخرجُ اللسان وتتحسسها به، ثم تبتلعها. وإذا كان الموقع غير مناسب لتناول هذه الوجبة الاعتيادية، فإن الأفعى تبقي على الفريسة بفمها، حتى تنتقل إلى مكان أهدأ وأكثر راحة، فتغيِّبها في جوفها!.

وثمة من يتدنى في سلوكه الافتراسي، إذا حكمنا عليه بقياساتنا الأخلاقية، فيقطع الطريق على الآخرين ليسلبهم قوتهم، كالطائر البحري المعروف باسم (الكركر الكبير)؛ فهو قرصان بطبعه، تقوم حياته على سلب الفرائس من الطيور البحرية الأخرى، يساعده في ذلك تكوينه الرشيق وخفة حركته وقدرته على المناورة، حتى في أضيق مساحة من الفضاء. فما إن يرصد الكركر نورساً نجح في اصطياد سمكة، حتى يندفع باتجاهه مطارداً بإصرار، ولا يتراجع حتى يُضطَرُّ النورس إلى إفلات طعامه الذي جهد في صيده؛ فإن كان يوشك على ابتلاعه سمكته، فإن المطاردة والضغط يستمران حتى يبلغ الضيق بالنورس المسكين مبلغه، فيلفظ وجبته، فيلتقطها القرصان سهلةً. وقد يلجأ الكركر للعنف مع ضحاياه، فقد شوهد وهو يقوم بحركة انقضاض سريع، ويرتطم بطائر حصل لتوِّه على سمكة، فتفقده قوة الارتطام السيطرة عليها، فتسقط منه، لتجد القرصان بانتظارها. كما شوهد الكركر يقطع الطريق على بجعة فازت بسمكة كبيرة، فداهمها القرصان يلوي جناحها، فتتهاوى باتجاه سطح الماء، ولا يترك الكركر جناح طريدته إلاَّ بعد أن تتنازل عن سمكتها الشهية!.

صغار المفترسين: العقرب مثالاً

وليس الافتراس سلوكاً قاصراً على كبار المفترسين، فـ (ثقافة الافتراس)، إن جاز التعبير، شائعة بين الحيوانات متوسطة الحجم والصغيرة؛ وهي -بالوقت ذاته- صالحة كفرائس للكبار، فأسلحتها ليست مخصصة للهجوم فقط، بل هجومية/دفاعية، وتجد الكثير منها بين الحيوانات اللافقارية؛ ومن أشهرها العقرب الذي يشتهر بافتراس أبناء جنسه؛ وهو سلوك يراه نفرٌ من علماء سلوكيات الحيوان وسيلةً للتغلُّب على قسوة الظروف المعيشية التي تحياها العقارب؛ فهو (قارب النجاة) إن ضاقت عليها سبل العيش، ومن ناحية أخرى، فإن هذا السلوك -في ذاته- هو أداة لتشكيل تجمعات العقارب، حسب الفئات العمرية، فالعقارب الأحدث تُضطر إلى تكوين تجمعها الخاص، المنفصل والمتباعد عن تجمع العقارب الكبيرة، من الآباء والأعمام، المتربصين بهم. كما أدى هذا السلوك إلى تنظيم نشاطات الصيد، بحيث يخرج الصغار لاقتناص الغذاء في أوقات مختلفة عن مواعيد الكبار، فلا يدخلون معهم في منافسة يخسرونها دائماً؛ وقد يتحول الكبار إليهم، إذا عزَّت الفرائس وندرت، ضاربين عرض الحائط بأواصر القربى!.



Corbis



السمكة في فم الطير، وصغير الطير في فم الأفعى

وترصد العقارب أعداءها وفرائسها عن طريق المويجات الاهتزازية التي تصدر عن حركتها، ويمكنها التقاط هذه المويجات، من على بعد لا يزيد على قدم واحدة، عندما تنتقل إلى شعيرات حسِّيَّة، منتشرة على أقدامها، فتحدث الاستجابة، في جزء من الثانية، فتحدد اتجاه مصدر الحركة، ويتأهب العقرب، فتشرع سلاحها المميت -الإبرة السامة- في انتظار الضحية.

وتعيش العقارب في جحور تحفرها بنظام هندسي خاص، وعندما فكر الباحثون في استكشاف نظام هذا الجحر، صبُّوا فيه رصاصاً مصهوراً، وانتظروا حتى برد وجمُد، فرفعوه، ووجدوه على هيئة حلزون نازل، بارتفاع تسع بوصات. وانتهى الباحثون إلى أن هذا الجحر ضروري جداً لحماية العقرب من جفاف البيئة الصحراوية، ومن الأعداء الطبيعيين.. إذ إن كثافة توزيع العقارب في تلك البيئة تُعدُّ عاليةً، فثمة عقرب واحد في كل مترين مربعين، ومع هذه الكثافة، يصبح العقرب صيداً سهلاً مؤكَّداً لبعض أعدائه، مثل صغار الحيوانات اللبونة والبوم، بالإضافة إلى الأنواع ذات الأحجام الأكبر، من العقارب نفسها؛ فإذا لجأ العقرب إلى جحره، عزَّ على أعدائه.

كما وجد العلماء أن عقارب الرمال تقضي ما بين 92 و 97 بالمائة من حياتها بالجحر، فهي لا تكاد تبارحه، إلاَّ للضرورة القصوى، بحثاً عن طعام، أو طلباً للزواج. فإن هي خرجت مرةً دون أن يصادفها طعام، فلا غضاضة، فهي ترتد إلى جحرها في لحظات. ولكنها تحتاج إلى تأمين خروجها من الجحر الحصين في رحلة الحب والزواج.. فكيف يتأكد العقرب الذكر من وجود العقرب الأنثى بالخارج، ليتم الزواج؟ إن الفيرمونات هي وسيلة الاتصال بين العقارب، وهي خليط من مواد كيماوية، يختلف تركيبه بين أنواع العقارب، فلا يستطيع عقرب من نوع ما أن يحل رموز شفرة فيرمون أنثى من نوع مختلف.. ولولا هذه الخصوصية لاستخدمت الإناث من أنواع العقارب الكبيرة فيروموناتها للإيقاع بذكور العقارب الصغيرة، لا للزواج، ولكن للافتراس!!.

كل الأسلحة ممكنة.. حتى المعدة

ومن أشهر اللافقاريات البحرية (المُفتَرِسة) و(المفتَرَسَة)، في آنٍ معاً، نجم البحر الذي يبدو هشَّاً، لا حيلة له، والحقيقة، هي أنه يتخذ الافتراس وسيلةً لتأمين غذائه، بينما هو -بالوقت ذاته- عرضةً للافتراس بواسطة مفترسين كبار، وصغار أيضاً. ولا يرى نجم البحر الضوء، فلا عيون له؛ ولكنه يشعر بالأشياء، وبينها فرائسه، بلوامسه المنتشرة على السطح السفلي للجسم القرصي، كما يمكنه (قراءة) التغيرات في كيمياء المياه التي يعيش بها، فيترجمها إلى (معلومات)، تفيده بنوع وحجم الفريسة وقدراتها الدفاعية، فيتهيَّأ للانقضاض عليها، ويختار لها السلاح الذي يناسبها. فإذا كان حجم الفريسة أكبر من اتساع الفم، الذي يقع في مركز السطح السفلي لقرص الجسم، أو إذا كانت الفريسة عصيَّة، متشبثة بسطح صخرة، مثلاً، ولا يمكن زحزحتها، فإن النجم يحتال على ذلك بأسلوب فريد؛ فبدلاً من أن تدخل الفريسةُ إلى معدته، فإنها -المعدة- هي التي تخرج إليها، فتغطيها، وتغرقها بعصارتها، فتهضمها، وتمتصها، وتعود إلى تجويف الجسم!؛ فإذا كانت الفريسة حيواناً رخوياً صدفياً، اختلف الأسلوب قليلاً؛ فلابد -أولاً- من اقتحام الصدفة، وصولاً إلى الجسم الرخو الشهي. ويقوم بهذه المهمة زوائد على السطح السفلي لجسم نجم البحر، وظيفتها الأساسية المشي، وهي تنتهي بممصات قوية، يستخدمها النجم في الضغط على صدفة الحيوان الرخوي، ليحدث بها شقَّاً، تتسلل من خلاله معدة النجم، لتحتل الصدفة، دقائق معدودة، تهضم خلالها محتواها، ثم تغادرها!.

ومن جهة أخرى، فإن الشوك الذي يغطي أجسام نجوم البحر قد منعها عن كثير من المفترسين الكبار، في عالم المحيطات. لكن ذلك لا يعني ألاَّ سبيل إلى هذه النجوم، فلها أعداؤها الطبيعيون، مثل أنواع من طيور النورس، ونوع من ربيان (جمبري) الشعاب المرجانية، لا يوحي مظهره الرقيق بأنه قادر على افتراس نجم البحر، ذي الجسم المدجج بالأشواك، ولكن الربيان -السريع نسبياً- ما إن يجثم فوق النجم خامل الحركة، حتى يُعمِل فيه كلاَّباتِه الحادة، فيأخذ منه قضمات متتالية، ولا يتركه إلاَّ وقد أجهز عليه!

وسائل الدفاع إيجابية وسلبية

ويمكن تلخيص القانون السائد بالحياة البرية في كلمات قليلة: اسع من أجل غذائك، ولكن، حذار.. فربما تكون، أنت، وجبة العشاء القادمة، لكائن آخر، يبحث عنك الآن!. وكما سبق أن أوضحنا، فمن (ديناميكية) هذا القانون، يتحقق للأنظمة البيئية الاتِّزان؛ وتتضمَّن هذه (الديناميكية) تفاصيل عمليَّة؛ فمن جانب (المفترس)، يهمه أن تكون مهارات المطاردة والقنص، لديه، فى أوج كفاءتها؛ أما الفريسة، فإنها تستعين بكل وسائل الدفاع المتاحة، لدرء الخطر عن نفسها، وهى دفاعات إيجابية للقادرين، وسلبية، لمن لا يملكون قدراتٍ عضلية وأنياباً حادةً...

وفى اعتقادنا، أنَّ صفة (سلبية) لاتعني انتقاصاً من (فكر) هذه الكائنات، التي تبدو ضعيفةً، إنها -برأينا- لا تقل قوَّةً عن تلك التي لا تكُفُّ عن استعراض قوة عضلاتها، وحدَّة أنيابها، وتفوُّقها فى أعمال الكرِّ والفرِّ وإثارة الغبار.. إنها كائنات (حكيمة)، خبيرة باقتصاديَّات القوَّة، تقبع فى مخبئها، وقد أدركت -بعمق- حقيقة العلاقات والأوضاع حولها، فتجرى حساباتها بأسرع ما يكون، وتقوم بتقدير الموقف، واتخاذ القرار،بلا تردد. لا عجب -إذن- أن ينجح مئات، بل آلاف الأنواع، من هذه الحيوانات التي ترتضي الدفاعات السلبية أسلوباً لها، فى الاحتفاظ بمواقعها على خريطة الحياة على سطح الأرض، لعشرات ومئات الملايين من السنين. بينما هناك كائنات أخرى، أضخم وأقوى، قد طواها ظلام الانقراض.

صغار.. ولكنهم مدافعون كبار

ولعل أبرز (جنرالات) الدفاع السلبي، وأكثرهم شهرةً، فى البرية، الحرباء، ومنها تعلَّمت جيوشنا فنون التمويه، وإن عجزنا عن إتقانها



التسميم بالأسلحة الكيماوية.. في الطبيعة كل الأسلحة طبيعية



Corbis

صغار القتلة.. قد يكونون أقساهم



Corbis

بالكفاءة العالية نفسها، المشهود لها بها. وتتفوَّق الحرباء على نفسها، في وسيلة دفاعية سلبية أخرى، لا يعرفها كثيرون، فهي، إن تعرَّضت لخطر داهم، وهلاك محقق، بعد أن ينجح عدوٌّ مترصِّد في اكتشاف وتحديد ملامح جسمها، تلجأ إلى التخلُّص من ذيلها، فتصدِّر المفاجأة للحيوان المفترس، الذى يجد أمامه (كائنين) يتحرَّكان: الحرباء، وذيلها، فيصيبه التشوُّش والارتباك؛ ويستغرق الأمر منه ثوانٍ قليلة، ليدرك الحقيقة، وعندما تتبدَّى أمامه أبعاد الخديعة، تكون الحرباء -ناقصةً ذيلها- قد فرَّت، وتحصَّنت بأقرب شقٍّ، أو عادت لحيلها اللونية -بإحكام هذه المرَّة- فيأخذ جسمها ألوان الموقع، وتختفي عن الأنظار، أمَّا المفترس الخائب، فلا يجد أمامه إلاَّ الذيل، ذا الحلقات القرنيَّة، ولا حاجة له به، فيستدير كاسف البال، وينسحب من الميدان.



Corbis

إنَّ الحرباء هي النموذج المثال، الذي تستدعيه الذاكرة عندما يكون الحديث عن سلوكيات الدفاع عن الذات، بين الكائنات الحيَّة. وثمَّة كائنات أخرى، تحاكي الحرباء في أسلوبها الدفاعي، غير أنها لا تصل لدرجة براعتها. وهذه ضفدعة الأشجار، حمراء العينين، التي تعيش في غابات أمريكا الوسطى، وهي -بالمناسبة- من الكائنات التي تعانى ضغوطاً بيئية شديدة.. إنها تمتلك جسماً يصبغ معظمَه لونُ الأشجار، الأخضر؛ ولكن مشكلتها في لون العينين الواسعتين الأحمر، وفي بقع جانبية زرقاء.

وقد اعتادت ضفدعة الأشجار، لتتغلَّب على مشكلة الأحمر والأزرق، فى حالة السكون، أن تثني ساقيها الخلفيتين الطويلتين، فتتكفَّلان بإخفاء البقع الزرقاء على جانبيها، وأن تسحب غطاء عينيها، فيختفي اللون الأحمر اللافت لنظر المتربِّصين: وهكذا، يتحقق لضفدعة الأشجار توافقها مع العالم الأخضر. ولكن الضفدعة، بطبيعتها، حيوان متحرِّك متحفِّز، فإن هي لمحت حشرة على بعد خطوات منها -مثلاً- يغادرها الحذر، وتنسى إجراءاتها الدفاعية السلبية، فتقفز، منقضَّةً على الحشرة، وتلتقطها بلسانها اللزج، الذى ينطلق طرفه السائب من داخل الفم، وهو وسيلة صيد لا تخيب، فيعود بالفريسة، لتبتلعها الضفدعة. هنا، ينتبه الأعداء إلى وجود الضفدعة التي انكشف عنها غطاؤها، فتسارع إلى مكان بين أوراق الشجر، وتثني ساقيها، وتُغمض عينيها، فتعود بقعةً خضراء، على سطح أخضر!.

أمَّا الجندب مخروطي الرأس، وهو من سكَّان الغابات المطيرة، في أمريكا الوسطى، أيضاً، فإنه يعتمد وسيلة مختلفة للدفاع عن وجوده.. إنه يتعامل مع أعدائه «نفسيَّاً»، فيحاول إخافتهم، إذ أنَّ لديه ما يشبه القناع الذي يرتديه لاعبو السلاح، وهو قناع أسود، يعطي -مع بعض البقع السوداء على البطن- تكويناً غير مريح، يؤدي بالمتربِّصين إلى الزهد في الجندب. وحقيقة هذا القناع، أنه أجزاء خارجية من الفم، قاطعةً وحادةً، تعينه في إعداد أوراق الشجر على هيئة شرائح صغيرة، يسهل ابتلاعها.

الهندسة الدفاعية

وتستوقفنا قدرة بعض الكائنات على مواجهة المفترسين بـ (تجهيزات هندسية) خاصة، كتلك التي تقوم بها قوات المهندسين في الجيوش؛ ومن هذه التجهيزات ما يصنعه «نقَّار الخشب ذو القبعة المعقودة»، الذي يسكن مع «حيَّة الجرذان الرمادية» أشجار غابات الصنوبر العتيقة. وتتسلق الأخيرة الأشجار، وتعيش عليها، وتفترس بيض وأفراخ النقَّار، الذي استجاب لهذا السلوك الافتراسي بإنشاء دفاعات هندسية مضادة، يحمي بها أعشاشه ومجاثمه التي يبنيها على هيئة تجاويف في جذوع أشجار الصنوبر. لقد زوَّد النقَّار هذه التجاويف بثقوب صغيرة حفرها في الأنسجة الخشبية للشجرة، يسميها العلماء «آبار الصمغ»، وذلك لأنها تفرز تياراً مستمراً من مادة صمغية تحيط بمداخل مساكن النقَّار، وتصنع -بمرور الوقت- حلقات حول جسم الشجرة. وتنجح «حقول» هذه العوائق في تعطيل زحف الحيَّة إلى أعشاش بيض وأفراخ نقَّار الخشب، فتزيد احتمالات إفلات هذه الفرائس. وقد اكتشف العلماء، مؤخراً، أن ما يعطل الحية ليس فقط لزوجة صمغ



Corbis

شجرة الصنوبر، ولكن -أيضاً- باحتوائه على مادة كيماوية فينولية لها تأثير سُمّيّ على الحية.

وتستوقفنا، أيضاً، قدرة فريسة ضخمة -كالزراف- على اختيار السلاح المناسب ضد مختلف أنواع الخطر، إذ يستطيع الزراف أن يميز بين الدفاع ضد عدو مفترس، والدخول في معركة متكافئة، مع فرد من نفس النوع، مثلاً. ففي الحالة الأولى، وإذا هاجمه مفترس شرس، كالأسد، فإنه يشحذ أقوى أسلحته، قدمه القوية، فيوجه إليه رفساته التي تبلغ من القوة درجة تكفي لتحطيم جمجمة المفترس، كما لو كانت وعاءً من فخار!. فإذا تشاجر حيوانا زرافٍ مع بعضهما، استخدما الرأسين في التناطح، ولا يرفس أحدهما الآخر أبداً، فرقبة الزراف مرنة، تمتص ضربات التناطح، مثل عصا الكاوتشوك.

الأسلحة الكيماوية مسموحة

وقد عرف عالم الحيوان الأسلحة الكيماوية قبل البشر بكثير، وهي -في معظمها- ذات طابع هجومي، ومصممة للعدوان، وأوضح أمثلة لذلك سموم الثعابين والعناكب والعقارب، وغيرها. أما تلك المصممة للدفاع فقط، فيتسلَّح بها أنواع من الحشرات ولافقاريات اليابس والماء. وتفرز هذه الكيماويات غدداً خاصة، تنتشر بالرأس، أو الصدر، أو البطن.

وتعتمد الأسلحة الكيماوية على وقع روائحها المنفِّرة، وتأثيرها المهيِّج للجلد والعين، كما أنها قد تسبب شللاً للعدو، وقد تكون مسممة، فتقتله. فالسائل الذي يندفع من مؤخرة «الخنفساء القاذفة» يتحول إلى سحابة صغيرة سامة، ومع توالي القذائف التي قد يزيد عددها على عشر قذائف، يغطي الغاز السام موقع العدو، فيجبره على الانسحاب. كما تبين أن الحبر الأسود الذي يطلقه الأخطبوط وغيره من الرخويات البحرية الرأسقدمية يحتوي على مركَّب مخدِّر، يبطل عمل حاسة الشمِّ عند الأعداء البحريين، فيزيد ذلك -مع العتمة الناتجة عن انتشار الحبر في الماء- من فرصة إفلات الفريسة.

ترتيبات اجتماعية للدفاع عن النوع

وقد يستدعي الدفاع ضد الافتراس بعض الترتيبات الاجتماعية، كتلك التي ينظِّمها «حوت المنيّ». إن الأعداء يخافون هذا الحوت، لضخامة جسمه، ولكنهم يجدون صغاره فرائس سهلة فيسعون إليها، وتزداد فرص تعرُّض الصغار لهجمات المفترسين، وبصفة خاصة الأقراش، حين تؤدي الحيتان الكبيرة نشاطاتها الاعتيادية بالغوص في الأعماق البعيدة، وهو النشاط الذي لا يقدر عليه الصغار، لعدم اكتمال تكوينهم الطبيعي، فيتركون في المياه السطحية. وقد فطن الكبار إلى ضرورة توافر الحماية لأطفالهم عند السطح، لحين عودتهم من رحلات الغوص في المياه العميقة، فكان أن توصلوا إلى نظام لمجالسة الأطفال، شبيه بذلك الذي يتبعه البشر، فتتناوب مجموعة من الأمهات، تتكون كل منها من عشر أمهات، العكوف على رعاية الصغار، في الفترات الفاصلة بين عمليات الغوص المتتابعة، فيتجنب الصغار شرَّ الأغراب المتربصين. وقد لوحظ أن الأفيال تشارك حيتان المنيّ هذا الأسلوب في حماية أطفال القطيع. ويرى نفرٌ من علماء سلوكيات الحيوان أن هذين الحيوانين لم يكونا ليتوصَّلا إلى هذا النظام الدقيق لرعاية الأطفال لو لم يكونا متمتعين بمخٍّ متقدم كبير الحجم.

وقد صار سلوك إناث الجراد المتعبِّد تجاه ذكورها مثلاً على الغدر وانعدام الوفاء، غير أن من يتأمل هذا السلوك قد يراجع هذا المثل الشائع. فالمعروف عن هذه الحشرة أنها نباتية، في أحوالها العامة، فإذا حان موسم التوالد، انقلبت لاحمةً شرهةً، فتقبل الإناث منها على صغار وضعفاء الذكور، فتلتهمنهم التهاماً. والعجيب أن هؤلاء الذكور لا يظهرون أدنى مقاومة تجاه إناثهن المفترسات، بل يبدون وكأنهم يقدمون أنفسهم لهنَّ طوعاً، وكأنهم يعلمون أن أجسامهم ستتحول في بطون إناثهن إلى بروتينات لازمة لإنتاج البيض والأكياس التي تحميه حتى يفقس؛ فهم يضحون بأنفسهم لتستمرَّ دورة الحياة.

وفي ختام هذه الجولة في عالم الافتراس، ننظر إلى صور المفترسين الكبار ونتساءل، كما تساءل قارئ في رسالة لمحرر مجلة (بي بي سي) للحياة البرية: لماذا يتسم مظهر المفترسين، عامة، بالشراسة؟؛ ألم يكن من الأجدى لهم أن يظهروا على درجة من الوداعة واللطف؟.

وقد جاء في رد المحرر على رسالة القارئ: إن عيني المفترس موجودتان على صفحة الوجه، بالمواجهة، وهما تستخدمان، معاً، في الرؤية، كما هو الحال عندنا نحن البشر، ليساعدا الحيوان المفترس في التقدير السليم للمسافات. ولعل تشكيل وجه المفترس على هذا النحو، يقول المحرر، يضفي عليه انبساطاً، ويجعله أقرب شبهاً بالوجه البشري؛ ولعل ذلك ما يجعل لهذه الحيوانات المفترسة جاذبية عند الناس، بالرغم من وحشيتها!!قبل اكتشاف الإنسان للزراعة كانت «الفريسة».

افتراس ذوي القربى



الأم تفترس صغيرها من دون أن تعرف!

مهما سعى العلم إلى إقناعنا بأن افتراس الحيوانات لبعضها البعض جزء من نظام حياتها، فلا يمكن لهذا المنطق تبديد مشاعر الألم التي يثيرها بعض أشكال الافتراس، وأكثرها إثارة للحزن يبقى ولا شك افتراس ذوي القربى.

فمقابل الإحساس بالعاطفة والحنان أمام صورة أنثى ضارية ترضع جراءها يؤكد علماء الحيوان (ومنهم لوك هانتر مؤلف كتاب «قطط إفريقيا») أن بعض القطط الكبيرة مثل اللبوة والفهدة والنمرة الرقطاء المشهورة بحمايتها الشرسة لصغارها، تقدم على التهام جراءها إذا ما قتلتهم حيوانات أخرى.

ويؤكد الباحثون أن الأنثى لا تتعرف على جروها بعد مقتله. فتقدم على الأكل منه، وهي تنادي ابنها المفقود ليشاركها الطعام، من دون أن تعرف أنه هو الطعام.

من جهة أخرى لا يزال قتل الأشقاء يمثل للعلماء لغزاً محيراً. فلماذا تشيع هذه الظاهرة بالغة القسوة بين أشقاء يشتركون في نصف الصفات الوراثية بالمتوسط، التي يحملها كل منهما؟

يرجح البعض أن قتل الأشقاء في عالم الحيوان هو نوع من الموازنة ما بين المكاسب والخسائر بالنسبة إلى الشقيق القاتل. وهو إحدى الآليات التي تلجأ إليها الحيوانات لضمان استمرارها في بيئات محدودة وتحت ضغوط معينة.

وجاء في كتاب ظهر مؤخراً وعنوانه «التاريخ الطبيعي لمزاحمة الأشقاء» أن الأبوين يعمدان إلى إنجاب العديد من الصغار. ويكون على هؤلاء الصغار أن يتنافسوا للحصول على الغذاء المحدود، ومن أجل الاستئثار برعاية الأبوين في حالة الحيوانات التي تعتني بأطفالها في مراحلها العمرية المبكرة.

ويلاحظ مؤلفا هذا الكتاب أن استهداف الأبوين للذرية كبيرة العدد يتضمن ثلاث ميزات:

1 – أنه تأمين للنوع ضد الخسارة التي يمكن أن تقع في صفوف الصغار قبل البلوغ.

2 – أن يصبح الصغار الضعفاء مصدر غذاء للأقوياء من أشقائهم وربما الآباء أيضاً في أوقات الشح.

3 – تنشئة أكبر عدد ممكن من الصغار الأقوياء. ففي حالة الضبع الأرقط مثلاً، يتقاتل الأشقاء بمجرد خروجهم من الجحر الذي ولدوا فيه لتوهم. ومعروف أن صغار هذا النوع يولدون بأنياب حادة، ومنذ لحظة الولادة يبدأ تقاتلها بالاعتماد على هذه الأنياب، وينتهي بالتخلص من الجراء الضعيفة التي تطرد من الجحر، وتحرم من رعاية الأبوين وتتضور جوعاً وتعاني من جراها الثخينة حتى.. الموت.

الفريسة ثقافة وأدب وفن

قبل اكتشاف الإنسان للزراعة كانت «الفريسة» الهاجس الإنساني الأول. هاجس الإنسان في الحصول على ما يكفي من الفرائس الضرورية للبقاء، وهاجسه أيضاً في ألاَّ يقع هو فريسة لحيوانٍ جائع. وبحثاً عن أراض جديدة غنية بالطرائد، انطلق الإنسان القديم فيٍ هجراته الأولى من إفريقيا عبر الجزيرة العربية لينتشر في آسيا وأوروبا، ويستوطن أي مكان واعد بوفرة الفرائس. لذا، ومنذ ظهور أول أشكال التعبير الفني ثم الأدبي، كانت «الفريسة» حاضرة كواحدة من أساسيات علاقة الإنسان بالطبيعة عموماً وبالحيوان خصوصاً. فالرسوم الجدارية في الكهوف القديمة التي تمثِّل الأعمال الفنية الأولى التي أنجزها الإنسان، ركَّزت بشكل شبه حصري على تصوير الحيوان البري، الطريدة، الفريسة، الشأن المهم في الحياة آنذاك.

فريسة الصياد في الفن

وبنشوء الحضارات وتطورها وحتى يومنا هذا، بقيت الفريسة حاضرة في الآداب والفنون كافة من الأساطير الإغريقية وصولاً إلى السينما الأمريكية في يومنا الحالي. ولكن، بخلاف العصر الحجري، تعددت نظرات الثقافات والحضارات إلى الفريسة. كل منها وفق مفهوم أو اهتمام خاص، كما بات لكل فنان أو أديب زاويته الخاصة في التطلع إلى هذا الجانب من العلاقة بين الإنسان والحيوان التي تبقى صورة افتراس أحدهما للآخر حاضرة أبداً في الوجدان.

ولو أخذنا مشاهد الصيد حيث الإنسان هو المنتصر عادة على الحيوان لوجدنا أن الأعمال الفنية التي تمثل مطاردة الإنسان لفريسته هي أكثر من أن تحصى بدءاً بالرسوم الجدارية الفرعونية من عصر رعمسيس الثالث (1195 - 1164) مروراً بقصر آشور بانيبال في نينوى وصولاً إلى بيوت الأثرياء الإنجليز التي لا يخلو معظمها من لوحة تمثِّل مشهد وجهاء إنجليز فوق خيولهم يطاردون برفقة الكلاب ثعلباً أو غزالاً.. هذا من دون أن ننسى مئات المنمنمات الإسلامية التي تمثل رحلات صيد ونرى فيها الغزلان تتساقط تحت سهام الصيادين، ولا يزال الكثير منها يتكرر إنتاجه حتى يومنا، خاصة في إيران، على شكل سجاد من الحرير يعلق على الحائط.

وفي كل عمل فني يمثل فريسة في مشهد صيد هناك خطاب مختلف. في لوحة آشور بانيبال تستوقفنا شجاعة الملك الذي يدخل في تماس مع الأسود. أما في لوحة الرومنطيقي أوجين ديلاكروا في القرن التاسع عشر، فإن عواطفنا تتحرك للذعر البادي على الخيول من الفرائس المفترضة: الأسود.

الأمر نفسه ينطبق على الشعر في تناوله الصيد وفريسته. فمشاعر الصيد كما تناولها الشعراء العرب (سبق للقافلة أن تناولت الموضوع في باب ديوان الأمس العدد 1 من المجلد 53) تراوحت بين ما يقتصر منها على الفخر بالذات أو بالفرس، وبين ما أتى في معرض التعزية لفقدان شخص عزيز بتتبع مظاهر الموت في كائنات الطبيعة.

ولعل ذروة ما بلغه الشعر في هذا المجال، كان في تناول الصيد من وجهة نظر الفريسة كما هو حال قصيدة «موت الذئب» التي تعتبر أشهر قصائد الشاعر الفرنسي ألفريد دي فيني في القرن التاسع عشر. والتي حمَّلها الشاعر الكثير من مفاهيمه للحياة والموت والواجب والكرامة.









مشاهد الصيد كما ظهرت في المنمنمات الإسلامية وفي الرسم الفرعوني، وحتى الرسم الإنجليزي من القرن التاسع عشر

جدلية الفريسة والمفترس

وعلى الرغم من كثرة الأعمال الفنية والأدبية التي تتناول الصيد حيث الإنسان هو المفترس والحيوان هو الفريسة، فإن قيمة «الفريسة» تبدو في الميراث الثقافي الإنساني أوسع وأعمق من أن يحيط بها الخطاب المباشر للصيد. ففي الأساطير اليونانية مثلاً نرى أن تقديم الإنسان فريسة للحيوان الضاري كان يشكّل العقاب الأقسى لمستحقيه. مثل لاوكون الذي أدخل حصان طروادة إلى المدينة وتسبب بنكبتها، فكان جزاؤه أن يُقدم مع ولديه فريسة لثعبان ضخم. أما البطل هرقل فقد بنى أسطورته من خلال تحوّله من مشروع فريسة إلى قاتل الحيوانات المفترسة مثل السباع والأفعى ذات السبعة رؤوس.

ومنذ عصر الإغريق تجلّت جدلية الفريسة - المفترس في معظم آداب العالم، وبشكل أفضل بكثير مما ظهرت عليه في فن الرسم. فأي الطرفين هو الفريسة وأيهما المفترس في رواية ملفيل «موبي ديك»؟ الحوت الأبيض أم الصيادون؟ وأيهما المفترس في رواية همنغواي «الشيخ والبحر»؟ أسماك القرش أم الصياد نفسه؟
الجواب يظهر بكل تعقيداته في علاقة الإنسان بالذئب. هذا الحيوان المفترس الذي عاداه الإنسان على مر العصور أيما عداءٍ، فنسج حوله الحكايات والأساطير بدءاً بـ «ليلى والذئب» وانتهاء بـ «الرجل المستذئب»... ولكن هذا الحيوان المفترس كان على مر العصور فريسة بنادق الصيادين والأفخاخ حتى انقرض تماماً من معظم بقاع الأرض، ولم يبق منه ما يتجاوز الحد الأدنى الضروري لبقاء النوع. فالمواجهة ما بين الإنسان الخائف من أن يكون فريسة للذئب انتهت بقلب المعادلة تماماً بتحول المفترس إلى فريسة والعكس بالعكس.

الفريسة المعاصرة

بموازاة الحركة الرومنطيقية في القرن التاسع عشر التي وجدت في الصيد وموضوع الفريسة مجالاً درامياً للتعبير عن العواطف وشحنها في الأدب والفن، ظهر أدب جديد، أو آداب جديدة تعاملت مع موضوع الافتراس من زوايا مختلفة أهمها ثلاثة، ما زالت قائمة حتى اليوم، وتستند إلى ثلاثة معطيات ميزت الحياة في القرن التاسع عشر:

1 - الاستكشاف الجغرافي، الذي شكّل العمود الفقري لأعمال الروائي الفرنسي جول فيرن (حيوانات عملاقة تفترس البحارة في «عشرين ألف موضع تحت سطح البحر»).

2 - استيطان الأوروبيين في إفريقيا بعد استعمارها، قصص المغامرين في كينيا والكونغو.

3 - ظهور أشكال من الجرائم في المدن دفعت الخيال نحو الماورائيات بحثاً عن القدرة على هز مشاعر لم تعد أعمال القتل العادية تهزها كفاية (قصص مصاصي الدماء مثل دراكولا ونوسفيراتو).


الديناصور في فيلم «جوراسيك بارك»


سمكة القرش في فيلم «جوس» حيوان مفترس أم فريسة؟

ولو تطلعنا إلى الفريسة في السينما الأمريكية خلال القرن العشرين لوجدنا أنها كانت ولا تزال تنتمي إلى واحدة من هذه الفئات الثلاث: حيوانات ضخمة أو سامة تهاجم المدن الحديثة وتفترس سكانها: عناكب، أرانب، خفافيش، نحل، وأشهرها ولا شك «الطيور» لألفريد هيتشكوك الرائد في هذا المجال، حيث نرى الطيور الجميلة والوديعة تتحول في كثرتها إلى ضواري مفترسة تفتك بالناس بأشكال مرعبة.. ومغامرون في إفريقيا بعضهم للدفاع عن الحيوانات المفترسة، وبعضهم ليسقط فريسة لها، إضافة إلى قصص مصاصي الدماء التي تستعيدها السينما مرة تلو المرة. ناهيك عن الأفلام التي تقوم على تصوير عالم الافتراس المخيف وكأنه يحيط بنا أينما كان مثل سلسلة أفلام «جوس» (الفك)، حيث نرى أسماك القرش تفترس السابحين على أحد الشواطئ، تذكيراً بأن وحشية المواجهة بين الإنسان والحيوان ما زالت كما كانت منذ آلاف السنين.
وما النجاح العالمي الذي حظي به فيلم «جوراسيك بارك» حيث تبعث الديناصورات المفترسة حية لتفترس الناس.. إلا تأكيد على أن استحضار الماضي يلبي حاجة الإنسان إلى التطلع إلى نفسه.. كفريسة محتملة، أملاً، ربما، في أن لا يصبح فعلاً كذلك.



بين موضوعية العلم والمقاييس الأخلاقية

يؤكد الباحثون ومعدّو الأفلام الوثائقية العلمية عن عالم الحيوان، أنهم يرصدون ما يجري في الطبيعة ويسجلونه من دون أي تدخل من قبلهم، رغم أن مشاهد افتراس الحيوانات لبعضها قد تكون على مستوى من القسوة تدفع المشاهد إلى الرغبة الجامحة في التدخل لإنقاذ الضحية المذعورة والجريحة والمثيرة للعطف. ولا يعاني شهود العيان هؤلاء أية مشكلة أخلاقية، ولا يلامون على سلبيتهم أمام هذه الأحداث الدموية. إذ إن العلم صنّف منذ زمن طويل افتراس الحيوان للحيوان كأمر «طبيعي» بالمعنى الحرفي للكلمة. وكشرط لا غنى عنه لبقاء الأنواع وتوازن الحياة في الطبيعة.

أما «افتراس» الإنسان للحيوان، الذي كان الصيد أوضح الأشكال في التعبير عنه وأضخمها تاريخياً (قبل نشوء مزارع الحيوانات الحديثة)، فقد بات موضع مساءلة منذ قرن ونصف تقريباً. ففي القرن التاسع عشر، عصر المجازر الكبرى التي ارتكبها الصيادون في إفريقيا وأمريكا، ظهرت أولى بوادر أخلاقيات الصيد على يد أرستقراطي بريطاني يدعى هنري هيربرت، كتب منذ عام 1839م سلسلة مقالات في أمريكا حول أخلاقيات الصيد كي يكون «رياضة» لائقة تختلف عمّا يمارسه القتلة من عامة الناس. وبمرور الزمن راحت القوانين أينما كان في العالم تضيّق الخناق على الصيادين من خلال تحديد فترات الصيد المسموحة وأنواع الأسلحة والطرائد، وكل ذلك تحت ضغط هاجس الحفاظ على الأنواع المهددة من الانقراض، بعدما انقرض فعلاً العديد منها. وبموازاة ضبط الصيد، نمت في النصف الثاني من القرن العشرين ظاهرة التعاطف مع الحيوان بعدما أخلّت الأسلحة النارية الحديثة بموازين القوى بين الإنسان والحيوان. حملات عالمية أولاً للدفاع عن الفيلة وحيوانات الفقمة التي كانت تتهاوى تحت ضربات البنادق طمعاً بالعاج والفراء، ومن ثم القطط الكبيرة ثم عشرات ومئات الأنواع، فجميع المخلوقات الحية من دون استثناء.



Corbis

ويذكر الكثيرون أنه عندما أخرج فرنسيس فورد كوبولا في أواخر السبعينيات فيلمه «القيامة الآن» الذي تدور أحداثه حول حرب فيتنام، وتميّز بمشاهد عنف عزّ نظيرها في تاريخ السينما، لم يتعرض الفيلم للنقد والملاحقة القانونية إلا لمشهد ذبح ثور بصورة وحشية. ولكن البشرية تستهلك يومياً آلاف الثيران والأبقار وملايين الطيور التي يتم ذبحها يومياً في المسالخ. ولم يؤدِ اقتحام المقاييس الأخلاقية للمسالخ إلا إلى جعل عمليات الذبح الأوتوماتيكية تتخذ «ألطف» أشكالها وأقلها إيذاءً للحيوان.

فمن الصيد العشوائي في أرياف العالم الثالث، إلى معاطف الفراء الفاخرة على سيدات باريس ونيويورك مروراً بحلبات مصارعة الثيران، تبدو المقاييس الجديدة للأخلاق الإنسانية الحميدة، قادرة فقط على تغيير بعض أنماط قتل الإنسان للحيوان وأشكال المواجهة بينه كمفترس والفريسة، حتى أن طموحها لا يرتقي أبداً إلى مستوى التطلع نحو استئصال هذه «الحاجة» أو «اللازمة» التاريخية.



Corbis

التمدن والقوانين.. ضبط الافتراس وليس إلغاء له





القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
يوليو – أغسطس 2006
المجلد 55 العدد 4

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com